ذكريات المدرسة

تأليف

جوفاني موسكا

ترجمة

مجموعة مترجمين

الكتاب: ذكريات المدرسة

الكاتب: جوفاني موسكا

ترجمة : مجموعة مترجمين

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

موسكا ، جوفاني.
ذكريات المدرسة/ جوفاني موسكا, ترجمة : مجموعة مترجمين.
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢١٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٥٨٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦١٧٠ / ٢٠٢٢

ذكريات المدرسة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

أتحدث إليكم في هذا الكتاب عن الزمن الذي كنا فيه صغاراً، تذهب إلى المدرسة، الزمن الذي نتمنى أن يعود إلينا من جديد، ومن المحال أن يعود..!

أتحدث إليكم عن الأحلام، وعن الآمال التي كانت تحويها قلوبنا، وعن براءتنا، وعن اليراعات التي كنا نعتقدها نجوماً، لأن عالمنا كان صغيراً وسماءنا كانت خفيضة إلى حد كبير.

أتحدث إليكم عن تلك الأشياء التي تذكرونها، وإذا كنتم قد نسيتموها فسأساعدكم على تذكرها..

أتحدث عن تلك الأشياء المفقودة التي تجدونها الآن في أولادكم، وتودون ألا يفقدوها أبداً.. فما أجملها!

المؤلف

الفصل الأول

يعود مدرساً

هل قدر لكم أن تعودوا– وأنتم كبار– إلى مدرستكم الابتدائية القديمة؟

إنني عدت إليها، ورأيتها مرة أخرى في السنة الماضية بعد وقت طويل، فلك المدرسة التي كنت أول أمري تلميذاً بها.. ثم عدت إليها مدرساً ورأيت مكتبتها الصغيرة، وقاعتها الكبرى، ومدرسيها..

رأيت المكتبة الصغيرة لا تزال تحتفظ بطابعها وكتبها المغلفة بنوع خاص من الورق، وقد كتبت عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها بخط جميل..

رأيت كتاب: "أبداً باتشيني"، "تونينو في سرواله الطويل" وكتاب: "أما بيرودي"، "قصص الجدة"، وكتاب: "كتلودي الحفيد"، "سوسي وبيريسي"، وكتاب: "ابا مينوندا بروفاليو" "فرولينو والنحلة العجيبة"..

كتب لم أقرأها أبداً، ولكنني كنت أرغب دائماً في قراءتها.. فقد كانت تعطى للمتفوقين في الفصل دون غيرهم. ولم أستطع أبداً معرفة من كان "فرولينو" وماذا كان يفعل بنحلته العجيبة؟ ولكن كل هذه الأشياء كان يعرفها زميلي "ماريني" الذي كان يجلس بجانبي في الفصل، والذي كان يحصل على عشر درجات من عشرة في السلوك، وتسع من عشرة في العلوم، وكان يقرأ كل أسبوع– كجائزة له– كتاباً من المكتبة الصغيرة.

وكنت أسأله قائلاً: "من هو فرولينو؟ وماذا كان يفعل بنحلته العجيبة؟"

ولكن كان كل من يحصل على عشر درجات في السلوك لا يتكلم أبداً مع زملائه، فكان "ماريني" لا يجيبني، وإذا ألححت عليه في السؤال كان يرفع يده ويشكوني للمدرس!

و"ماريني" اليوم صاحب محل عطارة، وفي بعض الأحيان أذهب لزيارته فيستقبلني بلطف، ويقدم لي كوباً من السترات أو قليلاً من شراب التمر هندي، ولا يقول لي شيئاً في أثناء هذه الزيارات عن "فرولينو" وعن نحلته العجيبة، وليس ذلك لأنه يأبى أن يحدثني عنها، ولكن لأنه لم يعد يتذكر من ذلك شيئاً!

رأيت القاعة مرة أخرى.. تلك القاعة الواسعة العظيمة حيث كنت أذهب أيام الخميس، وأنا تلميذ مع زملائي، لننشد أنشودة "يا أخوة إيطاليا"، التي أعلم كيف ينشد الأولاد.. إن الذين في الصفوف الأولى فقط هم الذين ينشدون حقاً، أما الآخرون فيفتحون فمهم فقط ببساطة دون أن ينشدوا، وإذا شك المدرس في أمرهم ونظر إليهم، حدقوا في وجهه دون اضطراب بعينين هادئتين تبدو فيهما البراءة، كأنهما تقولان له: "كيف هذا؟.. ألا تصدق إني أنشد، ألا تراني أفتح فمي كالآخرين؟.."

كم أصبحت هذه القاعة صغيرة عندما رأيتها ثانية.. وكم كانت قذرة وحقيرة تلك النقوش العجيبة المرسومة على الأسقف والجدران.. ولكن كيف حدث هذا؟ ربما كان يبدو لنا ونحن أطفال كل شيء أعظم وأجمل من الواقع، وربما صاحبني هذا الشعور وأنا مدرس إلى بضع سنوات. فقط!

كانت القاعة تلوح رائعة ونقوشها بالغة حد الاعجاب.. والمصباح المتدلي من السقف أكثر فخامة من أمثاله في أي مسرح..

ولكن كيف حدث هذا الآن– وأنا لست تلميذاً ولا مدرساً– فإن جميع الأشياء تبدو لي صغيرة قبيحة بائسة ينقبض لها قلبي؟

آه..! ليتني أستطيع أن أقول ذلك للمدرسين الذين قابلوني، وأخذوا ينظرون التي في حسد ويقولون:

"لقد تركتنا فلا شك أن مستقبلك رائع، هل تكسب كثيراً من هذه الوظيفة؟ والذين كانت عيونهم تزداد اتساعاً لفرط الدهشة عند التفكير في دخلي الخيالي، وكانوا يقولون لي:

"نحن هنا دائماً على مر السنين والأيام.. نفس الأطفال، مهما تغيرت الوجوه والألقاب.."

ليتني أستطيع أن أتحدث بذلك إلى المدرسين الذين كانوا يحسدونني على مستقبلي الباهر في مهنتي الحرة وأقول:

"لا تتركوا الأولاد، فإن الشخص ما دام يعيش بينهم فإنه يحس كأنه منهم، والحجرات الصغيرة تبدو له كأنها قاعات فسيحة.. كما أن بعض الرسوم البدائية التخطيطية على الحائط تتراءى له رسوماً عجيبة، وما دام يعيش الشخص في هذا المجال فإنه يعتقد في أشياء كثيرة لا يعتقد فيها عندما يبتعد عنها".

ليتني أستطيع أن أقول للأستاذ "باليايي" ذلك الشيخ المقوس الظهر، القصير القامة، ذي النظارات والشعر الأبيض، والذي كان دائم الشكوى.

"ما أسعدك، إنك ما زلت طفلاً دون أن تشعر، ولكثرة قراءتك لتلاميذك "كتاب القلب"[(١)]. وما زلت تعتقد في "ماركو" الذي ذهب منفرداً إلى أمريكا للبحث عن أمه وعمره أثنا عشر عاماً. إنك سعيد بكثرة ما تقرأ من القصص الخرافية في وقت الفسحة، وما تزال تعتقد قليلاً في السحر والسحرة، وفي النسوة العجائز الطيبات اللائي يقابلنك في الغابة، ويعطينك جوزة ويقلن لك: "إكسرها

(١) من أشهر الكتب الإيطالية للأطفال، ترجمه إلى العربية الأستاذ طه فوزي.

عندما تشعر أنك في خطر فلا شك إنها تنجيك... إنك لا تبوح بذلك لأحد ولكنك تحتفظ في داخل جيبك بجوزة مثل تلاميذك الذين يحتفظون في جيوبهم بهذه الأشياء، كعادة التلاميذ منذ القدم، فتجد في جيوبهم الأزرار والمسامير والمفاتيح والخنافس الصغيرة الميتة،وبالأخص خيوط المطاط، يصنعون منها النبال ويقذفون بها قطع الورق المكور على سيقان زملائهم".

ولكنني لم أقل شيئاً للأستاذ "بالياني" المسن الذي كان يبكي دائماً سوء حظه ويحسدني على مصيري في الحياة.. يا له من مسكين ذلك الأستاذ "بالياني" الذي قضى نحبه منذ بضعة أيام، وقد علمت ذلك من أحد المدرسين الذين قابلتهم في الطريق.. وقد وجدت في أحد جيوبه جوزة، كان يعتقد أن فيها نجاته من كل خطر.. ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي لكسرها وإنقاذ نفسه من الخطر!

"نحن هنا دائماً على طول السنين ومر الأيام.. نفس الأطفال، مهما تغيرت الوجوه والألقاب".. إنهم لا يعرفون ولا يفهمون إني قد عدت خصيصاً لرؤية الأطفال من جديد، رجعت لرؤيتهم عند الدخول في الصباح متجمعين منتظمين نظيفين ممشطي الشعر، ولرؤيتهم عند الخروج ظهراً وأيديهم ووجوههم سوداء يلطخها الحبر، وأربطة أعناقهم خلف ظهورهم، يضرب بعضهم رءوس بعض بالحقائب، وعدت لأرى الممر الطويل والفصول الجانبية المختلفة، والذي كنت تسمع عند المرور به صوت مدرسة السنة الأولى، وهي تسأل الأطفال قائلة: "هل للحصان خمس عشرة رجلاً؟".. فكانوا يجيبون كلهم في صوت واحد قائلين: "لا".. وتعود لتسأل: "ربما كان له أثنتا عشرة رجلاً؟".. فيجيبون قائلين: "ولا هذا أيضاً!".

وكانت تقلل دائماً من عدد السيقان حتى تصل إلى العدد الحقيقي فتقول: "هل له أربع أرجل؟.." فكانوا يجيبون في حماسة: "ولا ذلك..".

ولو أنك وضعت حينئذ أذنك على الباب لسمعت تأوهات المدرسة.. تلك

المدرسة المسكينة التي كانت تثق في طريقتها في التعليم.. لقد لاحظت أخيراً إنها لم تنجح إلا في إيجاد اضطراب مخيف في عقول تلاميذها، فيما يختص بعدد أرجل الحصان. ولا يوجد معلم ليست له طريقته الخاصة في التعليم، وإليكم على سبيل المثال الأستاذ باليابي، فإنه عندما كان يجب عليه أن يشرح دوران الأرض حول الشمس، كان يحضر إلى المدرسة ومعه برتقالة وقطعة من الشمع، فكان يبرز البرتقالة للتلاميذ قائلاً لهم: "هذه هي الأرض"، ويظهر الشمعة ويقول: "وتلك هي الشمس"، وكان يغلق الباب والنوافذ، ويبدأ في الدوران حول ضوء الشمعة الضئيل الخافت الذي كان يخفف قليلاً من ظلمة الفصل، وهو ممسك بالبرتقالة في يده.. كان يدور في ثقة كما لو كانت تلك البرتقالة في الواقع هي الأرض نفسها، بينما كان التلاميذ لا يصدقون شيئاً من. ذلك، ولا يرون في الأستاذ باليابي إلا أستاذاً مسناً مسكيناً، وربما ظنوا إنه مجنون، يدور حول الشمعة، ممسكاً بيده البرتقالة، فكانوا يقذفونه بقطع من قذائف الصيد، مستخدمين في ذلك النبال. وكان أكثر الأطفال حماسة وجرأة يحبون على أيديهم وأرجلهم على طريقة الهنود الحمر حتى يصلوا إلى مقعد المدرس، فيقلبون المحبرة فوق دفتره على أمل أن يحجب الحبر نهائياً درجاتهم السيئة (وكثيراً ما تقترن جرأة التلاميذ بقلة رغبتهم في التعليم)، وبعد أن تنتهي التجربة وتفتح الأبواب والنوافذ مرة أخرى، يقف الأستاذ باليابي ويسأل التلاميذ قائلاً: "هل فهمتم؟.. من لم يفهم، منكم فليرفع يده". وكان يوجد دائماً الخبيث الذي كان يرفعها، وكان الغرض من ذلك مفهوما. وكان الأستاذ "باليابي" لا يفهم من ذلك شيئاً، بل كان يبدو مقتنعاً، ويربت على رأس التلميذ ويقول له: "إنها مسألة سهلة جداً، الشمعة هي الشمس، والبرتقالة هي الأرض التي تدور حول الشمس.. انظر".

وبعد إغلاق الباب والنوافذ مرة أخرى، يستأنف الدوران من جديد.. وكان

وجهه يبدو تارة من وراء الشمعة، ويختفي تارة أخرى، وذلك عندما يكون بين الشمعة والتلاميذ، كما يحدث للأرض سواء بسواء، وكان الأطفال ينتهزون فرصة ظهور وجه الأستاذ "باليايي"، لا لغرض. علمي.. ولكن ليقذفوه بنبالهم التي تحمل قطع الرصاص المستخدم في الصيد. وإني متأكد أن روح المدرس "باليايي" في السماء الآن بين أرواح الأطفال، ولا يزال يقوم بتلك التجربة، وهناك ميزة واحدة على الأقل وهي أن الملائكة هنالك طيبون.. وليس من عاداتهم الرمي بالرصاص المستخدم في الصيد..

أما عن تلاميذي، فإني أذكرهم جميعاً فرداً فرداً.. وهم "مارتينلي" الذي كان يهديني قطع الحلوى بعد أن يلعقها بلسانه! و"ليوناردي" الذي كنت أعاقبه، وكان يخرج لسانه لي ظناً منه إنني لا أراه، و"أنطونيلي" الذي كان يقضي في كل فصل سنتين، وكان يبدو رجلاً إذا قورن بزملائه، وكانت هناك سحابة قد بدأت في الظهور في عينيه غير الواضحتين اللتين كانتا تبدوان على النقيض من عيني "مارتينلي" البريئتين.. فهما صغيرتان تبدوان كأنهما رءوس الدبابيس وكانتا تضحكان للجميع: للزملاء، وللذباب، ولي، وللمدير!

ولم يكن يسمع شيئاً مما أقوله، كما إنه لم يكن يستذكر شيئاً.. وكان يصبغ وجهه "بالربسوس"، وذات مرة كتب في موضوع إنشاء إنه رأى كلباً في الشارع مقطوعاً قطعتين يطلب الصدقة، فلصقه بغراء الشيرفيوني(١).

وفي آخر أيام الدراسة، بينما كنت أنحني عليه لأربت على رأسه الحليق.. كنت أنصحه بألا يغضب والديه في أثناء العطلة الصيفية، فما لبث أن تعلق برقبتي وطبع قبلتين على صدغي فاصطبغا بالحبر، وفي آخر أيام الدراسة، يعيد الأساتذة للتلاميذ كل الأشياء التي صادروها منهم في أثناء العام: من مسدسات

---

(١) أحد أنواع الغراء المشهورة في إيطاليا.

من ذوات الطلقات المائة، وأزهار الطاولة، والبلي البللوري، ومجموعات من أوراق اللعب الصغيرة. أما أنا فما كنت أعيد شيئاً، لقد كنت أحمل إلى منزلي كل الأشياء التي كنت أصادرها من الأطفال، وإني لأعترف بأني كنت ألعب بها. وقد كانت الأمهات، رغم سرورهن من محبة أبنائهن لي، قليلاًت الثقة بي.. وكن يقلن عني: "إنه ما زال صغير السن!"

إن المدرس النموذجي في نظر الأمهات، هو ذلك المدرس المسن ذو الشاربين واللحية، والذي تكفي لمحة واحدة منه– كضربة منجل– كي يسيطر على الفصل ويخيفه بأجمعه، وكن يقلن: "لا يزال هذا المدرس صغيراً جداً، فإنه يصطحب كل يوم خميس التلاميذ لرؤية الآثار، ويبدو معهم زميلاً كبيراً لهم أكثر منه مدرساً، وهو إلى جانب هذا يلعب معهم كرة القدم ولا يدرس لهم الأشعار أبداً".

وتعتقد الأمهات كلهن، أن المدرس لا يكون ممتازاً إلا إذا كان تلاميذه يحفظون عن ظهر قلب تلك الأشعار المشهورة مثل:

"كان ساكناً بلا حراك[١]"، و"لقد أقسموا، رأيتهم في مدينة بوتنيدا"[٢]، و"الامبراطور فردريك يقيم في مدينة كومو"[٣]، و"كالصخرة الكبيرة التي من القمة.."[٤]، و"إني صغير أسمر ذو قرون"[٥].

ولكني كنت لا أرغم تلاميذي على دراسة الشعر.. لقد كنت أعلمهم أشياء كثيرة نافعة دون أن يفطنوا إلى ذلك.. ففي أحد الأيام، أحضرت معي إلى الفصل

---

(١) أول بيت من قصيدة مانزوني المشهورة "خمسة مايو" التي كتبها في رثاء نابليون.

(٢) شعر مشهور للأديب الإيطالي جيوفاني برشيه وعنوانه: "قسم بونتيدا".

(٣) قصيدة بعنوان "البرلمان" كتبها الشاعر "جوزيه كاردوتشي".

(٤) قصيدة أخرى لمانزوني بعنوان "عيد الميلاد".

(٥) منولوج صرصار الليل للشاعر الإيطالي جوفاني براتي.

زهرة جميلة لتدريس علم النبات. وفي يوم آخر أمسكت بعوضة بمهارة، مما ملأ نفوس التلاميذ بالإعجاب والحماسة.. وبهذه الطريقة كنت أدرس لهم علم الحشرات. أما بمناسبة السباق المعروف باسم "جيرو دي إيطاليا"(١) فقد كنت أقسم الأطفال إلى فريقين: "أنصار بنداً، وأنصار جويرا"(٢) وإذا أرادوا أن يعرفوا لمن ينتظر الفوز، كان يجب عليهم أن يحصوا الأزمنة التي كانت تنقضي في مراحل السباق المختلفة. وبهذه الطريقة، وبفضل حبهم للرياضة، كانوا يتعلمون طريقة جمع الساعات والدقائق والثواني.. ذلك الأمر الذي هو في العادة متعب وصعب، وكنت أدرس كل شيء ما عدا "تلك الصخرة الكبيرة التي من القمة"!.. فكم كان يؤلمني سماع طفل في الثامنة من عمره، يلقى تلك القصيدة البالغة الشهرة والأهمية.. فإنهم ما زالوا مخلوقات صغيرة، وما زالوا يفكرون في الفراشات، وينزعون لب اليوسفي ليضعوا داخل القشرة الفارغة شمعة موقدة صغيرة.. فكيف نسمح لأنفسنا بأن نحملهم صعوبة أشعار "ما نزوني" مع أنهم. ما زالوا صغاراً؟!

وكان تلاميذي يعترفون لي بهذا الجميل، وقد قالوا لي مرة أنهم سوف يهدون لي على سبيل التذكار قلماً ذهبياً من أقلام الحبر الجاف في آخر العام. وفي آخر أيام الدراسة، أعطاني كل واحد منهم "صلديا" وقال لي مارتنيلي وهو يقدم لي هذا المبلغ: "ثلاثون "صلديا" يا سيدي المدرس، مبلغ من المال تستطيع أن تشتري به لنفسك قلماً ذهبياً كبيراً.. كبيراً جداً!".

ثلاثون "صلديا" مبلغ كبير بالنسبة لهم.. أخذته دون أن أتكلم لأني لم أستطع أن أتكلم.. وعندما يأتي آخر يوم في الدراسة فإنه من المستحيل ألا يتأثر الإنسان. وهو إحساس ليس من مبتكرات كتب المطالعة القديمة. وفي الحقيقة أن

---

(١) سباق دراجات سنوي مشهور بإيطاليا.

(٢) بنداً وجويرا، بطلان من أبطال سباق الدراجات.

النظم كانت تمنع المدرس من قبول الهدايا، ولكني إذا رفضت تلك الثلاثين "صلديا" فإني بذلك أكون قد محوت البهجة والسرور من ثلاثين قلباً تتخيل مدرسها يحمل بين يديه قلماً كبيراً، وكبيراً جداً من الذهب!

كذلك لم أستطع أن أرفض هدية عيد الميلاد، عندما كانت الأيام تقترب من العيد.. وكانت الأمهات يأتين إلى بيتي بصحبة أبنائهن، وقد ارتدوا ملابس العيد، ويحملن في أيديهن لفافة صغيرة.. وكنت حينما أستقبلهن في مكتبي أتصرف بثبات، وكن يسألن: "يا سيدي المدرس!.. ماذا ترى في تصرفات هذا الشقي الصغير؟.." وفي أثناء ذلك يضعن اللفافة على المكتب بحصافة، أما أنا فكنت أتظاهر بعدم الرؤية.. بينما أكون مشغولاً في قرارة نفسي بما تضمه هذه اللفافة، وأنتظر بفارغ الصبر وقت انصرافهن لفتحها، ثم أستطرد في الكلام مقلداً المدرسين العجائز بدقة، وأستعيد الجمل التي سمعتها مراراً وأنا صغير.. تلك الجمل التي تؤثر في نفوس الأمهات، وتجعلهن يقلن: "يا له من مدرس ماهر!" وكنت أجيبهن بقولي: "آه... كان من الممكن أن يفعل ولدك أكثر من ذلك نظراً لذكائه" وعندئذ كانت الأم تهدد ولدها بقسوة، وهي تشير إليه بسبابتها، وتنتزع من فوق رأسه القبعة البحرية، وتقول له بصوت منخفض وهي تضغط على أسنانها: "آه يا قليل الأدب" وكنت أستمر في حديثي قائلاً: "إنه ثرثار، إنه يغضبني أحياناً لشرود ذهنه"، وأسألها عن تصرفاته في المنزل فتجيب:

"مؤسف يا سيدي المدرس، لقد جعلني أيأس من صلاحه.. كما إنه يضرب إخوته الصغار"، وعندئذ كنت أهدده أنا أيضاً بقسوة بأصبعي السبابة.. مسكين ذلك الطفل الذي كان يطأطئ رأسه وتنسكب دموعه على سرواله الصغير.. ولكن سرعان ما كنت أضيف قائلاً: "سوف يكون أحسن من ذي قبل، وإني على يقين من ذلك.. وهكذا سوف يصبح أنيس والديه ومعلمه الذين يحبونه

كثيراً".. وكانت هذه هي العبارة التقليدية التي كنت أريد أن أصل إليها للتأثير على والدته!

وعند هذه الكلمات، كان الولد يرفع رأسه وينظر إلى وهو يبتسم من خلال الدموع، وتنهض الأم- يملؤها الرضي- للانصراف، وأصحبها حتى الباب.. وتقول الأم لولدها وهي على منحنى السلم: "أد التحية مرة ثانية للسيد المدرس". وكان الطفل يحيي من جديد، بينما أظل أنا محتفظاً بوقاري وكرامتي.. ثم أغلق الباب وأعود فأنقض على هذه اللفافة، ثم أنادي على أخي وأختي اللذين كانا يسترقان- طوال وقت الزيارة- السمع خلال باب حجرة المكتب، ثم نفتح اللفافة بكل حرارة وشغف، فإذا كانت فطيرة أو زجاجة، فإننا جميعاً نقيم حفلاً ونشرب في نخب الأمهات.

وفي معظم الأحيان، كانت الهدايا "مقلمة" من الحديد الزهر، على هيئة "جندول"، أو كرة من الزجاج بداخلها صورة القديس بطرس.

كل هذه الأشياء لا تنم عن ذوق سليم، ولكنها تبدو جميلة.. ولم تكن لدى الشجاعة لنزعها من مكانها، ومع ذلك فقد عدت في آخر العام الماضي بعد وقت طويل إلى المدرسة، وكنت أريد أن أقول للمدرسين الذين كانوا يحسدونني على وظيفتي اللامعة، وكانوا يحدقون بأعينهم عند ذكر دخلي الخيالي: "لا تتركوهم.. لا تتركوا الأطفال، فإن المرء ما دام يعيش بينهم يحس ولو قليلاً بأنه مثلهم، وإن الحجرات الصغيرة تبدو كأنها أبهاء واسعة فسيحة، والرسومات البدائية على الحائط كأنها نقوش عجيبة، والكرة الزجاجية التي بداخلها صورة القديس بطرس تظهر كما لو كانت أجمل شيء في الوجود!

الفصل الثاني

في السنة الخامسة (جـ)

كنت في العشرين حينما وضعت في جيب الصّدر خطاب التعيين كمدرس احتياطي، ووضعت يدي فوق الجيب بقوة، وكنت خائفًا جدًا مِن ضياع ذلِك الخطاب؛ الَّذي كنت متلهفًا للحصولِ عليه مِن زمنٍ طويل.. وتقدمت إلى المدرسة المبَينة بِه، وسَألتُ عَن المدير.. وكنت مضطربًا حتّى خلت أنّ قلبي سَيقفز مِن بين جَنبي، وسَألتني السكرتيرة:

– من أنت؟.. في هذه الساعة يستقبل سيادة المدير المدرسين دون غيرهم..!

فقلت لها: "إنّي... إنّي بالضبط المدرس الجديد"

وأريتها الخطاب..

فدخلت السكرتيرة مُتأملة إلى المدير الَّذي خرج على التّو.. وبمجرد أن رآني؛ أدخَلَ يديه في شعره، وصاحَ قائلًا: "ولكن ماذا يفعلون في إدارة التعليم الابتدائي؟!.. يرسلون إليَّ شابًا صغيرًا، بينما أنا في حاجة إلى رجل مُجَعَّد الوجه لهُ شارب ولحية مثل "مانجانوكو"[1]، وله القدرة على السيطرة ووضع حد لهؤلاء الشياطين الأربعين المنطلقين، ولكنَّه على العكس مِن ذلك؛ بمجرد أن يروه سينقضون عليه ويلتهمونه!

---

(١) شخصية معروفة في أحد كتب الأطفال "بينوكيو، للمؤلف "كوللودي".

ولمَّا فهِمَ المدير أنَّ ذلك الكلام الَّذي قاله لا يتفق مع أحسن الطرق لتشجيعي؛ خفض مِن صوتهِ في الكلام، وابتسم لي.. وأخذَ يربت بإحدى يديه على كتفي مُداعبًا لي، وقال: "هل بلغت سن العشرين؟.. إنَّني أعتقد ذلِك، وإلّا لما عينوك.. ولو إنّه يبدو عليك أنّك في السادسة عشرة مِن عمرك، كما تبدو كأنّك تلميذ رسَبَ عدة سنوات في السنة الخامسة أكثر مما تبدو مدرسًا، وهذا مَا لا أخفيه عليك.. وهو مَا يشغلني كثيرًا. ألم تَكُن غلطة من إدارة التعليم الابتدائي؟!.. وهل كُتِبَ على الخطاب حقًا مدرسة "دانتي اليجييري؟".

فقلت له: "ها هو ذا".. وأريتهُ كتاب التعيين وعليه اسم مدرسة "دانتي اليجييري".

وصاحَ المدير قائلًا: "كَانَ الله في عوننا، إنّهم صبية لَم ينجح أحد حتّى الآن في إخضَاعِهم.. إنَّهُم أربعون شيطانًا مُنظَّمون، مُسلَّحون، ولَهم رئيس اسمه "جويريسكي".. وقد انصرف مُدَرّسَهُم وهو رجل مُتَقدم في السّن عُرِف بسيطرته، وولّى هاربًا وهو يبكي بالأمس، وطلب نقله..

ونظر في وجهي نظرة تنم عن عدم الثقة، وقال:

"لو كان لديك على الأقل شارب!"

فبدرت منّي حركة كما لو كنت أريد أن أقول بأنَّه كان مِن المستحيل أن يكبر..

ورفع عينيه إلى السماء، وقال: "تعال"

وعبرنا ممرًا طويلًا على جانبيهِ مِن الفصول: رابعة "د"، خامسة "أ"، خامسة "ب"، خامسة "ج"... وقال المدير: "هُنا يجب أن تدخل"، وعندما وقفنا أمام فصل السنة الخامسة "ج"، كانت تصدر مِنه أصوات أقل ما يُعبّر عنها أنَّها ضوضاء، فكان يسمع صراخ، وانفجارات، وتساقط كرات من الرصاص على

السبورة، وطلقات من مسدسات مِن ذوات الطلقات المائية، وأغانٍ، وأصوات المقاعد وسحبها مِن أماكنها!

وقال المدير: "إنّي أعتقد أنَّهم يقيمون متاريس!

وضغط بقوة على ذراعي، وذهب لكي لا يرى.. وتركني وحيدًا أمام باب السنة الخامسة "ج".

ولو لَم أكُن راغبًا مِن مدة عام في الحصول على ذلك التعيين!.. ولو لَم أكُن في حاجة ماسة مِن أجلى ومن أجل أسرتي لِهذا المرتب!، ربَّما كنت انصرفت عنه في صمت وسكون. وربَّما كان فصل السنة الخامسة "ج" حتَّى اليوم في انتظار مَن يخضعه.. ولكن أبي وأمي وإخوتي كانوا ينتظرونني بفارغ الصبر والشوك والسكاكين بأيديهم؛ لكي أملأ لهم أطباقهم الفارغة، ومِن أجل ذلك فتحت الباب ودخلت!

وفجأة سادَ السكون في الفصل..

وانتّهزت هذه الفرصة لإغلاق الباب والصعود إلى كرسي الأستاذ.. أمَّا هُم فكانوا جالسين على مقاعِدهِم... ولعلَّهم دهشوا مِن مظهري الصبياني، ولَم يعرِفوا تمامًا إذا كنت تلميذًا أو مدرسًا!.. أربعون تلميذًا كانوا يُحدِّقون النظر في وجهي بتحد وتهديد.. وكان السكون الذي يسبق المعركة!

أمَّا في الخارج، فكان الربيع.. وكانت قد نَبَتت في أشجار الحديقة أوراقها الخضراء الأولى، وكانت فروعها التي يحركها الريح تداعب زجاج النوافذ!.

وضغطت على يدي، وضبطت أعصابي، لكي لا أقول شيئًا.. إنَّ كلمة واحدة لو نبست بِها لكانت السبب في انفجارهم بالضحك، وكان علي أن أنتظر، وألاّ أسبق الحوادث!.

وكان التلاميذ يُحدِّقون في وجهي.. وكنت بدوري أُحدِّق النظر فيهم، كما يُحدِّق المروض النظر في أسوده، وسُرعان مَا فهمت أنَّ رئيسهُم هو ذلِك الولد "جويريسكي": الَّذي حدّثني عنه المدير.. ، كان هذا التلميذ الجالس في الصف الأول، وهو ولد صغير الجسم، حليق الرأس تنقص أسنانه سنتان، وعيناه صغيرتان شريرتان، وكان يلهو ببرتقالة يقذفها من يد إلى أخرى، وينظر إلى وجهي، وكان مفهومًا أنّ وجود تلك الفاكهة اللّذيذة في يده ليس بقصد الأكل..

وجاءت اللحظة الحاسمة..

وأطلق "جويريسكي" صرخة، وضغط على البرتقالة بيده اليمنى، وسحب ذراعه للخلف.. ثم قذف بالبرتقالة نحوي، وانحرفت قليلًا برأسي.. وتحطّمت البرتقالة ورائي على الحائط!.. وكانت هذه أوّل لعبة.. وربُّما كان ذلك أوّل مرة يخطئ فيها "جويريسكي" الهدف بالبرتقال.. ولَم أذعر ولَم أنحنِ، إنّما انحرفت الانحراف الّلازم برأسي قليلًا.

ولكن الأمر لَم يكن قد انتهى عند هذا الحد..

ونهض جويريسكي– كالوحش– وصوّب نحوي نبلته المرنة الحمراء المحملة بالورق الملفوف والمبلّل باللعاب، وكانت هذه هي الإشارة.. وفي الوقت ذاته تقريبًا، قام التسعة والثلاثون الآخرون على أقدامهم، وصوّبوا بدورهم النبال، ذات المطاط العادي، لا الأحمر.. لأنّ ذلك الّلون كان اللون المخصص للرئيس.. لقد خيّل إلي في ذلك الوقت إنّني من أخوة بانديرا[1]، ثمّ شمل الفصل سكون.. متوتر.. وكانت فروع الأشجار لا تزال تداعب زجاج النوافذ بلطف، وقطَع هذا

---

(١) أخوة بانديرا شهداء من إيطاليا، ماتوا رمياً بالرصاص من جنود النمسا، وهم من أهالي البندقية.. وكانوا قد ثاروا لتحرير إيطاليا الجنوبية من سيطرة آل بربوني.. فأسروا وضربوا بالرصاص، وماتوا وهم يهتفون: "تحيا إيطاليا".

السكون طنين ذبابة كبيرة دخلت الفصل، واختلط طنينها بالسكون المخيّم عليه. وكانت تلك الذبابة هي النجدة والسبب في نجاتي!

ورأيت "جويرنسكي" ينظر إلي بإحدى عينيه، ولكنّه كان يبحث بالأخرى عن الذبابة الكبرى.. وكان الآخرون يحذون حذوه حتّى وجدوها، وقد فهمت الصراع الَّذي كان يضطرب في قلوبِهم.. المدرس أو الحشرة..

وإنَّ لرؤية ذبابة في الفصل تأثيرًا كبيرًا على تلاميذ المدارس الابتدائية..

وكنت أعرف تمامًا جاذبية تِلكَ الحشرة.. لقد كنت حديث العهد بالدراسة، ولَمْ أستطع حتّى الآن أن أمكث بدون تأثّر لرؤيتها!

وفجأة قلت: "جويريسكي".. وانتفض الولد مندهشًا لأني عرفت اسمه!، ثمّ استأنفت الحديث قائلًا: "هل تشعر بأنّ لك القدرة أن تُسقِط تلك الذبابة برمية من نبلتك؟"

فأجابني "جويريسكي" بابتسامته قائلًا: "إنَّها مهنتي!".

وسرى همس بين الرِفاق، وانخفضت النّبال الّتي كانت موجهة إلي، واتّجهت كلّ العيون إلى "جويريسكي" الّذي خرج مِن مقعده، وأخذَ يصوّب نبلته متتبعًا الذبابة، فأطلقها وأحدثت الطلقة الورقية صوتًا قويًا، إذ اصطَدمت بالمصباح. أمّا الذبابة فاستمرت بكل هدوء في طنينها الّذي يشبه طنين الطائرة!.

وعندئذٍ قلت لهم: "إلي بالنبلة"، ومضغت طويلًا قطعة مِن الورق، وعملت منها كرة صغيرة، وأمسكت بنبلة "جويريسكي".. وأخذت بدوري أصوّبها إلى الذبابة!

وكانت نجاتي، وهيبتي في المستقبل، تتوقف تمامًا على هذه الضربة. وتريثت مليًا، وقبل أن أجذب النبلة قلت لنفسي: تذكر أنَّك عندما كنت طالبًا لَمْ يكن أحد يتفوق عليك في صيد الذباب!.

وبعد ذلك، وبيد ثابتة أدّيت مُهمَتي.. وكفت الذبابة عن الطنين مرة واحدة، وسقطت ميتة تحت قدمي، وعدتُ في الحال إلى الكرسي، وأريتهم النبيلة الحمراء قائلًا: "ها هي ذي نبلة جويريسكي.. والآن إِنِّي أنتظر الآخرين".

ودار تهامس، ولكنَّه تهامس إعجاب أكثر منه تهامس معاكسة.. واصطّف التلاميذ واحدًا وراء الآخر، وتقدّم كلّ مِنهم برأس خفيضة واضعًا نبلته على مكتبي، وليس لديه الشجاعة ليواجه نظرتي.. ووجدت أمامي في وقت قصير أربعين نبلة مكومة!

ولَم تبدو علي سمات الضعف وإظهار تذوقي للذة النصر..

وقلت وأنا في غاية الهدوء، كما لو لَم يحدث شيء: "لنبدأ بالأفعال .. "جويريسكي" إلى السبورة".

وأعطيته الطباشير مُبتدئًا في إملائه:

"أنا أكون... أنت تكون... هو يكون...".

وهكذا حتَّى وصلنا إلى اسم المفعول، بينما كان الآخرون هادئين، وينقلون في كراساتهم بخط جميل مَا كتبه على السبورة "جويريسكي"، رئيسهم المقهور المغلوب على أمره!.

أمَّا المدير: فلعلَّه كان خائفًا مِن ذلك السكون غير المعتاد، ومِن أن يكون الأربعون شيطانًا قد حبسوني وكمّموا أنفي. ودخل إلى الفصل في لحظة معينة، ونجح في كبت صيحة الإعجاب.. وبعد انصراف الأطفال سألني المدير: "كيف استطعت أن تفعل هذا؟".

واضطررت أن أرضيه بإجابة غامضة: "لقد دخلت في مزاجهم يا سعادة المدير".

لَم أستطع أن أقول له إنَّني قتلت ذبابة كبيرة بضربة نبلة، لأنّ ذلك لا يدخل في طرق التدريس أو المناهج أو النّظم.. إذ لَم يلمح "لامبروسكينو"، أو "آبورتي"، أو "لومباردو راديشي"، في كتبهم إلى أنَّ قتل الذّباب جزء من التعليم!

ومضت السنة الدراسية يسيرة ناعمة كالزيت، وأصبح "جويريسكي" الرئيس السابق يحترمني ويجلني.. وانتقل بدرجات عالية إلى المدارس الثانوية!

وقد رأيت "جويريسكي" مرة ثانية في العام الماضي، بينما كان يخرج مِن القسم التوجيهي وسط مجموعة الأصدقاء.. وصاحَ قائلًا: "سيدي المدرس" وأقبل نحوي..

ولكنّه كان قد تغيّر، فلَم يعد يقدسني كثيرًا كما كان يعمل في الماضي!.. وكان في القسم التوجيهي.. ولَم يبق على الامتحان سوى بضعة أشهر.. وقد أصبح شابًا، وأكثر منّي طولًا.. ولكنّي أنا لَم أكُن إلّا ذلك المدرس الصغير الّذي كان ماهرًا في صيد الذباب.. نعم ولا شيء غير ذلك!

- كيف حالك يا سيدي المدرس؟

قال ذلك وهو واقف أمامي، وبقى زملاؤه قليلًا إلى الخلف ينظرون إلي بابتسام..

إنَّ طلاب القسم التوجيهي مملوءون بآمال المستقبل، وفخورون بدراساتهم الأدبية.. ولذلك يضحكون عند رؤيتهم مدرسًا ابتدائيًا ليست له آمال، وسيظل دائمًا مدرسًا في المدارس الابتدائية..

- كيف حالك يا سيدي المدرس؟

إنَّه الآن هو الَّذي يسألني ويستجوبني!، ورغًا هم بأن يربت على كتفي بيديه، حتَّى يبدو في منظر جميل في أعين أصدقائه، وقال: "أمَا زلت في مدرسة

دانتي اليجييري؟ ودائمًا مع الأطفال؟.. أمَا زلت تدرس للسنة الخامسة "ج"؟.. هل يضايقك تلاميذها؟".

وكدت أقول له إنَّني غيرت مهنتي الآن وإنَّني أتولّى إدارة إحدى الجرائد.. وربّما كان هو ممّن اعتادوا قراءتها، وربّما كانت هذه الجريدة في يده. ولكنّي فكرت في إنَّني لو صرّحت له بذلك، لجعلته كما كان ممّن يقدوسنني.. لِذلِك لزمت الصمت، وكان يسرّني أن أتمتّع بتفوقه وكبريائه هو وزملاؤه الّذين كانوا يبتسمون في سخرية!

وقلت له: "إنَّ هناك دائمًا، وبعد السنة الخامسة "ج" الّتي كنت أنت بها، كثيرًا ما قمت بالتدريس الفصول أخرى من فصول السنة الخامسة، وكانت النتيجة تنتهي دائمًا محبة التلاميذ لي".

وكنت بالرّغم مِن شبابي، أبدو ذلك المدرس العجوز أمام هذا التلميذ القديم..

وإنّه ليحدث كثيرًا بين مدرسي المدارس الابتدائية فقط، أن يشعر أحدهم في لحظة أنَّه مُسِن، وهو لَم يتجاوز الثلاثين بعد!.

– أتصيب بالنبلة الذباب دائمًا؟

فأجبت: "دائمًا.. ومَا زالت يدي تصيب الهدف" واستطردت قائلًا: وأنا ألتفت حولي مُتظاهرًا بالبحث في جيبي عن نبلة لو كانت توجد هنا ذبابة ربّما أصبتها!".

وصاحَ وقد أحمر وجهه قائلًا: "هل تفعل ذلك يا سيدي المدرس في وسط الشارع؟!".

مسكين "جويريسكي"، كان قد أصبح رجلًا في الثامنة عشرة.. وكان يخجل

مِن هذه الأشياء، أمَّا أنا فإنّني، والحمد لله– لا أخجل– على العكس من ذلك. لا أخجل من أحد.

إنّه ليوجد بين مدرسي المدارس الابتدائية فقط مَن يشعرون بأنّهم مَا زالوا أطفالًا وهُم لَم يتجاوزوا بعد سن الثلاثين..

وسألته: "هل تخجل حضرتك مِن ذلك؟".

وقد استعملت متعمدًا صيغة الاحترام، فبثّ ذلك في نفسه شيئًا مِن الفخر.. ومِن ناحية أخرى شيئًا من الحيرة، ونظرَ إلى عيني فوجد فيهما ابتسامة، فأحمرَّ وجهه وحيّاني، وبقيت أنظر وهو يبتعد مع أصدقائه الّذين لَم يضحكوا، ولكنّهم كانوا ينصرفون مسرعين دون أن يلتفتوا خلفهم.

الفصل الثالث

معجزة الشجرة!

إنَّ الصعود إلى كرسي المدرس والجلوس- كما يفعل الكثيرون في المدارس الابتدائية- لتعليم الأطفال قواعد الرسم وفن التلوين إنَّما هو أشبه شيء بأخذ طفل في الثانية مِن عمره وتفهيمه بهدوء ووقار أنّ الناقوس لا يسمى "دن دن" ولكنّه جرس، وإنَّه معدن غير بسيط.. يتكون مِن سبيكة مِن النحاس والقصدير.. وعلى كل حال فإنّ هذا ممّا لا جدوى فيه، ويعتبر إثما كبيرًا.. إذ إنَّ معرفة طفل يبلغ الثانية مِن عمره لِكلّ هذه الأشياء عن الأجراس، لابد أن يكون معجزة صغيرة، وإنّ مثل هذا الطفل لجدير بأن يعرض في حفلات السيرك، ويدفع الناس النقود لمشاهدته.

وكذلك الحال بالنسبة لطفل في المدارس الابتدائية يعرف قوانين البعد والقرب في الرسم، وعلم التشريح الإنساني، وفن التلوين، وسر الفتحات والتظليل في الرسم، وإنَّه ليساورني الخوف مِن أن يكون بين تلاميذي مَن يشبه هذا التلميذ.. وإذا حدث أن كان هناك تلميذ مِن هؤلاء التلاميذ في الفصل، وكنت مدرسًا، لطلبت نقلي في الحال إلى مدينة أخرى، متعلّلًا بأسباب عائلية أو صحية كاذبة!.. ولكن مِن حسن الحظ إنَّه لَم يوجد مثل أولئك التلاميذ بين تلاميذي!.

لقد كان لدي تلاميذ يرسمون الرجال دائمًا بالطريقة الآتية:

ساقان تبتعد أوّلاهما كثيراً عن الأخرى، شعر قد وقف كأنَّه الشوك، وقد وضَعْتُ القبعة بخفة بحيث تكاد تمس الشعر مسًّا.. وأُذُنَان لا وجود لهُما، وصفٌّ طويل مِن الأزرار، والأيدي كجذوع الأشجار العتيقة الجافة التي تنتهي بخمسة فروع مستقيمة يابسة، وأحيانًا لا ينتبهون ويرسمونها ستة. وقد ترى صور هؤلاء الناس في الأحياء الشعبية مرسومة على الجدران ومكتوب تحتها: "جيجي بيحب ماريتا".



ولعمري إنَّ تلاميذ المدارس الابتدائية هم مثل هذه البراءة.. فإنَّهم لا يجهلون كيف يصوّرون الحب فحسب، بل لا يعرِفون ماذا يكتبون للتعبير عن هذا الحب؟

وفي ذات مرة، قلت لتلاميذي في السنة الثالثة: "ارسموا الملك"، وكان "مارتينيللي" الذي اعتاد أن يهديني الحلوى بعد أن يلعقها بلسانه ويسرق الزهور مِن أجلي مِن حدائق كوللى أوبيو(١)، تلك الزهور التي تنبت في حجرة الأبحاث الزراعية ومعها بطاقة مكتوب عليها الاسم باللغة اللاتينية، ويقول لي كل صباح وهو يقدّم لي تلك الزهور ليطمئنني: "سيدي المدرس.. إنَّها مكتوب عليها هذا..

(١) توجد فيها حدائق لإجراء تجارب على الزهور.

ولكنّها ما زالت زهورًا" كان مرتينيللي هذا قد رسَم الملك بهذه الطريقة:

كان يتخيّل الملك هكذا طويل القامة إلى حدٍ كبير.. ورعاياه في منتهى الصغر، يركعون له.. وربّما كان أحد رعاياه الصغار الَّذي يمسك زهرة بيده، هو بذاته مارتينيللي يحمل زهرة أيضًا إلى الملك.

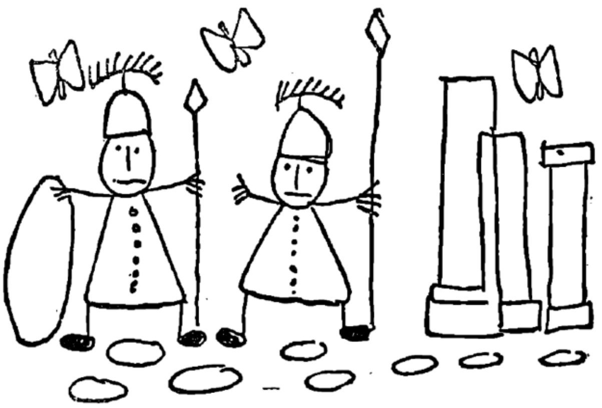
ولماذا لا نُعلّم مارتينيللي أنَّ الملك لا يحمل التاج دائمًا ويجلس فوق عرش؟ ولو إنّه ليس أكثر ثباتًا فإنَّ الوصول إليه أسهل مِن ذلك البرج العجيب المكوّن مِن الكراسي والمقاعد .



إنّ مارتينيللي لَم يرَ أبدًا مَلكًا مِن الملوك.. ولكنّه منذُ وقت قريب سمع جدته تتحدث عن الملك في القصص الخرافية الَّتي كانت تقصّها عليه، ولَم يكن قد رأى العروش قط.. ولَم يعرف ماذا تكون. لقد كان يعرف فقط حيث كان يعيش مع أمه وإخوته الصغار في بيت صغير مِن بيوت الفقراء– إنّه توجد مقاعد وكراسي ودكك– ولَم يخطر بباله أبدًا وجود الأرائك والمقاعد الفخمة.. وإلّا فأين يجلس الملك؟ أفوق دكة؟، أو فوق كرسي مِن القش، مثله عندما كان يجلس هو ليتناول طعام الغداء بين أمه وإخوته الصغار؟!، أو عندما كان يقوم بواجباته المدرسية؟.. إنّه أقل بكثير وغير جدير بعظمة الملك!

إنّه لابد من شيء... ولكن مَا هذا الشيء الّذي لابد منه؟

إنّه شيء مَا كان يدركه مارتينيللي جيدًا؛ لأنَّه لَم يرَ مِن قبل لا عروشًا ولا أرائك!.. وعلى ذلك فإنّه تمجيدًا للملك، أخذَ مقاعد عديدة ودككًا كثيرة، وجمعها فوق بعضها البعض، وأجلسه فوق ذلك البرج القائم بمعجزة مِن المعجزات، ووضع أسفله أفراد رعيته المتناهين في الصغر، وكنت أحرص كل الحرص على أن أقول لمارتينيللي إنَّهم أصغر من اللّازم ولا يتناسبون، وإنّه بذلك التباين النسبي قد وجَدَ الطريقة الأجدى والأكثر فعالية للتعبير عن عظمة الملك. ومرة أخرى بعد نزهة إلى "الفوروم" الروماني قلت للأطفال: "ارسموا ما لفت أنظاركم أكثر مِن سواه، فمثّل إليَّ هذا الرسم "رونكوني"– وهو تلميذ كانت لديه أفكار أكبر من سنه– دون أن يعرف مَا هي هذه الأفكار، وكانت له عينان سوداوان واسعتان، ووجه صغير شاحب مستطيل، ورسغان رقيقان تظهر فوقهما عروقه، وتفتر شفتاه عن ابتسامة.. وقد رأيته مرة ثانية بعد ذلك ببضعة أشهر على فراشه، وهو واضع رأسه على وسادة بيضاء، لَم تتأثر أبدًا بثقل ذلك الرأس الصغير.



ولقد لاحظت في رسمه أنّ الفراشات كانت تطير بين الأعمدة المتهدمة الَّتي كان يَمُر مِن بينها قدماء الرومان، فسألته مازحًا:

"هل هذه الفراشات قديمة أم حديثة؟" فأجابني "رونكوني" قائلًا: "أنّ الفراشات تطير دائمًا". وعدتُّ أسأله:

"وهؤلاء الأطفال الَّذين يلعبون لِماذا لا يرتدون الملابس الرومانية القديمة؟ فألقى علي نظرة كما لو كان يريد أن يقول: "هل مِن الممكن أن تكون مدرسًا ولا تفهم هذا؟!".

وكان يسوءه ذلك لأنَّه كان يحبني، وكان يعتقد إنّني مخلوق في مستوى عالٍ، وكان يرى إنَّني أفهم كلّ شيء حتَّى أفكار الأطفال الَّتي كثيرًا مَا تكون أفكارًا عظيمة، وكثيرًا مَا تكون عميقة حتَّى لا يُمكن أن يفهمها أحد!.

ولقد قال لي:

"الأطفال دائمًا يلعبون.. فأطفال الرومان القدماء كانوا يلعبون بالكرة وبالطوق مثلنا، دون أن يعرِفوا أنَّهم مِن عصر الرومان!".

ولَم أجبه بشيء، فقد ذكّرَني هذا بقصيدة "لدومينكو نيولي" التي قال فيها:

"لقد وجدتُّ في أثناء أعمال الحفر، وعلى نقوش أحد المعابد بروما، هياكل أطفال.. وسأل "دومينكو نيولي" في قصيدته هذه الهياكل:

"ماذا كنتم تفعلون وأنتم أحياء؟.. ماذا كانت أفكاركم؟.. كيف كانت روما؟"..

فأجابته الهياكل:

"ماذا تظن أنّنا نعرف.. كنَّا أطفالًا نلعب ونجري وراء الفراشات مثل أطفال

اليوم والغد، ماذا تُريد أن نقول لك؟!".

وانبري هيكل منها قائلًا: "أتَذكُر دميتي؟!" وقال الثّاني: "وأنا، هل تَذكُر كرتي؟" وردَّ آخر: "هل تَذكُر طوقي؟"، و"رونكوني" تلميذ السنة الثالثة الابتدائية، كانت لديه نفس فكرة الشاعر.. وقبل أن يعبِّر عنها بالكلام عبَّر عنها بالرسم دون أن يعرف ذلك!

ولكنَّ رسمه لَم يعجب حضرة المفتش الصَّارم العجوز، ذي النَّظَارات الذَّهبية، الَّذي دخل فصلي ذات يوم وانتّقد بقسوة طريقتي في تعليم الرسم، بَل أفهمني بأنِّي لا أُدّرس لهم الرسم. وتَضَايق عندما رأى أولاد الرومان القدماء الَّذين كانوا يلعبون بالطوق، ويجرون وراء الفراشات، وقال: "هذه نعومة وحماقة!".

وسألته بخجل: "بأي شيء تظن أنّ أطفال روما القديمة كانو يلعبون؟".

فأجابَ باختصار: "لَم يكونوا يلعبون".. ثمَّ قال مُغيِّرًا نغمة صوته: "ربّما كانوا يلعبون برجولة، دون أن يضحكوا، وبخوذات صغيرة على رءوسهم، وبخناجر يلوحون بِها".

ثم قلت: "ولكن الفراشات..." فأجابني: "إنَّ الفراشات في تلك العصور لَم يكن لهَا وجود!".

وسادَ الفصل سكون شامل، ورأيت على وجوه بعض تلاميذي رغبة شديدة في أن يسألوه: "في أي الأعوام ابتَّدعَت الفراشات؟!"

وقال لي المفتش: "يا سيدي المدرس، حضرتك لا تُدَرس الرسم جيدًا.. فرسوم تلاميذك تبدو رسوم أطفال!".

وأخذَ واحدًا مِن الرسومات، وسألَ: "مَن هو مارتينيللي؟"

فنهضَ مارتينيللي مُرتعشًا، وأفهم المفتش بعينيه إنَّه مارتينيللي، لأنَّه لَم تكن

لديه القدرة على الكلام..

وصاحَ المفتش ملوحًا برسم عليه إمضاء مارتينيللي: "أفي الشتاء..؟.

وكان الرسم يمثّل منظرًا ريفيًا في الشتاء.. الجبال والأسطح والحقول مغطاة بالثلوج، ولكن في وسط الريف كانت تنبثق بأعجوبة شجرة خضراء ذات أزهار كثيرة: صفراء، وحمراء، وزرقاء، وبرتقالية.. ثم قال: "هل في الشتاء وفي وسط الثلوج تنبت الأزهار؟!.. في أي فصل. تنبت الأزهار؟.."

وأجاب الأطفال كلهم مرة واحدة: "في فصل الربيع"

فقال: "مرحي.. وأنت بالعكس يا مارتينيللي، هل رأيت في الشتاء، وفي وسط الثلوج شجرة مزهرة؟" فأجابه مارتينيللي: "نعم !"

واستطرد المفتش قائلًا: "أين؟.."

وانخرط مارتينيللي في البكاء لأنَّه لَم يكن يعرف الإجابة، ولكنَّه رآها.. وكان متأكدًا مِن ذلك. وبإيماءة معناها: لا تَبكِ، أفهمته إنّي أصدّق إنَّه رآها..!

وقال المفتش بجفاف، وهو ينصرف: "يا حضرة الأستاذ خيرٌ لكَ أن تؤدي رسالتك بضمير.. دَرّس الرسم بجدية للأطفال، واعمل بطريقة مَا كي لا أرى فيما بعد أشجارًا مزهرة في المناظر الريفية شتاء!"

وانصرف.. وبعد انصرافه، وفي السكون الَّذي لا يزال مخيمًا على الفصل، قلت: "مارتيناللى.. أليس حقًا أنَّك رأيت الشجرة المورقة؟"

فقال: "نعم يا سيدي المدرس.. كانت جميلة وكبيرة.. كلها زهر ملون، ألَا تصدقني أنت أيضًا؟!"

فقلت: "أعتقد أنك صادق"

وابتسم مارتينيللي، وابتسم كل أصحابه.. ونحن الرجال لكي نرى تلك الأشياء الجميلة يجب أن تقع تحت نظرنا، أمّا الأولاد فبالعكس. إنَّهم يرونَها دائمًا لأنَّ تخيلاتهم وأحلامهم ورغباتهم كبيرة وقوية إلى حد يجعلها تُصبح أشياء حقيقية!.

كان مارتينيللي يعتقد إنَّه رأى الشجرة المورّقة وسَط الجليد الأبيض، والّسماء الرمادية فعلًا.

وقلت: "يا أولاد، إنَّ حضرة المفتش على حق.. ففي الشتاء لا تنبت الأوراق والزهور، وإن لَمْ تكونوا قادرين على الاستغناء عن رسم تلك الأشياء، فضعُوها في رسومِكم تحت مسئوليتي!"

وكانت معهم– فوق أدراجهم– الأقلام الملونة، وورقة جميلة مقواة الرسم، وقلت: "ارسموا".

وقال مارتينيللي: "سيدي.. هل أستطيع أن أرسم سطح بيت أحمر شديد الحمرة؟"

وسأل سانتيني: "سيدي.. هل أستطيع أن أرسم قالبًا مِن الطوب الأخضر بجانب قالب الطوب الأصفر؟"

وسأل ليوناردي: "وأنا.. هل أستطيع أن أرسم وجه حضرة المفتش دي الشوارب واللحية وعينية الحمراويين كعيني التنين؟!"

ولاحظت أنَّ المفتش لَمْ تكن له شوارب، أو لحية، أو عينان حمراوان، وسألتهم: "هل له هذه الأشياء.. هل أنتم متأكدون مِن ذلك؟".

وأجابوا كلّهم في صوت واحد: "نعم.. نحن واثقون كلّ الثقة !" قلت لهم: "إذن ارسموه هكذا"

وابتدءوا يرسمون في غاية الاهتمام، ورءوسهم على الأوراق، ومكثت قليلًا ثمَّ

ذهبت رويدًا رويداً وراء السبورة حيثّ لا يتمكن أحد مِن رؤيتي، ورسمت بالطباشير الملون مساحة كبيرة مِن الثلج وفي وسطها شجرة مورقة، وفي أحد الأركان وجه المفتش ذي الشوارب واللحية، والأعين الحمراء التي تشبه عيني التنين!

الفصل الرابع

اختبار في الفصل

عندنا اليوم اختبار في الفصل..

يدخل الأطفال على أطراف أقدامهم، ينظرون بخوف إلى المدرس، ويفتحون حقائبهم، ويضعون على الطاولة أمامهم ورقتين.. واحدة للتسويد وأخرى للتبييض.. ورقتين ناعمتين نظيفتين أحضروهما على التو من ذلك الدكان الصغير الذي يبيع الورق– وهو على قيد خطوتين من باب المدرسة– وكان هذا الدكان صغيراً لا يتيسر دخوله لأكثر من شخصين، وكان صاحبه ماكراً.. إذ فتحه بجانب المدرسة بالضبط.. إنه رجل مسن يغطي رأسه بقلنسوة، ويبتسم للأطفال، ويعرفهم واحداً واحداً، ولا يبيع أوراقاً فقط، بل كراسات ومساطر صغيرة.. وجل ربحه كان من المسدسات التي ترش الماء و"عفريت النسوان" وطوابع البريد القديمة لهندوراس وجواتيمالا، التي يبيعها وهو يبتسم ابتسامات معينة وبنوع من المهارة، حتى أن الأطفال ينفقون من أجل أحد هذه الطوابع خمسة أو ستة مليمات، وبعد ذلك يندمون في الحال، ويحاولون بيعها من جديد بمليمين أو المقايضة عليها بأربعة من أسنان الريش مع زملائهم.

ولكن طوابع بريد جواتيمالا، لم تكن ذات أهمية إذا قورنت بالجنود المصنوعة من الورق والتي كان يعرضها ذلك العجوز بطريقة شيطانية مغرية، ويعلقها خارج دكانه.. وكان يعرف تماماً أسعارها ويقدرها، فجندي المدفعية مدفعه يساوي أربعة

من الجنود المشاة، وجندي الفرسان يساوي ثمانية، أو ستة عشر، إذا كان الحصان أبيض اللون. ويخفض الثمن ويرفعه حسب تغيير السوق، وذلك عن طريق بعض الأولاد الذين كانوا يقدمون له تقريراً يومياً عن حالة السوق.. وكان في مقابل ذلك يكافئهم بقطعة من الورق النشاف، أو "بعفريت النسوان".

إن رجلاً عجوزاً، أكل عليه الزمن وشرب، ضرره بالمدرسة أكثر من نفعه.. كان أولياء الأمور دائماً يشكون من أن أولادهم بدلاً من أن يشتروا أوراقاً، يشترون طوابع بريد أو جنودا!

لكن ذلك الرجل ما زال هناك منذ زمن طويل، ولا يزال المدرسون المسنون يذكرون أنهم رأوه في دكانه.. أما المدرسون حديثو السن، فإنهم كانوا يشترون المسدسات المائية والعساكر منه عندما كانوا صغاراً.. ولكنهم لا يقولون ذلك محافظة على وقارهم كمدرسين!

كان الجنود وقتئذ مختلفين، ويرتدون ملابسهم بطريقة تختلف عن الطريقة المألوفة الآن، ولهم قبعات عالية، وياقات مغلقة، ولكنهم– على كل حال– كانوا جنوداً.

ومن ثم، فإن أحداً لا يقول له شيئاً.. فإن الناظر في كل صباح يرد على تحيته له مبتسماً، وهي تحية قد تغيرت منذ بضعة أعوام.. فإنه كان في أول الأمر ينحني ويخلع قلنسوته، والآن ما زالت عنده القلنسوة.. ولكنه يثبتها على رأسه ويؤدي التحية الرومانية[١].

كان لدينا في هذا الصباح اختبار في الفصل، وقد انتهى الشتاء من مدة بسيطة.. لكن برده كان لا يزال باقياً بين الجدران.. أما في الخارج، فكان الإنسان

(١) التحية المتبعة في إيطاليا أيام الفاشست.

يشعر بالربيع، مع أن النوافذ كانت تطل على زقاق قذر لا تزوره الشمس. ومن النافذة المقابلة كانت تطل إحدى الفتيات، (وكان المدرس من حين لآخر– ودون أن يظهر نفسه لأحد– يحول طرف احدى عينيه إليها، وطرف عينه الأخرى إلى الأولاد) وكان إلى جانبها أصيص به شجرة ورد، لم تزدهر بعد.. لكن براعمها كانت على وشك التفتح، ولتتصور المروج المملوءة بأزهار الأقحوان والبنفسج الصغيرة التي تعرف من رائحتها، والأشجار الملونة بالأحمر والأزرق والأبيض..

وفكر المدرس في أن مارتينيللي لن يأتي..

وفي اللحظة نفسها، كان يفكر في موضوع الإنشاء الذي سيعطيه للتلاميذ..

أما التلاميذ، فقد كتبوا على المسودة التاريخ، وتحته كلمة "إنشاء" وبقوا ينتظرون بأعين مفتوحة، وبقلب يدق بشدة، بدء المدرس في الإملاء.

ولكن المدرس تأخر لسببين: أولهما إنه كان يأمل دائماً في وصول مارتينيللي.. والآخر إنه كان– ككل المدرسين الآخرين– (ولحسن الحظ أن الأولاد لا يعرفون هذه الأشياء) لا يعرف أي موضوع يعطيه، أيكون "ما هو أجمل يوم في حياتي؟" لا.. لنتجنب هذا الموضوع الذي يرغمهم على الكذب، لأنه لن تكون لديهم الشجاعة أبداً كي يكتبوا أن أجمل يوم في حياتهم كان ذلك اليوم الذي رأوا فيه سيدة سمينة تقع على السلم، ومعها المظلة وحقيبة الخضار.. ثم لماذا أعلمهم– على صغر منهم– عمل مقارنة بين يوم وآخر، وأن يميزوا بين يوم جميل ويوم رديء؟.. كل الأيام جميلة بالنسبة للأولاد– وهم في العاشرة من العمر– سواء اليوم الذي رأوا فيه سيدة سمينة تقع على السلم، أو اليوم الذي استطاعوا فيه أخذ صرصور الليل، وقربوه لأذنهم ليسمعوا صوته..

أم يعطيهم موضوع "الربيع؟.." أوه.. لا، إنه سيجبرهم على كتابة: "انتهى

الشتاء، وجاءت ساعات نسيم الربيع الدافئ، وشجيرة الحديقة مزهرة، وأخيراً نستطيع الجري والقفز.." وكتابة تلك الأشياء دون أن يستطيعوا أن يفعلوها لأنهم محبوسون في الفصل، حيث يحسون ببرد الشتاء الذي انتهى منذ أيام قليلة، وبالنوافذ التي تطل على الزقاق القذر، أمر مقبض...

لن يأتي مارتينيللي...

والآن لقد تأخر الوقت، وأقفل باب المدرسة.. ومارتينيللي في هذه الساعة لا يزال في المروج ليرى الأزهار، لا ليكتب عنها، وقد وضع يده في ماء الحفرة الذي تنعكس عليه زرقة السماء، ويتعجب عندما يسحب يده لعدم رؤيتها ملونة باللون السماوي، ويرى العصافير تطير في السماء على شكل أكليل، ويود أخذ واحدة منها ليرى إذا كانت تأكل "الشيكولاتة" أم لا؟

أما في المدرسة، فإنه على العكس من ذلك.. سيكون مضطراً لكتابة "لا يليق أخذ العصافير، فإنها من مخلوقات الله.. والأولاد الذين يأخذونها هم أشرار لا قلوب لهم!".

لكن ما معنى لا قلوب لهم.. إنهم يحسنون صنعاً!

كان مارتينيللي هو الوحيد وسط المروج، يجرب النبلة ويكرر التجربة بصبر.. ولكن أين الحقيبة ؟.. يبدو له إنه قد وضعها هناك خلف تلك الأحراش، وسيجدها فيما بعد.. أما الآن فلا يهمه شيء!

وغداً في الصباح، حينما يعود إلى المدرسة لن يجيء ليقول لي: "حضرة المدرس، إن والدتي كانت مريضة جداً بالأمس".

ولن يخلق اعتذارات أخرى، بل سيقول لي: "حضرة المدرس.. كنت أريد أن أصيد عصفوراً، ولكني لم أنجح في ذلك".

وكان الأولاد ينظرون بأعين مفتوحة مترقبة للموضوع، وبقلوب ذات ضربات قوية..

وكان لابد من الإسراع، فإن الأولاد قد أنهكهم الانتظار، وبدأوا في تخطيط بعض الرسومات على ورقة التسويد.

ولكن هل من الضروري إعطاء هذا الموضوع؟

نعم.. لابد منه، إذ يجب تدوين أعمال الطلبة خلال السنة، لأن الناظر عند نهاية العام يرى بنفسه العشرين موضوعاً المكتوبة في الفصل، فيربت على كتف المدرس ويوجه إليه عبارات الثناء.. وكذلك عندما يرى المفتش الأربعمائة الموضوع المكتوبة في المدرسة سوف يهنئ الناظر بحرارة ويوجه إليه عبارات التفخيم والملاطفة..

ومن ثم فلنعط هذا الموضوع...

– اكتبوا يا أولاد...

وإذا بأربعين سن ريشة، تلمس في نفس الوقت قاع المحبرة..

– موضوع الإنشاء: "زميلي في المقعد".

والرؤوس المنحنية على الوريقات، تبدو كمتسابقي الدراجات المنحنين على عجلة السباق، وللأقلام صرير على الورق، ثم همامس الأطفال وتعليقاهم وتعجباهم التي تلي دائماً السكون والانتظار..

فمنهم من يفرك يديه، وهو في منتهى السعادة، ويقول: "إنه موضوع سهل".

ومن يبكي هناك في آخر الفصل.. وتسيل دموعه على ورقته، وهو يشكو قائلاً:

– حضرة المدرس.. لا يوجد بجانبي زميل!

ومن يرفع يده، وهو ينظر إلى زميله ذي الرأس الخالي تماماً من الشعر، ويقول:

– حضرة المدرس، هل يمكنني أن أكتب أن زميلي له شعر أشقر طويل، يتدلى على كتفيه على شكل خصل ذهبية ؟!

وقلت: "نعم تستطيع، لو كان زميلك يسمح لك بذلك".

قل لي يافر نشسكوني: "هل تسمح "لكريبا" أن يكتب أن لك شعراً طويلاً كالذهب، وإنه يتدلى على كتفيك؟".

ويكاد فرنشسكوني يجيب بالنفي، ولكنه فكر من جديد.. وابتسم لفكرة وصفه بأنه أشقر الشعر، وذو خصل ذهبية!

وأخيراً قال بصراحة: "لا.. ليكتب أن رأسي حليق!"

كان الله في عون "كريبا".. لقد كاد يوفق إلى موضوع جميل، إذ استطاع أن يصف بإتقان زميله في المقعد.. ولقد ندمت على إملائهم ذلك الموضوع.. إنه شيء خطير، فإني أرى مارشيليني ينظر بوحشية إلى مانيلي، ويصدر إليه حركات تعني بوضوح:

– عند الخروج سأورم عينيك!

قلت له: "مارشيليني لماذا ستورم عيني مانيلي؟"

فأجاب: "لأنه كتب في موضوع الإنشاء إني جاسوس وصمام، وإنني حتى لو استذكرت كثيراً لا أتعلم لأنه ينقصني الذكاء!"

وآخر يرفع يده: "حضرة المدرس، هل أستطيع أن أكتب أن زميلي يخرج

لسانه عندما لا تراه؟!"

وآخر يبكي في صمت، وأسأله: "ماذا بك ؟"

فيجيب وهو يشير إلى زميله: "إني فقير.. ولكن ما الداعي أن يكتب زميلي ذلك في موضوع الإنشاء.. أليس في استطاعة الجميع أن يكونوا أغنياء مثله، ويمكنهم شراء محبرة الجيب؟!"

أن محبرة الجيب هي حلم كل تلاميذ المدارس الابتدائية.. تلك المحابر التي تنفتح بسرعة عند الضغط على زر، ولا يهمهم إنها تفقد الحبر من جميع النواحي وتبقع الأيدي والملابس وتغمر الجيوب، وأن امتلاك محبرة جيب هو حلم كل الأطفال، ولكن ثمنها غال.. وفي الفصل لا يوجد إلا اثنان أو ثلاثة تلاميذ– على أكثر تقدير– هم الذين يمتلكونها. ولكن ماذا أفعل؟.. أن الذنب ذنبي لأني أنا الذي أعطيتهم الموضوع

والآن تركت الفتاة النافذة، ويبدو لي أن براعم الورد قد ازدادت أكثر بقليل في التفتح.. إني أحسد مارتينيللي الذي لايزال بين المروج، وقد تحاشى عذاب هذا الموضوع، وسيأتي غداً مبتسما ويقول:

– سيدي المدرس كنت أريد أن أصيد عصفورا!

أما "كريبا" فإنه يبتسم الآن، لأنه أخذ مني أذناً بأن يكتب أن زميله أشقر، وشعره متموج يتدلى على كتفيه، ويفهم من ذلك بسهولة أن زميله لاشك قد أهدى له ضابطاً من الفرسان من ذلك النوع الذي يساوي منفرداً ستة عشر ضابطاً من المشاة، وهذا بسبب بياض الفرس!

كذلك لم يعد مارشيليني يشكو من الكلمات التي كتبها مانيلي في موضوع الإنشاء: "جاسوس، وصمام، وناقص الذكاء) فقد قبل منه خمسة طوابع بريد من

جواتيمالا، والآن يستطيع مانيلي أن يكتب ما يريد على حسابه.. وربما لو أضاف طابعاً يستطيع أن يتجنب تحوير الكلمات، وأن يكتب في طلاقة إنه عبيط، وذلك مما يجعل صاحبه في غاية الرضا وأما الولد الفقير، فإنه لم يعد يبكي بل أخذ يتسم، وفي يده مسدس يرش الماء..

وأقترب أنا ببطء، وأضع يدي على التلميذ الغني، وأراه يكتب:

– إنني غني، ولذلك فإن معي محبرة الجيب.. وزميلي في المقعد، ذلك الفقير الذي يدعى فيدريشي ليس معه مثل هذه المحبرة، ولكن معه مسدساً، وهو مسرور به كل السرور.. ذلك المسدس الذي أهديته أنا إليه، ولكن والدي غني جداً، وسيشتري لي مسدساً آخر..

ويبتسم الجميع، فكلهم مسرورون الآن!

ولكن لمن يرجع الفضل في ذلك إذا لم يكن لهذا الوراق العجوز، ذي القلنسوة التي يضعها على رأسه، ولا يزال يعد الملاليم، وإنها لملاليم مباركة لأنها منعت مشاجرة عند الخروج من المدرسة، ولأنها جعلت كريبا تلميذاً سعيداً يستطيع أن يكتب موضوع الإنشاء، وسمحت للطفل الفقير بألا يشعر بفقره ما دام يملك في حوزته مسدساً من القصدير يرش الماء؟

وأقول: "أسرعوا يا أولاد.. فقد حان موعد التبييض"

أن التبييض عملية شاقة، ولكنها مسلية على الرغم من إنها تجلب بعض المسئوليات، وتجعل الأولاد يرتجفون من أجلها: الكتابة بخط جميل دون مسح ودون بقع..

"سيدي المدرس.. أحدثت بقعة، هل أكتب من جديد.. أم أستطيع مسحها بالممحاة؟"

وكتابة التاريخ، فالاسم واللقب والقسم والتجميلات الخطية بالحبر الأحمر لو وجد، وباستعارته إذا لم يوجد، لأن ذلك لاشك من العمل المرضى..

جورجو كريبا– السنة الرابعة، "الفسل" الثالث، بالحبر الأحمر، فتبدو الإنشاء أكثر جمالاً، ويبدو كأن المدرس سيغتفر تلك الغلطة، ولا يعتبر حرف السين بدل الصاد غلطة في كلمة فصل إذا ما وجدها مكتوبة بالحبر الأحمر!"

كم من الأخطاء لا يحسبها المدرس، ولا ينسبها إلى الجهل، بل إلى عدم الانتباه؟!

"بالأمس.. ما إن دخلت الفصل، حتى أخذ المدرس في تأني.. قائلاً: ما معنى تأني.. هذه ؟.. معناها تأنيبي.. معناها أيضاً أن الولد عند كتابة تلك الكلمة مرت ذبابة أمامه. إنها ذبابة من ذباب الربيع المقبل، وعندئذ منعته بسبب ما تثيره تلك الحشرات في الأولاد من جاذبية قوية من كتابة بقية أحرف الكلمة..!"

أما المدرسون المسنون، فإنهم يعتبرون ذلك خطأً، لأنهم نسوا ذبابات طفولتهم.. وعلى العكس من ذلك الشباب من المدرسين الذين كان لهم ذباب في الماضي القريب!

"بالأمس ماما قالت لي":

"لماذا ماما بالحروف الكبيرة؟!"

"هي هكذا جميلة يا حضرة المدرس فإنها تحبني كثيراً..."

هل هي حقيقة غلطة أن تكتب ماما بالحروف الكبيرة.. أو لسنا نحن المخطئين عند كتابتها بالحروف العادية؟!

ويضع المدرس علامة حمراء في منتهى الصغر تحت الكلمة، علامة صغيرة جداً لأن المدرس نفسه يتمتع بصفة البنوة ويحب أمه، ولكنه لا يزال مدرساً..

وطبقاً لقواعد الكتابة[1] "ماما" اسم مؤنث مفرد ليس جديراً بكتابته بالحروف الكبيرة.. ويدق الجرس "دن– دن" لقد انتهى اليوم الدراسي، وعلى من انتهى من كتابة موضوعه أن يسلمه، ومن لم ينته فليسرع.. وإذا وقعت بقع فأهلا وسهلا!

توجد الأم بالأسفل تنتظر..

ويوجد الوراق العجوز بجنوده وطوابعه..

ويوجد الربيع الذي تحاشى مارتينيللي وصفه اليوم في موضوع الإنشاء، فانصرف لكي يتمتع به على حقيقته وطبيعته، ولديه أمل في اصطياد عصفور، وهو لاشك مخلوق من مخلوقات الله.. نعم هو ذلك الذي يسر بتغريده العجائز والمرضى، ولهذا يجب إلا يصطاده أحد، ولكنها أشياء يكتبونها فقط في موضوعات الإنشاء!

---

(١) الكتابة الإيطالية.

الفصل الخامس

بائيستون لورنزو

الجو حار، وقد أسدلت ستائر النوافذ حتى تحجب جدران البيت المقابل الناصعة البياض، والتي تتسلط عليه الآن أشعة شمس شهر يونيو، والتلاميذ يتصببون عرقًا وهم يحلون مسائل الحساب. والمراقب المنتدب المسن يغالبه النوم وهو على كرسيه، وعلى الخريطة الجغرافية يتنزه الذباب ببطء، فقد كانت ذبابة منذ دقيقة مضت في فرنسا، أمّا الآن فقد عبرت المحيط، وأخذت توسخ أمريكا.

حجرة عرضها خمسة أمتار، وطولها أربعة أمتار ونصف متر، مبلطة ببلاط صغير مساحة كل بلاطة منها سنتمتر مربع، والذي اشترى الحجرة يريد أن يعرف كم بلاطةٍ توجد فيها.

ويسألني مارتينيللي: ياحضرة المدرس، لماذا يريد أن يعرف؟

وأحدثت حركةً مبهمةكأنني أقول له لا أعرف، وأن أذواق حضرات الذين يضعون المسائل الحسابية غريبةٌ، ولا تقبل المناقشة فأنت تجد في المسائل الحسابية التي تعطى لتلاميذ المدارس الابتدائية، أشخاصًا أغرب بكثير يودون معرفة عدد بلاط حجراتهم على وجه الدّقَة، وآخرون يستفهمون عن النفقات الإجمالية التي يجب أن يدفعوها؛ لطلاء قبة كنيسة (سانتا ماريا دلفيوري) باللون الأبيض، مع العلم بأنّ كل متر مربع يتطلب (٢.٧٥) ليرةً قيمة الطلاء.

ويكبر الأولاد على أفكارٍ خاطئة، وهم في اقتناع ساذج بأنّ أيّ إنسان مادام

يمتلك نقودًا كافية للحصول على الطلاء، يستطع أن يعطي اللون الذي يحلو له لقباب الكنائس الكبرى الرئيسة في إيطاليا وفي الخارج.

وفي غمرة السكون، يفزع صوت مارتينيللي المراقب المنتدب المسن الذي استيقظ من توه ويجعله يقف على قدميه، ويقول في صوتٍ متثاقل رتيب تلك الكلمات التي اعتاد أن يكررها في شهر يونيو منذ أربعين عامًا لتلاميذ السنة الخامسة: فكروا وتأملوا جيدًا قبل أن تكتبوا، امتحان السنة الخامسة ليس هزلاً؛ إذ قد تضيع السنة على تلميذ لمجرد سهره وعدم انتباهه. وبعد أن انتهى من كلامه استأنف النوم فجأةً، أما أنا فقد قلت في نفسي: إن بلاطةً واحدةً، تزيد أو تنقص تكفي لإعادة السنة الخامسة أو للرسوب في امتحان إثبات المعلومات العامة.

كنت على وشك أن أقول للتلاميذ ذلك، يبدو أنّه كان هناك في آخر الفصل أربعة رجال، يجلسون في مقْعَدٍ منفصل صغير جداً بالنسبة لأجسامهم، وكان أحدهم يبدو عليه علامات الشيخوخة، وكانوا قد توقعوا تلك الجملة فنظروا إلي مرتاحين، ونهض الشيخ ورفع يده بحركة لم يقم بها منذ خمسين عامًا مضت، وقال: حضرة المدرس، إنكم إذا أسقطتمونا فسنفقد وظائفنا.

ترى كيف امتزج هؤلاء الرجال الأربعة بالتلاميذ، وكيف جلسوا في مقاعدهم منكبين على حل المسألة الحسابية الخاصة بذلك السيد العجيب، الذي يود إحصاء عدد بلاط حجرته.

وقد سألني عن ذلك مارتينيللي في دهشة وهو يدخل:

حضرة المدرس، هل هم أيضًا من تلاميذ السنة الخامسة ؟ وهل ذلك الذي شاب شعره مازال يتحتم عليه أن يحصل على شهادة الابتدائية؟

أجبته: نعم، يجب أنْ يأخذوها إنهم رجال يشتغلون، أحدهم سائق ترام، وآخر ساعي بريد، ولكي يعملوا بهذه الوظائف تُطلب منهم شهادة الابتدائية، وإن لم يحصلوا عليها فسيطردون من وظائفهم.

والتفت مارتينيللي لينظر إليهم مرةً أخرى، ثم قال لي بصوت خافت حتى لا يسمعه الآخرون: ساعدهم يا حضرة المدرس، إنّ ذلك الذي شاب شعره يبدو لي كأنه والدي. ويغط المدرس المراقب المسن في نومه، وتصطدم جبهته كل لحظة بالمقْعَدْ. أمّا الأولاد فمازالوا يتصببون عرقًا، ويعكفون على إحصاء البلاط، بينما يبكي السائق العجوز هناك، واقتربت منه، وقلت له: لا تنزعج وأخذت أمليهِ بصوتٍ خافتْ حل المسألة.

لم يكن امتحان شهادة الابتدائية من أجل هؤلاء الرجال ، ولكنه بالنسبةِ لهم يسمي امتحان اثبات معلومات عامة: مسألة حسابية، امتحان تحريري بسيط في اللغة الإيطالية، وبعض الأسئلة البسيطة في التاريخ، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية. ولعدم إضاعة الوقت وضعوهم في فصلٍ واحد مع الأطفال، وفي يومٍ واحد ينتهي الامتحان.

وقلت للسائق: الآن اترك أصدقاءك ينقلون منك، ثم يأتي دور الامتحان الشفوي.

وفي هذا الامتحان الشفوي جلست على الكرسي بجانب المراقب المسن، الذي يستيقظ ويرى أن الرجال الأربعة في الجانب الآخر قد انتهوا من حل المسألة، وينظر إلى في ريبةٍ؛ لأنّ المدرسين الشبان هم كالأولاد دائماً شفقاء ورحماء، وعندما يرون رجلاً أشيب الشعر يفكرون في والدهم.

ويقول: من يمتحنهم؟

وأرغب في أن أقول له: أنا؛ لأنّني أخشى أن يكون قاسيًا معهم، ولكني مازلت شابًا لا يجوز لي القيام بتدبير الأمور، سيسألهم هو.

ها هو ذا السائق العجوز يقترب من الكرسي، ويسلم ورقته التي حل فيها المسألة الحسابية، ويسأله الأستاذ المراقب:

– ما اسمك؟

– باتيستون لورنزو

– ماذا تعمل؟

– سائق ترام، إنّني إذا لم أنل شهادة الابتدائية فسأفصل من الوظيفة.

– متى توفي كافور؟(١)

وإنّه لمن الصعب على سائقي الترام، أنْ يعرفوا متى مات كافور، إنّهم غالبًا ما يجهلنه، ولكن برغم ذلك فهم يقودون عرباتهم على أحسن وجه دون أنْ يصيبوا أحد.

أما بالنسبة للأستاذ المراقب، فإنه يبدو له العكس، لا يستطيعون أن يكونوا سائقين مهرة دون معرفة هذا التاريخ المهم.

– إنه توفي... توفي...؟!

وأرى بفزع أنّ ذلك المسكين لا يعرف تاريخ وفاته فحسب، بل إنّه أبدى دهشةً بالغةً، عندما علم من المدرس نبأ وفاة ذلك الوزير العظيم.

وبذلت مجهودًا مضنيًا لتلقينه، ولكن إذا كان من المستطاع تلقينه رقمًا أو

---

(١) أحد وزراء إيطاليا السابقين، وكان رئيساً للوزارة سنة ١٨٥٢م، وهو الذي عمل على تحقيق وحدة إيطاليا مع فكتور ايمانويل وغاريبالدي.

رقمين أو ثلاثة، فكيف يمكن تلقينه باختصار إحدى وستين وثمانمائة وألف؟

آه لو كان كافور قد مات بعد ميلاد المسيح بقليل، ربما كان رقمًا صغيرًا مختصرًا.

– أراك لا تعرف شيئًا عن كافور، إنه تُوفي سنة (١٨٦١). ما الذي قاله عند وفاته؟

لو كان التوظيف الخاص بموظفي الترام يتوقف على الأستاذ المراقب، فإنّني أعتقد أن الناس سيجرون في مجموعاتٍ هائلة، لا لنقلهم من مكان لآخر فحسب، ولكن بوجه خاص للتمتع والاستفادة من المناقشات المثقفة البارعة، التي تدور بين السائق والكمساري.

– سيدي الأستاذ، أنا لا أعرف ماذا قال عند وفاته، فربما كان يقول: وداعًا يا أولادي.

– إنّه قال: "كنيسة حرة في دولة حرة " والآن لننتقل إلى الجغرافيا. ويتلفت الأستاذ حوله وهو راضٍ بتلك الجملة الجميلة، وبثقافته الخاصة.

لكن الأولاد لا يكترثون لهذه المباهاة بالتواريخ والجمل، وقد تركوا نصف حل المسألة، وأخذوا ينظرون بأعين محملقة متألمين من ذلك المدرس السيئ القاسي الذي يود معرفة أشياءٍ صعبة وغامضة ، من سائق ترام مسن يعرف ولا شك أن هناك وزيرًا كبيرًا يُسمى كاميللو كافور، ويحترمه من صميم قلبه، وربما يذكره؛ لأنّه رأى بعض صوره، وكانت له لحية عجيبة على شكل طوق يمتد تحت حنجرته ولا شيء غير ذلك. وفي مقابل هذا فإنّه يعرف أشياءً أخرى كثيرةً قد لا يعرفها الأستاذ؛ فإنه يعرف كيف يقود الترام، وكيف يوقفه عند نزوله في منحدر، وهو الذي يعلق في الأعياد الوطنية الأعلام فوق قمة العربة، وجميع هذه الأشياء

هي التي يقدْرها الأولاد أكثر من أنْ يقدروا تلك الجمل المختصرة التي نطقها كافور عند وفاته.

آه... لو كان من المستطاع لمس الراية الموجودة فوق الترام في أيام الأعياد الوطنية، ذلك هو حلم الأولاد. وكثيرون منهم أولئك الذين ليس آباؤهم من الأغنياء، يعرفون أنهم عند الكبر سيعملون سائقي ترام. وعندما يعبرون الطريق ويرون العربات وهي تسير يفكرون، إنّني أيضًا سأصبح هناك يومًا ما، وسأرتدي البيريه ذا الرّقَمْ، وسأضع رقمًا ذهبيًا فوق الياقة.

إن النحاس الأحمر في نظر الأولاد هو الذهب، وسائق الترام ذو الأعلام هو أشبه ما يكون بقبطان سفينة كبيرة في وَسْط البحر مزينة بأعلام العيد. ومن ثم فإنّهم لذلك يتشيعون للسائق الذين يقدرونه حق التقدير، وينظرون شزرًا إلى ذلك المدرس الذي يتشوق لآن إلى امتحان السائق في الجغرافيا.

وكانت الأمور– بالنسبة للسائق– تسير من سيء إلى أسوء وينظر إلي؛ لأنّه يعرف أنّني أرغب في مساعدته، وأفهم أنّه يسألني: هل أرسب؟

وأسأله: هل عندك أولاد؟

فيجيب: أربعة.

ويقول المراقب: إنّني أفهم ذلك، ولكن الامتحان هو الامتحان، وإذا أجبتني في الجغرافيا كما أجبتني في التاريخ.

مسكين ذلك السائق، جلس أمام كرسي الأستاذ كأنّنه تلميذ صغير، وتصورته في هذه اللحظة شيخًا مسنًا على حقيقته، ذا مريلة زرقاء طويلة مثل الأطفال، وقد كتب عليها فوق الصدر بخيط أبيض (باتيستون لورنزو) ووددت لو جذبته بيدٍ واحدة، وقلت له: تشجع، تشجع يا باتيستون، لا تبكِ، لا تخف،

فليس المدرس قاسيًا كما تعتقد، تشجع، تشجع يا باتيستون، ارفع شعرك، ألا ترى أنّه قد نزل فوق عينيك، وأنّ منظرك قد أصبح قبيحًا، وأن زملاءك يسخرون منك.

ولكن ذلك اليد كانت مجعدة، وذلك الشعر أبيض، مسكين هذا الرجل، إنّه يرتعد وهو في سن والدي.

وأقول: فلنسأله سؤالًا سهلًا في الجغرافيا.

لكن يا للخسارة، إنّ الأستاذ المراقب يريد أن يرى إذا كان يعرف ما هي عاصمة ليختينشتاين.

وسأله ذلك السؤال، وأردت أنْ ألقنه الجواب، لكن حتى في هذه المرة لا أستطيع، ومهما أقْدِح زنادَ فكري؛ فإنّني لا أتذكر عاصمة ليختينشتاين.

ولا يفكر باتيستون لورنزو في عاصمة تلك البلدة؛ فإنّه لا يعرفها وإنّما يفكر في وظيفته التي سيفقدها، ولا يجيب بشيءٍ، ويظل صامتًا مطأطئًا رأسه، وقد نزل شعره على عينيه حيث كانت تترقرق منهما دمعة مثل الطلبة الصغار الذين لم يستذكروا دروسهم، ويخجل من نفسه ومن أن يقف هذا الموقف أمام الأولاد، وهو لا يعرف أن أولئك التلاميذ يحبونه، وأنهم قد فتحوا جميعًا كتب الجغرافيا– دون استثناء– يحاولون تلقينه:

"فا... فا..."

ولكنهم يجهلون نطق هذه الكلمة الغريبة، وأعاد الأستاذ المراقب سائق الترام إلى مكانه، بعد أن لفظ بنطق صحيح وبصوت عالٍ :إنّها فادوتز ، قائلًا:

– والآن لكي نبت في أمرك ستتكون لجنة.

وستتكون اللجنة منه ومني.

ثم قال: ماذا نفعل؟ يا زميلي العزيز، إنّ الحالة خطرة، لنكن متسامحين، ولكن للتسامح حدود.

وأجبته: فلنسأل أولًا الآخرين، ثم نرى إذا كانت الحالة تستدعى أن نوجه له أسئلة أخرى.

كنت أحاول أن أكسب بعض الوقت لأن لدي أملًا، أملًا كبيرًا، وأنظر إلى السائق الذي عاد إلى مكانه، وحشر نفسه بجهد في ذلك المَقْعَدْ المخصص للأولاد.

–ربما أنجح في إنقاذك يا باتيستون.

الجو حار، والأولاد يعرقون من المسألة الحسابية المخيفة، وقد نسوا الآن السائق العجوز، ورتبوا إحصاء فوق الآخر لكي يرضوا ذلك المدرس الغريب، الذي يطلب عدد بلاط حجرته بالضبط، والذباب مازال ببطء برحلاته، التي تفوق التصور، عبر المحيطات، وستائر النوافذ تحجب تمامًا حائط المنزل المواجه الشديد البياض، ومع ذلك ينفذ شعاع من الضوء الذي يغشي العين، وتغمض عينا المراقب رويدًا رويدًا. وإذا ما تكلم ولد، أو سمع صرير ريشةٍ، أو وقعت محبرة، استيقظ هذا الرجل، بينما يجب ألا يستيقظ. يجب ألا يستيقظ يا أولاد، إذا أردتم أنْ يُنْقَذ السائق العجوز. والأولاد لا يتكلمون أبدًا، ولا توجد قط ريشةً أكثر صمتاً من ريشتهم، وأقرأ الوعد في أعينهم عندما، قالوا: حضرة المدرس، لن تقع المحابر. وأترك مقعدي ماشيًا على أطراف قدمي، وأقترب من درجِ الرجال الأربعة الفزعين من كلمة كافور الأخيرة، ومن اسم تلك العاصمة الغريبة التي لا يمكن نطق اسمها. سأسألكم أنا، أجيبوا بصوتٍ منخفض.

– أنت، ما اسمك؟

– ماريني أدلبرتو، ساعٍ بالبلدية.

– حسنًا.

واستطردت بصوت منخفض: أين توجد كنيسة القديس بطرس؟

– في روما.

– أين يوجد المولى أنتونيليانا؟ أليس لك أصدقاء في تورينو؟

– بلى، توجد أختي .

– ألم ترسل لك بطاقة مصورة بها منظر المدينة، وترى فوق كل القصور شيء مرتفع؟

– نعم.. نعم، أرسلتها لي .

– حسنًا.. تلك هي كنيسة المولى أنتو نيليانا، برافو إنّك قويٌّ في الجغرافيا، لننتقل إلى التاريخ. ماذا قال كافور قبل وفاته؟

قال: "كنيسة حرة في دولة حرة".

– حسنًا.. لكن تكلم بصوتٍ منخفض.

وأسأل بسرعة الاثنين الآخرين، وأسأل الثالث– وهو رجل أصلع الرأس يلبس النظارات– من كان غاريبالدي؟

– رجل محارب، ذو رداء فضفاض وسيف، وهو الذي احتل صقلية على فرسه.

– هل تحب غاريبالدي؟

– نعم، أحبه لأنّ جدي كان معه، وكان من أنصاره، وكان يرتدي القميص الأحمر ويعلق الأوسمة.

المهم أن الناس يحبون غاريبالدي، وهناك من لا يعرفون على وجه الدِقّة تاريخ مولده، وتاريخ وفاته، وتواريخ معاركه. وبعد كل ذلك يقولون بسخرية:

إنّها في الواقع لم تكن حروبًا، لم تكن إلا مناوشات بسيطة، بضع طلقات نارية، وبعض القتلى.

إنّ هذا الرجل القصير ذا النظارات أحسن من سابقيه، وأحسن بكثير؛ فإنَّه يقول ببساطة أنّه يحبه، وأنه كان يرتدي معطفًا فضفاضًا ويمسك سيفًا.

والآن لم يبقَ إلا باتيستون.

وسألته: ماذا تعرف يا باتيستون؟

وتجهم وجه باتيستون العجوز كالأطفال، ولم يرد الإجابة، وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى، فقلت له:

– باتيستون، لا تركب رأسك وأجبني قبل أنْ يستيقظ الأستاذ: ماذا تعرف عن الوطن؟ ما هو الوطن؟

وأجاب باتيستون: إنّه الأرض التي ولدنا بها.

كان دائمًا متجهًا برأسه إلى الناحية الأخرى، ثم استطرد قائلًا: حيثُ ولد والداي، وحيثُ ولد أبنائي الأربعة.

– برافو باتيستون.

ثم، قال: وأنا مستعد لأنْ أهب حياتي فداءً للوطن. يا حضرة المدرس، ورغم أنّني رجل مسن، فمازالت هذه الأيدي في حالة جيدة.

ذلك اليد الذي كنت أريد أنْ أقودها به، كما نفعل مع الأطفال.

– هذا امتحان التاريخ يا باتيستون، لقد أجبت عن أسئلته جيدًا. والآن

فلننتقل إلى الجغرافيا. ما هي المدن التي زرتها غير روما؟

– ترنتو، كانت مدينة جميلة ومملوءة بالأعلام، وكان الناس يقذفوننا بالزهور، دخلتها في سنة (١٩١٨) وكنت متطوعًا، هذا التاريخ أعرفه يا حضرة المدرس، من دون أن أستذكره، ولقد أعطوني وظيفة سائق ترام لأنّني اشتركت في الحرب. والآن لأنّني أجهل تاريخ وفاة كافور هل أُطرد من الوظيفة ؟!

– لا، لا، يا باتيستون، أنت ناجح وأصدقاؤك أيضًا ناجحون، والآن انصرفوا وعودوا في الصباح الباكر لاستلام الشهادة.

– ولكن الأستاذ المراقب.

قلت: انصرفوا قبل أن يستيقظ وسأتحدث معه أنا، أمّا أنتم فقد نجحتم.

ويخرجون على أطرافِ أقدامهم، ويمرون أمام كرسي المراقب دون أن يتنفسوا.

– مع السلامة، يا باتيستون.

فيقول: حضرة المدرس.

ويأخذ يدي يريد أن يقبِّلها، ولكنّني أنا الذي أريد أنْ أقبِّل يده، وينتهي الأمر بأنْ أطرده خارج الممر، وأدفعه إلى السلم.

وقال: حضرة المدرس.

قلت: "انصرف وإلاَّ أيقظت المراقب.

ويهربون على السلم شاحبي الوجوه مثل الأطفال الصغار المفزوعين من اسم ذلك الغول وفي آخر السلم يقف باتيستون مرةً أخرى، ويحييني مرة ثانية بيدٍ، قائلاً:

– حضرة المدرس أتعشم أن تركب مرةً معي في ترامي.

ثم لا أراه بعد ذلك.

وأرجع إلى الفصل، فأجد المراقب قد استيقظ، وأقول له:

– زميلي العزيز، لمْ أرد أنْ أزعجك، وقد سألتهم وكلهم ناجحون.

– حتى هذا الباتيستون؟!

– حتى هو، فإنّه لم يجب على أسئلتك لأنه كان مضطربًا، ثم استعاد نشاطه، ووجدته مثقفًا جدًا. إنّه رأى أشياءً لا أنا ولا أنت رأيناها. وينظر الأستاذ المراقب إلى وجهي متفرسًا، ولكني لا أخفض عيني. والآن وقد أوشك الأطفال على الانتهاء من هذه المسألة وتسليمها، وهم سعداء لمعرفتهم أخيرًا العدد المضبوط لبلاط تلك الحجرة، ويتكلمون، ويضحكون، ويسقطون المحابر بعد هذا السكون.

– زميلي العزيز، هل تسمح بتوقيع الشهادات؟

ويوقعها كلها وآخرها شهادة باتيستون، ولكنه يوقع عليها على مضَضْ.

وفكَّرَ آه... لو لم أنم.

وأنا أيضًا كنت أفكّرُ التفكير نفسه، ولكن بروحٍ أخرى.. وأشكر الله لذلك الحر وتلك الشمس التي تسطع على جدران البيت المقابل الناصعة البياض، ولهذا الشعاع الذي أغمض عينا ذلك المراقب المسن، مما أنقذ باتيستون لورنزو.

الفصل السادس

الحديثة المسحورة!

اليوم السبت وقد آن وقت انصراف التلاميذ بعد ستة أيام قضوها في المدرسة، يترقبون يوم الأحد ولو أنّهم قيدوا بالسلاسل ما استطاع المرء أن يجعلهم مستقرين في مقاعدهم. هم متعبون، ويظهرون تعبهم على طريقتهم الخاصة يقفون ثم يجلسون، ثم يعودون ثانيةً للقيام، كالماء عندما يغلي، ترتفع فقاعات الهواء عاليًا، ثم تعود إلى أسفل لترتفع من جديد، ويسدد أحد التلاميذ لكزة بكوعه إلى جنب جاره، فيرد عليه الآخر بركلة، ويبدأ تلميذ في الغناء، وبنظر قاسية من المدرس يحمر وجهه خجلًا، ويتبدل غناؤه خوارًا مبهمًا يضحك منه رفاقه. ويستأنف آخر تلك الأغنية نفسها دون أن يراه أحد، ويتكلم الجميع ونسمع الأصوات الحادة الصادرة من الصغار الجالسين في المقاعد الأولى، والأصوات الغليظة التي تقرب من أصوات الرجال، من التلاميذ الراسبين الذين يجلسون في المقاعد الأخيرة. وفجأةً يصدر صوت باكٍ يقول:

– يا سيدي المدرس، لقد لكمني فيدريتشي.

ويقول المدرس: سكون.. سكون، وقد أنهكه التعب بعد ستة أيامٍ قضاها في التدريس. ولو أن هذا حدث في يوم الإثنين بدلًا من يوم السبت؛ فإنّه كان بلا شك يوجه كلمات اللوم القاسية إلى فيدريتشي، وربما فرك أذنه بأصابعه، أو وضعه في زاوية الفصل خلف السبورة عقابًا له. ولكن ما حدث كان العكس من

ذلك، فقد كان يوم السبت– وهو آخر أيام الأسبوع– ولذلك اكتفى المدرس بأنْ صاح:

فيدريتشي.. يا فيدريتشي دون اقتناع، وبصوت أراد المدرس أنْ يضمنه معاني اللوم، ولكنه لم يكن كذلك ويشير إليه بإبهامه، ولكن الإشارة بالإبهام في مثل هذا اليوم لا تخيف.

وأخيرًا، آن وقت الخروج، وإنّه ليعتبر هروبًا أكثر منه خروجًا من المدرسة، ويمر الأطفال راكضين أمام المديرة، ويلقون إليها بآخر تحية في الأسبوع منطلقين إلى خارج المدخل، كأنهم قذفوا من الباب، وانتثر عقدهم على شكل مروحة. ويخرجون مسرعين يقذفون بحقائبهم في الهواء ليلقفوها ثانية في مرحٍ ونشوة، باستقبال أيام العطلة، حيثُ الشمس والمراعي، والزهور، والألعاب التي كانوا يحلمون بها طوال الأيام الستة الماضية، وزيارة إحدى الأسر الصديقة التي تقطن بعيدًا، في منزل به حديقة، وحيث يذهبون بمصاحبة آبائهم وأمهاتهم مرتدين ملابس البحرية، وسراويل ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، على صدرها كردون، وفي جيبها العلوي الأيسر صفارة.

وقد كنا نحن أيضًا أطفالًا، أفلا تتذكرون يوم الأحد، عندما كان يصطحبنا كل من والدنا ووالدتنا لزيارة إحدى الأسر الصديقة، حيث يوجد أطفال آخرون في مثلِ أعمارنا. وبينما يتحدث الوالدان عن الأجور، وتكاليف الحياة، والخدم الذين يرتكبون الأخطاء، كنا نقضي في الحديقة أوقات العصر– من تلك الأيام– وكأنّها من الربيع وهي في الحقيقة غير ذلك. كنا نشعر أن الزهور على وشك التفتح، ولكنها لم تتفتح بعد، ونبحث عن الفراشات، ولكن لم يحن بعد أوان ظهورها. وكنا نلعب على إنّنا لا نذكر الألعاب التي كنا نقوم بها، كما لا نذكر أيضًا أصدقاءنا في اللعب.

لقد كانت حديقة لو رجعنا إليها اليوم لبدت صغيرة، ولكنها كانت على أية حال حديقة. كان هناك أربعة أصص بها نباتات تبدو لنا وكأنّها أشجار ضخمة، وممشى صغير به قليل من الحصى الذي يتناقص عدده كل يوم من أيام الآحاد ومقعد من الحجر، ونافورة صغيرة كنا نضغط على زرها فينسكب منها الماء، ويتناثر حتى يبلل جميع أحذيتنا. والويل لنا لو رأونا ونحن نضغط على الزر لقد كان هذا شيئًا ممنوعًا، وكنَّا نحن الأطفال ندور حول النافورة والبنات يراقبوننا خائفات ومعجبات. كنا نضغط على زر النافورة لحظةً، ثم نتركه ثانيةً ونجري وقلوبنا تدق دقًّا عنيفًا.

– هل تكون والدتي قد رأتني؟

كانت الشمس ساطعةً، ولكنَّها شمس فبراير أو مارس التي كانت تسبب المرض. وكنا نجلس على المقاعد الحجرية ،ونحن مصطفون طفل وطفلة، وبعضنا ممسك بيدِ الآخر، ونمكث على هذه الحال مدة طويلة دون أن نتحدث، ونحن ننظر عبر السور الحديدي إلى حديقة منزل آخر، وأطفال آخرين يجلسون على مقاعد حجرية أخرى، وهم بدورهم يراقبوننا في صمت.

وكانوا يبدون لنا على بعدٍ كبير كما لو كانوا في عالمٍ آخر، فلم يخطر لنا ببال أن نوجه إليهم أيّ كلام، أو أن نلمس بأصابعنا السور الحديدي الذي كان يفصل بيننا وبينهم.

وكان الآباء من وقت لآخر يأتون لرؤيتنا، ويقولون:

– ألا تلعبون؟ لا تجلسوا ساكنين في الشمس، إنّ هذا يؤذيكم وكانت أمي تأتي إلي وتمسك بشعري تتحسسه لترى ما إذا كان ساخنًا.

– هل نلعب؟

نعم لنلعب.. ولكن الربيع لم يكن قد آن أنذاك، وفي الوقت نفسه كان يحلو لنا أن نظل منفردين نحن _الأطفال_ دون والدينا. كان ضوء النهار لايزال في الحديقة ساطعًا. أما في الحجرة حيث كان الآباء يتحدثون، فإن الظلام كان قد بدأ في الانتشار وكانوا لا يضيئون النور رغبةً في الاقتصاد.

– ما اسمكِ؟

هكذا قد سائلت طفلة في سني لها شعر أشقر، وجدائلها مربوطة بشريط.

فتجيب: "اسمي ماريا– بالسنة الرابعة– وقد حصلت على تسع درجاتٍ في الإنشاء أمس.

فأجبتها قائلًا: وأنا أيضًا بالسنة الرابعة، ومعلمي رجل طيب. وكان كل منّا ينظر إلى عيني الآخر مدة طويلة دون خجل؛ لأنَّه لم يكن هناك أي ظل في قلوبنا.

– ألا تريدين أنْ تكونِ حصاني؟

فوافقت ماريا، وتركت لي ربط اللجام بكل رزانة، وأخذنا نجري حول تلك الأصص الأربعة. وكانت هي أطول مني قامة؛ لأن البنات في مثلِ تلك السن يكنّ في الغالب أطول من الذكور، يرتدين أرديةً قصيرة ولهن سيقان طويلة نحيلة، ويركضن بكل رزانة ولكنهن سرعان ما يتعبن. وكانت ماريا تتوقف لتجلس ثانية على المقعد الحجري، ولايزال اللجام مُلقى على ظهرها.

وكنت أسألها: ألا تجرين ثانيةً؟

فلم تجب، وبدأت تحدثني عن نفسها، وعن المُدرسة التي كانت طيبة جدًا مثل معلمي، ولكنها كانت في بعض الأحيان تغضب، وعندئذٍ تضرب بعض التلاميذ.

– هل يجعلكم المدرس تنشدون صلاة الصباح؟

وأجبتها: لا، نحن معشر الصبية لا نصلي وكانت هذه هي الكذبة الأولى.

ورمقتني الطفلة بخوفٍ واضطراب، بينما الآخرون يجرون ويلعبون لعبة الحرب.

وكان هناك طفل أصغر منا– بالسنة الثالثة– قد وقع أسيرًا، ولكنه كان، يقول: لا.. لا أريد ذلك وكان قائد الأعداء يحاول إقناعه دون جدوى.

– لقد أسرناك.

– لا.. لا يصح.. لقد كان يجب أن تجردوني من سيفي، ولكنني– على العكس من ذلك– لا أزال متقلدًا سيفي.

وكان سيفًا من الخشب، ربط مقبضه بقطعة من (الدوبار). وكان أطفال الحديقة الأخرى يراقبوننا في صمت وحقد، فصحت:

– الحرب.. الحرب.

وهرولت تاركًا الطفلة جالسة على المقعد، وحصلت بسهولة على رتبة المقدم وإنها لترقية سريعة.

وخلال بضع دقائق، كان قائدي قد اضطرته أمه إلى الجلوس ليستريح في الشمس؛ لأن العرق كان قد تصبب منه، فأخذت مكانه وسرني أنّ الطفلة قد رأتني قائدًا.

والعدو مختبئ في الغابة التي تتكون من الأصص المزروعة وكان ينتظر، فصحت قائلاً: سافويا.. سافويا.. سافويا. (١)

وقذفنا بأنفسنا مهاجمين، هكذا صاح أحد جنود الأعداء:

---

(١) سافويا هو اسم الأسرة المالكة السابقة في إيطاليا.

السلم.. السلم.. أن الدم ينزف من أنفي، وكان الدم يسيل من أنف أحد الأعداء حقًا وجرى نحونا الآباء، وانتهت المعركة التي أكسبتني مجدًا عظيمًا.

وعدت إلى المقعد الحجري، ومظهري يدل كما لو كنت جنديًا عائدًا من الميدان.

– هل يتصبب العرق منك؟

فأجبت: وما أهمية ذلك؟

– هل آذوك؟

وكان بيدي جرح صغير عليه نقطة من الدم كانت قد جفت.

– هل أُضمدك؟

وربطت منديلًا حول يدي.

وسألتها: عندما تكبرين هل ستكونين ممرضة؟

فأجابت: ربما، لا أعرف إنّني لا أود أن أصير كبيرة.

وكانت الشمس على وشك الغروب، وكانت تبدو ظلالنا طويلة جدًا، كما كانت الحجرة التي يتحدث فيها آباؤنا لاتزال مظلمة.

واستطردت: إنّني إذا أصبحت كبيرة، أصبحت أمي عجوزًا، وحين يصير المرء عجوزًا يموت.

– هل رأيت الموتى؟

فلم تجب، ولم أوجه إليها سؤالًا آخر، وكان الآخرون ساكنين يلعبون في هدوءٍ بالتراب، وكان ترابًا باردًا، رطبًا، لم تدفئه حرارة الشمس بعد.

وكان المقْعَد أيضًا بارداً وعطست، ولكني كتمت تلك العطسة بيدي حتى لا

تسمعها أمي، وتأخذني إلى المنزل.

أما طفل– السنة الثالثة– الذي لم يرض أن يكون سجينًا، فإنه اقترب وأرانا حشرة الـ "كوتشينللا"[1]، وكان يتركها تسير على ظهر يده، وكانت حمراء بها سبع نقط سوداء، وبدأ المساء يقترب والظلام يخيم، وعندئذ قالت ماريا: إنها مادونيللا[2].

فاستطرد ولد السنة الثالثة مصححًا كلام ماريا: لا، بل إنّها كوتشينللا.

وقلت بدوري: إنها مادونيللا.. ألا تهديها إلي؟

فقال: ابحث لك عن واحدةٍ أخرى، أما هذه فإنّني سأقدمها للمدرس حتى يشرحها لنا، ثم يضعها في المتحف لقد عثر جوليو على الزناد (٣) ".

– أحقًا ما تقول؟

فقال جوليو: إنّه كان في وسط الحصى.

وكان جوليو هذا طفلًا في السنة الرابعة مثلنا، واستطرد قائلًا: إنّني أقدح منه شررًا في المنزل.

وبعد أن أراه لنا لحظة دون أن يسمح لنا بلمسه رجع مع طفل –السنة الثالثة– إلى اللعب بالتراب،

كانا يشيدان قصورًا وبراكينًا بل "فيزوفات"[4] على حد تعبير الأطفال.

وظللنا منفردين أنا وماريا، وكل منا يمسك بيدِ الآخر.

---

(١) كوتشينللا: هو الاسم العلمي الذي يطلق على الحشرة المعروفة باسم "أبو العيد"

(٢) مادونيللا: هو الاسم العلمي الذي يطلق على الحشرة المعروفة باسم "أبو العيد"

(٣) الزناد: هو الحجر الناري الذي يستخدم لأحداث الشرارة النارية بالاحتكاك.

(٤) فيزوف: هو البركان الإيطالي المشهور بمدينة نابولي.

وأُضيء نور الحجرة؛ حيثُ كان الآباء والأمهات.

– إن المادونيللا تسير على اليد دون أن يحس بها أحد.

– ألا تعودين إلى هنا يوم الأحد؟

– لا أعرف، ربما تصحبني أمي إلى هنا، وأنت؟

– وأنا أيضًا لا أعرف.

وكنت أشعر بشيء لا أعرف ماهيته، وكان كل منا ينظر إلى الآخر نظرة جدية، بينما كان الأطفال يسيرون في صمت بجانبنا، فقد أظلمت الدنيا ولا يرون إلا بصعوبة، وكانوا يقومون بلعبة لا أعرف أية لعبة هي.

– هل أنتَ خائف لبقائك هنا ليلًا؟ ها هو ذا نجم قد ظهر، ألا تراه؟

– ومن الذي يضيئه؟

– إنّه الله لقد أخبرتني زميلة أنّها في ذات مرة صعدت فوق جبل عالٍ.. عالٍ جدًا، حيث يمكن ملامسة النجوم منه.

– ألا تحرق هذه النجوم؟

– لا، لأن نورها ليس كنور الشمعة، وإذا نظرت إلى النجوم ونظرت إلى عيني فإنّكَ سوف تراها أيضاً.

ورفعت رأسها ونظرت إلى النجوم.

– أنظر إلى عيني.

وكان يرى بريقًا بداخلهما.

– حتى في عيني.. ترى أيضًا ؟

ونظرت إلى عيني، ثم قالت: نجوم عديدة جدًا، ولكنها تختفي عندما تغمضهما، فلنبق هكذا فترة من الزمن وعيوننا مفتوحة لنملأها بالنجوم.

وبدأن النظر إلى النجوم وكل منا ممسك بيدِ الآخر، وقلبانا ممتلئان بالنور، ذلك النور الذي نبحث عنه عبثًا عندما نكبر لقد انتهى السحر.

– يا ماريا.. يا نابي.. أين أنتما؟.. لقد تأخر الوقت وحضرت الأمهات.

– إن أيديكما قد بردت.. هيا إلى المنزل.. إلى المنزل.

ولم نتمكن حتى من تبادل التحية أنا وماريا، فقد جذبتني أمي إلى ناحيةٍ، وجذبتها أمها إلى ناحيةٍ أخرى. فلم ينتبه فرد، ولم يدرك أحد أن لدينا نجومًا عديدة في عيوننا ونورًا عظيمًا في قلبينا.

ففي هذه الحديقة خُلق عالم كان يبدو لنا أننا عشنا فيه من قبل مدة طويلة، وكنا نعتقد أنه يجب ألا ينتهي أبدًا. ولكنه للأسف كان صوت واحد، ونداء واحد، كافيين لأن يضعا له نهاية. شأنه في ذلك شأن حياة الرجال يخلقون عالمًا خاصًا بهم، يملئون أعينهم بأشياء جميلة عديدة، وتُفعَم قلوبهم بالآمال، والأهداف دون أن يفكروا في النهاية. ولكن يكفي صوت، ونداء ثم وداعًا للجميع، إذ لابد من الذهاب وإلى الأبد.

اليوم يوم الإثنين يوم العودة إلى المدرسة، والمدرس نشيط، مستريح، مليء بالحيوية، والأولاد ساكنون، هادئون، ثابتون في مقاعدهم لا يتكلم منهم أحد، ففي يوم الإثنين يكون التدريس ممتعًا لا تعب فيه.

– هل استذكرتم؟

– ليس كثيرًا في الحقيقة.

– أنت يا جورداني، أين قضيت يوم أمس؟

لقد كان المدرس مدفوعًا بحب الاطلاع، بمعرفة أين قضى تلاميذه العطلة. وفكر في تلك الحديقة التي رأها منذ سنوات عديدة عندما كان تلميذًا. وتخيل مارينا وذلك التلميذ السخيف الذي كان –بالسنة الثالثة –ثم سأل: أنت يا جورداني، أين كنت بالأمس؟

وتقدم جورداني إلى الأمام– دون أن يجيب– وأراني بعض أشياء كانت في يده.

بعض أشياء تتحرك، حمراء لها سبع نقط صغيرة سوداء.

وقلت: إنّها كوتشينللا.

فصحح جورداني: لا، بل إنّها مادونيللا.

هذا يدل على التقدم في العمر فتلك الحشرة التي كنا نسميها (مادونيللا) نسميها الآن باسمها الحقيقي، ومهما كان هذا الاسم الأخير، فإنه أقل جمالًا بكثير.

– لقد أمسكت بها في حديقةٍ ما، حيثُ كننت مع والدي ووالدتي. وكان هناك أطفال عديدون، وكان هناك أيضًا "مارتينيللي" الذي عثر على زند.

– أين الزناد؟

– ها هو ذا.

قالها مارتينيللي الذي كان قد كسر عشرًا من أسنان الأقلام لإحداث شرارةً واحدة، ثم استطرد قائلًا: لقد عثرت عليه بين الحصى في طريق صغير، حيثُ كنّا نبني القصور و الفيزوفات.

يجب علي أن أصحح كلمته الأخيرة وأقول له: إنها تُسمى "براكين" ولكني

سأقول له ذلك مرة أخرى. فيما بعد، إنّ أمامنا أربعة أشهر باقية على نهاية العام الدراسي.

– ولقد لعبنا لعبة الحرب في داخل الغابة حيث كان يختبئ الأعداء، مازالت تلك الحشرات، والزناد، والأطفال هم دائمًا الأطفال، كما كان الحال من سنوات بعيدة.

وودت لو أعرف إذا كانت هناك الآن طفلة نحيلة تقوم بعمل الممرضة، فقال مارتينيللي: نعم، توجد لقد ضمدت قائدًا مجروحًا إنها طفلة في السنة الرابعة تقول إن شرارات الزناد تطير عاليًا في السماء وتمكث هناك ثم تصبح نجومًا.

– وأين القائد الجريح؟

– إنّنا لا نعرفه، ليس صديقنا، ولكنه طفل في مدرسةٍ أخرى. وإنّي لأراهن أن هذا الطفل الآن لايزال المنديل مربوطًا حول يده كما حدث لي إذ تركت المنديل خمسة أيام أو ستة، وكان الجرح قد شُفي من مدة طويلة. كان هذا المنديل ذكرى تلك الليلة، وتلك الحديقة التي لا يمكنني أن أعرف إذا كانت والدتي ستقودني مرةً أخرى إليها أم لا، وفي الحقيقة إنّها لم تأخذني إليها مرةً ثانية.

وصمت برهة، ثم قال:

– هل حقًا يا سيدي المدرس، ما تقوله الطفلة من أن شرارات الزناد تطير عاليًا في السماء وتصبح نجومًا؟!

كم كنت أود ألا أجيب وأن أتظاهر بعدم الفهم، ولكن مارتينيللي ألحَّ في السؤال، فقلت: "لا ليس حقًا، هذه الشرارات قطع صغيرة جدًا من النار التي انفصلت من الزناد، وسرعان ما تأكلها النيران.

إنّني مدرس، ومن واجبي أن أجيب بهذه الإجابة.

وقد فعلت أنا أيضًا كما فعلت الأم مساءَ أمس، عندما أخذتهم من تلك الحديقة وحطمت سحرًا

أو ربما لا يكون الأمر كذلك.

–لماذا؟! إذا كان حقًا ما يقال من أن الأطفال دائمًا أطفال، وإذا كان يوجد حقًا في هذه اللحظة، وفي المدرسة الأخرى، وفي السنة الرابعة، قائد مجروح يربط يده بمنديله على جرح بسيط لا يظهر أبدًا؛ فإنّ ذلك المنديل هو منديل مساء الأمس.

وإذا كان حقًا أن مارتينيللي مثلِ عندما كنت في مثل عمره، آه.. إنّني متأكد من أنّ أحدًا لم يقتنع بشرحي.

قد يتظاهرون بتصديقي لأنهم تلاميذ ومن واجبهم الاعتقاد في المدرس، ولكنهم في قلوبهم مقتنعون بشيءٍ آخر أكثر جمالًا، وأكثر حقيقة من الأشياء الحقيقية. إن شرارات الزناد تطير في السماء، وتظل هناك، ثم تصبح نجومًا، تلك النجوم التي تظهر بعد الغروب، والتي تبدو وكأنّها ترتعش، ونكاد نحبس أنفاسنا خوفًا من أنْ نطفئها.

الفصل السابع

معطف رونكوني

لم يكن "رونكوني" طفلًا بل كان روحًا، فإن تلك العينين السوداوتين الكبيرتين اللتين كانت تبدوان أكبر من ذلك الوجه الصغير الساحب النحيل، كانتا تسألان دائمًا.. تسألان عن أشياءٍ كثيرًا ما كنت لا أعرف كيف أجيب عنها.

- حضرة المدرس، أين السماء؟ إنّها ليست تلك التي نراها زرقاء إنها هي ذلك الهواء وأنا أعرفها، ولكن أين تلك السماء التي فيها الملائكة والتي يذهب إليها الصالحون؟

إنها أشياء لا يعرفها أحد، ولا يعرفها حتى المدرسون الذين كان يجب أن يعرفوا كل شيء. لقد سألت هذا السؤال لجدتي، ولكنها لم تعرف كيف تجيب.

كانت الجدة عجوزًا في جسم الأطفال، تلتف في شال أسود، وكانت تحضر كل يوم لتأخذ حفيدها؛ لأنّها كانت تحبه كثيرًا، ولتأخذ وجهه بين يديها، وتقبله على جبينه. وليس ذلك لتصحبه إلى الشارع؛ لأنّه بالأحرى كان هو الذي يصحبها، ويقدم لها كتفه لتسند عليها يدها. وكنت عند رؤيتهما سائرين، وكان هو لايزال صغيرًا، وقد أصبحت هي أيضًا صغيرةً مثله، كنت أفكر بقلب منقبض في تلك السماء التي يبدو كل منهما قريبًا منها.

لقد كانت عجوزًا صالحة حزينة، وكانت تغطي رأسها بقبعة سوداء تربطها إلى

أسفل ذقنها بشريط من المخمل. وعندما كانت تتحدث معي، كانت تأخذ بإحدى يدي، وتربت عليها كأنّني أحد أبنائها. حضرة المدرس، إنْ صغيري يستذكر كثيرًا ويقرأ دائمًا وهذا يتعبه، قل له أن من الواجب عليه أن يلعب ويلهو مثل كل الأطفال الذين في سنه.

وكنت أجيبها: إنّني أقول له هذا دائمًا يا سيدتي، لقد وضعته بجانب مارتينيللي الأكثر مرحًا في الفصل.

ثم اتجهت لرونكوني قائلًا: سوف نقوم في الربيع برحلات، ونذهب إلى الحقول، ونؤلف فرقة للعب كرة القدم، وسأكون أنا حارس المرمى وستكون أنت قلب الهجوم، وإذا لعبت أنا– باعتباري مدرسً– فستلعب أنت أيضًا، أليس كذلك؟

سأتذكر دائمًا ذلك الوجه الصغير المبتسم، والمائل قليلًا على الكتف اليمنى، تلك الكتف التي كانت الجدة تسند يدها عليها بخفة، فإنّها ليست بالثقيلة.

وكان ينظر إلي دائمًا، وينصت في الفصل بشغف إلى كلماتي، على أمل أن يتعلم بعض الأشياء التي لا يعرفها. وكنت أراه في كل لحظة وهو على وشك أن يسألني، ولكنه كان يهز رأسه ويخفض يده من جديد– تلك اليد التي كان قد رفعها قليلًا– وهو يفهم أنّني لو أجبت عن الأسئلة التي كان يريد معرفة إجابتها، فإنّ الآخرين لن يتعلموا شيئًا. وأنّه لا يمكنني أن ألقيَ الدرس من أجله فقط. وكان لابد أن أهتم بأن أقول أشياءً عادية وفي غاية البساطة، حتى يفهمها الجميع. ومن بينهم "كريبا" لقد كان طفلًا طويل القامة، سمين البدن، له شعر طويل يغطي ساقيه. وهو راسب منذ سنين عديدة بالسنة الرابعة، وكنت أريد أن أفهم جيدًا إذا كان نائمًا أم متيقظًا؛ لأنّ جفونه كانت مسبلة ومنخفضة ، يطبقها

كأبواب الحوانيت الحديدية التي يخفضونها بعد الساعة الثامنة والنصف مساءً، ليفهموا الجمهور أنّ المحل مقفول، ولكنها ليست منخفضة جدًا إلى النهاية، حتى تسمح للعمال الباقين في الداخل الذين يقيدون الحسابات بأن يخرجوا منها على أرجلهم وأيديهم، وهم يمسكون بحلقة المفاتيح الرنانة.

ولقد نقلته في آخر العام وذلك إمّا لأنّني كنت أرى أنه من الواجب تخليص المدرسة من مثل ذلك الطفل، وإمّا لكي أتجنب أن تدركه الشيخوخة وهو لايزال بعد في المدرسة الابتدائية. وفي يومٍ ما، جاء إلي "رونكوني" في الفصل وكانت هناك تدريبات على السير والجري بالفناء، وكان مرتديًا معطفًا بدا فيه عجوزًا، وقد صحبته الجدة حتى الباب، ورجتني في ألاّ أجعله يخلع معطفه، قائلة : "إن ذلك يضر به يا حضرة المدرس، فمازال الجو باردًا"، وقال مارتينيللي الذي كان يبدو كالجندي وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يمر أمام المديرة ماشيًا مشية العرض العسكري: "يتدرب وهو يلبس المعطف هذا مستحيل انظر إلي، إنني لا أرتدي شيئًا تحت ملابسي هذه" وكشف عن جلده العاري تحت قميصه. أما "كريبا" فقد ألهبته أصوات الطبول المنبعثة من فناء المدرسة وأيقظته، ولكنه بمجرد أنْ سكتت تلك الطبول بدأ يتمايل، ليستأنف النوم من جديد.

ولكن صوت البوق جعله ينتفض: الصفوف.. الصفوف.. وعندما وصلنا إلى الفناء، وجدنا الصفوف قد انتظمت وكانت المجموعة عبارة عن فصل يتألف من ثلاثين طالبًا، أو ما يزيد قليلًا على ذلك. وقد اصطف الجميع واستعدوا للسير أمام المديرة لقد كانت سمينة، حمراء الوجه، تقف معتدلة فوق شيءٍ أشبه ما يكون بالمنضدة، ومحاطة بهيئة أركان حرب مكونة من المدرسات اللاتي كن يعملن جهدهن ليظهرن بمظهر الشجاعة، والروح الحربية، ولكنهن لم يستطعن على الأقل الاستغناء عن التهامس فيما بينهن كما فعلن ويفعلن، وكما ستفعل جميع

مدرسات العالم. ورتبت مجموعتي مع المجموعات الأخرى، وكنت إلى جانب مارتينيللي الذي وقف بشجاعة معتدلًا، وبأعين متقّدة، وبقلب كان يدق مع دقات الطبول، ومع الآخرين الذين فقدوا الصبر، وبدأوا حركة (محلك سر) وهم يحلمون بالأعلام والهجوم، وبغبار المعارك اللامع وكان "رونكوني" يقف بمعطفه وقلنسوته الكبيرة– بالنسبة لرأسه الصغير– والتي كانت تنزل حتى عينيه، حتى كان لا يُرى منه سوى فمه وذقنه المسحوبة، وقلت له: ليس كذلك.. ليس كذلك يا رونكوني، لا ينبغي أن يكون الرأس مائلًا على الكتف. وكان ينظر إلي وهو يرفع رأسه إلى أعلى لأن القلنسوة كانت فوق عينيه، وبدا وكأنه يقول لي: إنّك تعرف تمامًا أنني لا أستطيع أن أفعل ما تطلب مني ويسرني جدًا أن أكون مثل "مارتينيللي"، وأنْ أستطع الذهاب بالقميص المفتوح من رقبته ومن دون أي شيء تحته، ولكني لا أستطيع وسوف ترجعني المديرة الآن إلى منزلي؛ لأنّه من العيب أن ترى تلميذًا يتدرب بمعطفه.

وقد صدر الأمر للتلاميذ بالإتجاه إلى اليمين، وابتدأت المجموعات تسير صفوفًا أمام المديرة. وكان يسمع وقع أقدام ثمانمائة طالب في أثناء سيرهم فوق حصى الفناء، وكانوا يبدون وكأنهم ثمانمائة من الجنود، وكان بينهم واحد فقط بمعطفه وبذراعيه النحيلتين اللتين تبدو منهما عروف زرقاء صغيرة.

وكنت أفكر الآن ستراه المديرة وستعيده إلى البيت.

"جرية سريعة" صاحت المديرة بصوت كالرعد، وكان في استطاعتها فقط أن تأمر بالجري، ولكن الويل لها إذا تلقت هي ذلك الأمر في يوم من الأيام، وقالت: لأيُّ مجموعة ينتسب ذلك الولد الذي يرتدي المعطف؟ فأجبت: إنّه ينتسب إلى مجموعتي يا حضرة المديرة.

وأخذت رونكوني من يده، ووضعته في ركن من الأركان، وقلت له: "ابقَ

هنا، وبعد مرور الصفوف سأجئ إليك لأخذك، لا، ليس في الظل هنا إجلس في الشمس.. هل تعرق؟

وقال لي: حضرة المدرس، إنّني أحبك حبي لجدتي.

وقلت له: وأنا أيضًا، أحبك يا رونكوني، وسأصحبك للتنزه معي، ثم ستصبح رويدًا رويدًا كغيرك، مثل :مارتينيللي، وستقوم برحلات طويلة وستحمل أنت المخلاة.

وفي يوم ستأتي الجدة لترى المجموعات، وسنقول لها: انظري إلى حفيدك الذي يسير مع الآخرين، هل هو متعب.. متعب؟ إنّ المخلاة ستكون بالنسبة إليه كريشة.

وابتسم "رونكوني"، وأجاب بابتسامة حزينة وهو يمسك بإحدى يدي بين يديه، وكان لابد لي أن أقول له: دعني. ورجعت مسرعًا إلى مجموعتي، التي كانت تسير في تلك اللحظة أمام المديرة، ومر مارتينيللي أمامها، وهو ينظر إليها بعينين مفتوحتين تومضان بالشرر، كأنَّه يريد أن يلتهمها، وكذلك نجح "كريبا" في أن يرفع جفونه التي انخفضت في الحال بعد أن مر أمام المديرة. والدليل على أنه بدأ ثانيةً في النوم عندما صدر الأمر بالوقوف، استمر في المشي في زهو، وهو يتجه بخطى ثابتة نحو الجدار. وبادلتني المديرة التهنئة، كما لو كنت قائدًا عظيمًا، وقالت لي: إذن من المستحسن ألا يشترك هذا الولد بعد ذلك في الطابور. وحييتها ورجعت إلى رونكوني، ولم أقل له شيئًا، فقال: ماذا قالت المديرة؟ فقلت له: لنرجع إلى الفصل يا رونكوني.

ولم ألق درسًا في الفصل في ذلك اليوم، فمن ذا الذي كان يستطيع أن يهدئ خمسة وثلاثين تلميذًا قد تكهربوا من أصوات الأبواق والطبول؟! من ذا الذي

يمكنه أن يهدئ مارتينيللي الذي سمع مديحًا خاصًا من حضرة المديرة، بأنّه أحسن تلميذ يمشي مشية عسكرية في المدرسة كلها؟! وبينما كان الآخرون يحدثون ضوضاء كنت أتحدث مع رونكوني، وأقول له: يجب عليك ألاّ تقرأ، أو تستذكر كثيرًا. ولا تفكر في الأشياء التي هي أكبر منك، تلك الأشياء التي لا يفكر فيها حتى الرجال ولاحتى مدرسك، فإنّه يبدو من مواضيعك الإنشائية التي كتبتها أنك وحيد ومنفرد. ينقصك وجود صاحب تلعب معه مثل مارتينيللي، لماذا لا تلعب مع مارتينيللي؟

– إن مارتينيللي لا يفكر في شيء يا حضرة المدرس، وإلى جانب ذلك لا يحب أن يبقى معي ويقول أنّني مجنون.

– "مارتينيللي".. تعال هنا؟.. لماذا لا تلعب مع "رونكوني" ولا تصاحبه؟

– إنّه مجنون يا حضرة المدرس، إنه يستذكر أيضًا في المنزل.

ونظر إلي غاضبًا، وقال: لا أريد أن أصبح مثله، إنه يقول لي أشياء لا أفهمها. فأول أمس بينما كنا في الحدائق نقطف الأزهار، لكي نجعل منها باقات كثيرة نقدمها لحضرتك، قطف زهرة صغيرة، وقال: إنّه يستوي أن تقدم باقة أو تقدم زهرة.

ونظر إلى "رونكوني" خائفًا بعض الشيء، ورجع إلى مكانه الخاص به، ليتكلم مع أصحابه عن المعارك، وكثيرًا ما كان يقوم بحركات يفهم منها أنّه يريد أن يصوب بندقية، وقلت لرونكوني: والآن وقد جاء الربيع لابد من الحركة.

– حضرة المدرس، إن حالتي تزداد سوءً في فصل الربيع.

وسمعت دقات على الباب، ودخل الفراش قائلًا: في الصباح الباكر في الساعة العاشرة زيارة حضرة المفتش.

وفجأة انطفأت حرارة المحاربين، وقال ليوناردو: يا إلهي– وهو ولد صغير يلبس النظارات– وقد قام على قدميه رافعًا يديه، كما لو كان في كنيسة، واستطرد في الكلام: يا إلهي، لا تجعله يسألني، وأعدك أنّني لن أكُلَ الكريز لمدة أسبوع. وصاح مارتينيللي قائلًا: ليحضر المفتش، ولكني نظرت إليه وجعلته يخفض عينيه، لقد كانت نظرتي تعني: أنت لن تحضر غدًا يا مارتينيللي، أنت ستكون غدًا في العاشرة تمامًا– عندما يدخل المفتش– في الحدائق لتصنع باقات كثيرة من الزهور.

ما أسعدك! لأن في استطاعتك عمل ذلك، ولكن أنا– على العكس من ذلك– يجب على أن أبقى هنا لأقدم له الدفاتر، ولأبين له المنهج الذي أقوم بتدريسه، وسيقول لي: يا حضرة المدرس، هل تسير طبقًا للبرنامج؟ هل شرحت الأفعال الشاذة؟ وسأجيبه كذبًا– كبقية التلاميذ– قائلًا: طبعًا يا حضرة المفتش، نعم، شرحت الأفعال الشاذة، وإذا أردت فاسأل تلاميذي.

آه.. ليست هناك لحظة أشد وقعًا على المدير من هذه اللحظة، وربما لا يسأل المفتش لأنه قد رضى بهذه الإجابة. وحينئذٍ سوف يستأنف هذا القلب– الذي كان قد وقف– دقاته من جديد، مثل طبول الأمس عندما كانت تدق في الفناء، ولكن من المحتمل أيضًا أن يقول المفتش:

– حسنًا.. لنسمع ذلك الولد الصغير الذي يحبس بنظاراته في الصف الأول، ما اسمك يا بني؟

– ليوناردي ألبرتو.

– شاطر.. هل تستطيع أن تقول لي شيئًا عن الأفعال الشاذة؟

– حضرة المفتش، إنّ الأفعال الشاذة حتى الآن لم يشرحها لنا حضرة المدرس.

وتكون النهاية، ويخرج المفتش عابسًا دون أن ينطق بكلمة، ثم يدق الفرّاش الباب بعد قليل، ويطل برأسه داخل الفصل، ويقول بسرور خفي: حضرة المدرس، إنك مطلوب في الإدارة، وأجد نفسي حقيقةً أنّني لم أشرح أي شيء من الأفعال الشاذة، فلم أكن مدرسًا منظمًا أسير يومًا بيوم طبقًا للبرنامج. بل كنت أعطي درسًا في القواعد يومًا، وأتحدث في يوم عن الأزهار، وأتكلم في آخر عن "فوريو كاميللو" الذي أنقذ روما من الغاليين(١) عندما وصل بسرعة البرق راكبًا على ظهر حصان أبيض. لقد وصل في اللحظة التي وضع فيها "برنو" المكروه سيفه الثقيل على الميزان، وصاح: الويل للمغلوب, وكان الأطفال يهللون ويطلبون مني أخبارًا عن ذلك الحصان الأبيض: حضرة المدرس، هل كان حصانًا ثمينًا؟.. وهل كان يجري سريعًا؟ وكنت أجيبهم: مثل الريح بالضبط وكنت أنا بدوري متحمسًا لذلك الحصان، وكنت أعتقد –مثل الأطفال– أن الحصان الذي حرر "كاميللو" به روما، كان أبيض ناصع البياض كالجليد، ثّم كنت أنظر إلى رونكوني، لقد كان "رونكوني" يبتسم وكان يخجلني قليلًا إحساسي العاطفي، وكان يبدو لي أنّني طفل صغير أماما رجل عاقل، فكنت أخفض عيني.

ثم استطردت بوقار وأنا أحاول أن أجعلهم يرونني ثابتًا وهادئًا: أولادي، في الصباح الباكر سيأتي حضرة المفتش، ومن المحتمل أن يسأل في الأفعال الشاذة، إنّني أعرف تمامًا أنكم لستم مضطرين أن تعرفوها ؛ لأنّني لم أشرحها لكم، ولكن لننظر قليلًا إن كنتم لا تعرفون شيئًا عنها؟ أنت يا "ليووناردي" لو سألك حضرة المفتش غدًا صباحًا: قل لي يا ليوناردي المضارع الإخباري لفعل ذهب.. لنسمع كيف تجيب؟ وأجاب ليوناردي بجدية: أنا يذهب، أنت أذهب، هو تذهب (٢).

---

(١) سكان فرنسا "جاليا" أو "غالية".

(٢) الفعل ذهب في اللغة الإيطالية شاذ التصريف.

وفي اليوم التالي، كانوا كلهم منتظرين حضرة المفتش ما عدا مارتينيللي الذي كان غائبًا بالطبع. كان السكون شاملاً، ولم تكن لدي الشجاعة لأن أقول شيئًا. وكان "رونكوني" أكثر شحوبًا وأكثر تعبًا من المعتاد كانت له عينان محاطتان بهالتين سوداوتين، كما كان رأسه أكثر ميلًا على كتفه اليمنى.

كان يفهم جيدًا شعوري بالخوف، وكان ينظر إلي كأنه يقول: تشجع يا حضرة المدرس، وسترى أن كلّ شيءٍ سيسر على ما يرام. وكان "كريبا" مستغرقًا في النوم، ولكي يظل مستيقظًا كان من اللازم دق الطبول ونفخ الأبواق بجانبه، ولم يكفه حتى حضور المفتش لإيقاظه، وفي العاشرة تمامًا دخل المفتش، وأظهرت له الدفاتر، وأعطيته علمًا بالمقرر المشروح، وقد وجه بعض الأسئلة هنا وهناك إلى الأولاد، وهي أسئلة في كل المقرر، وأجابوا بطريقة مرْضِية. وانتهى كل شيءٍ على مايرام.

وقد بدأ ظهور بعض الابتسامات، وكانت بعض الأوجه لاتزال شاحبة ، وقد أجلست ليوناردي صاحب "أنا يذهب" مختبئًا تحت آخر مقعد، وقد بدأ في الظهور برأسه، وكان يبدو بريق نظارته. ولكن في لحظة معينة، عندما كنت أنتظر تهنئة السيد المفتش وانصرافه، قال: لنسمع شيئًا عن الأفعال الشاذة، حضرتك بكل تأكيد شرحتها لهم.

– طبعًا يا حضرة المفتش فهي ضمن المنهج.

– حسنًا.. حسنًا.. هل تريد أن تسألهم أنت أم أسألهم أنا؟

–كما تحب يا حضرة المفتش، فالأمران عندي سواء.

– اسألهم حضرتك.

وحينئذٍ أدرت عيني حولي بين الأوجه الكثيرة المفزعة، فرأيت ذلك الوجه

الصغير الهادئ المبتسم. وجه "رونكوني" فقد كانت تلك الهالات السوداء التي تحيط بعينيه تعني، أنّني استذكرت طوال الليل يا حضرة المدرس، والأفعال الشاذة أعرفها تمامًا كلها، واسألني واطلب مني تصريف أصعب فعل لها. وقد أجاب عن كل الأسئلة، وسرّ المفتش، وأراد أن يوجه إليه بعض الأسئلة: أنت شاطر يا رونكوني، وماهر. وأنت يا حضرة المدرس. يا أولاد يجب عليكم أن تحبوا مدرسكم، وأن تكونوا فخورين به، فهو شاب له مقدرة مدرس متقدم في السن، أتصور يا حضرة المدرس أنّك قد بذلت جهدًا كبيرًا لتدخل في رءوسهم الأفعال الشاذة بطريقة حسنة وبوضوحٍ بالغ، وقال :"رونكوني" بصوتٍ خافت: إنّه منذ ثلاثة أشهر يشرحها لنا يا حضرة المفتش.

– وهل الآخرون يعرفونها أيضًا مثل "رونكوني"؟

– طبعًا يا حضرة المفتش، وإذا أردت فاسألهم.

– لا.. لا.. كفى ذلك حسن يا حضرة المدرس، وتقبل التهاني، وأحييكم يا أولادي، وأريد منكم أن تحبوا مدرسكم ، الذي يتعب كثيرًا من أجل تثقيفكم وتهذيبكم.

وانصرف متحمسًا، وعندما خرج كان الصمت مخيمًا، ثم نظرت إلى "رونكوني" وكنت أود أن أقول له أشياءً كثيرة ولكني لم أستطع.

– آه، لو حضر "مارتينيللي" لفهم أنّ "رونكوني" لم يكن مجنونًا، وقلت: رونكوني هل أنت متعب؟ وأجاب: مثل كل الأيام الأخرى يا حضرة المدرس.

وجاءت جدته وقت الانصراف، وقالت: لقد استذكر طوال الليل يا حضرة المدرس، قلت له أن يقلل من الاستذكار، وهل كان في حاجة لأن يستذكر– كما فعل– طوال الليل؟

– رونكوني، ابق غدًا في البيت، وسأجيء إليك أنا بعد الظهر.

– حضرة المدرس سأحضر غدًا مادمت أستطيع الحضور، وقالت جدته وهي تشهق: لا تقل ذلك.. لا تقل ذلك وابتعد الاثنان معًا، ويدها على كتفه خفيفة جدًا لا ثقل فيها، ولكنها كانت ثقيلة بالنسبة لهذه الكتف، وجاء رونكوني إلى المدرسة عدة أيام تالية، وذات صباح كنت أحصى الحاضرين، وعندما وصلت إلى اسم "رونكوني" لم أسمع ذلك الصوت الخفيض يجيب، قائلًا: موجود يا حضرة المدرس. وفهمت أنه لن يحضر بعد ذلك إلى المدرسة، وفهم ذلك أيضًا كل الأطفال، وقال مارتينيللي: سأحمل الزهور التي أحضرتها يا حضرة المدرس، إلى رونكوني وسأذهب إلى بيته بعد الظهر.

وكان "رونكوني" قد رقد في سرير صغير، واستقبلتني الجدة، قائلة: أنه طلب مني ثانية أخبارًا عن السماء يا حضرة المدرس، فقلت له: اسمع يا رونكوني، وكانت يداه فوق الغطاء خفيفة دون أثر.

– حضرة المدير، أنني لن أحمل المخلاة بعد اليوم، قل لمارتينيللي.

– أن هذه الزهور يقدمها لك مارتينيللي.

فاستطرد رونكوني قائلًا : قل له أني أحبه، ولو أنّه يعتقد أنني مجنون، اطلب منه أن يجري، وأن يقطف زهورًا كثيرة، وأن يمشي أمام المديرة، وألاّ يستذكر كثيرًا ويتذكرني. إنّني أعرف كل الأفعال الشاذة يا حضرة المدرس، أنا أذهب، أنت تذهب، هو يذهب.

وكانت الجدة تبكي بهدوء حتى لا يحس بها أحد، وأمّا "رونكوني" فلم يكن خائفًا.

– إلى اللقاء يا "رونكوني" وسأحضر غدًا.

وفي الصباح التالي، ذهبت إليه مبكرًا قبل بدء الدراسة، ودخلت في الفصل متأخرًا بعض الشيء حيث كان الأولاد كلهم، وقد فهموا دون أن أقول لهم شيئًا، وقد وضع مارتينيللي– الذي كان دائمًا محملًا بالزهور– واحدة منها في المكان الخالي بجانبه، وقال لي: لم يكن مجنونًا يا حضرة المدرس، فإن باقة من الزهور أو زهرة واحدة يستويان.

ثم مرت الشهور، ووصلنا إلى نهاية العام الدراسي، وجاء يوم توزيع الشهادات و"الميداليات" وكان "مارتينيللي" ناجحًا، ولم يعرف أنه قد نجح، لثقافته فحسب، بل لوضعه تلك الزهرة في ذلك اليوم في المكان الخالي. وكان "كريبا" ناجحًا، ولكنه كان نائمًا ولذلك لم يعلم، وأما "ليوناردي" فقد كان عنده دور ثان في اللغة الإيطالية في شهر أكتوبر، هل تذكر؟

"أنا يذهب"

– والآن يجيء دور الميداليات فالميدالية الفضية لأشطر تلميذ، ولأطيب تلميذ، لأنّه يستحقها أكثر من غيره وقد أمرت بإحضار شخص أيها الأولاد.

وفتحت الباب، ودخلت جدة "رونكوني".

– هل يؤسفكم يا أطفال لو أعطيت الميدالية الفضية إلى جدة رونكوني؟ خذيها يا سيدتي لقد كنا جميعًا نحبه.

– والآن لنخرج يا أولادي فإلى اللقاء.. إلى اللقاء في أكتوبر، وفي السنة الخامسة وسوف تكون أنت رئيس الفرقة يا مارتينيللي.

وخرجنا كلنا، وبقى في الفصل "كريب" منفردًا،

فإنّه كان لايزال يغط في نومه.

الفصل الثامن

الربيع في فناء المدرسة

لم ينته الشتاء بعد.. فما زالت المعاطف، وما زالت الأيدي الباردة في الصباح يجب فركها بقوة، والنفخ فيها لتدفئتها، لكي يمكن تناول القلم وكتابة: "روما ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣– إملاء".

ولكن هناك شيئًا جديدًا، أمام أعين التلاميذ، لم يكن بالأمس كذلك.. فإن "جورداني" منته دائمًا ويضم ذراعيه إلى بعضهما البعض، وعيناه ثابتتان، وأذناه قائمتان، حتى لا يفقد كلمة يقولها المدرس.. وقد رد على زميله بضربة من كوعه لأنه أراد أن يحادثه– وهو اليوم يضحك وينظر نحو النافذة كما لو كان يترقب وصول شخص ما لابد من مجيئه– وأناديه فلا يسمعني، كما أن "مارتينيللي" لا يثبت لحظة واحدة فهو يقوم ويأتي ليلقي ورقة مكورة صغيرة في سلى المهملات، ويعود إلى مكانه، ثم يقوم من جديد ليلقي أشياء أخرى في السلة. والذهاب إلى سلة المهملات شيء "معد".. فسرعان ما بدأ كل واحد يذهب، ثم يأتي ويقوم، ثم يجلس من جديد.. من ذا الذي يضرب الخريطة الجغرافية بنبلته فيفتح ثقبًا في اليونان؟! من ذا الذي يقلد أصوات الحيوان هناك في آخر الفصل عند مقاعد المعيدين؟!

وينظر الكل من النافذة المطلة على الفناء.

"روما ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣.. هل كتبتم؟"

لا شيء.. ولا توجد طريقة تجعلهم يكتبون هذا الصباح، ففي هذا الصباح تنكسر أسنان الأقلام، وتتبقع الأوراق، ولا يستطيع "ليوناردي" الكتابة لأن "مانيلي" يضربه في ذراعه ويأخذ "مارياتشي" في البكاء لسبب غير معروف، إذ لم يؤذِ أحد.

"ماذا بكَ يا مارياتشي؟ ولا يعرف– حتى ولا هو– السبب في ذلك.. شأنه في ذلك شأن "جورداني" فإنه دائمًا هكذا جاد، لا يعرف ما الذي يجعله يضحك أحيانًا، ويحزن أحيانًا أخرى، لأنه ولد محترم ومنظم، ويقطب حاجبيه ويجهد في أن يبدو قاسيًا، ولكن عينيه تستمران في الضحك.

– يا أولادي، ماذا حدث هذا الصباح؟

وبالرغم من أن كل الأيام مثل هذا اليوم، فإن رقعة السماء الرمادية المعتادة، والشجرة ذات الفروع العارية السوداء تبدوان من النافذة، ولكن الجميع ينظرون إليهما، ويفتح المدرس النافذة على مصراعيها، وينظر إلى أسفل، ولكن لا شيء ولا أحد سوى حصى الفناء والحفر، وجدران عالية رمادية، بها نوافذ عديدة متشابهة، وكل نافذة لفصل من الفصول، ومدرسون كثيرون، ومدرسات كثيرات، وتلاميذ عديدون يلبسون نفس "المريلة" ثم الكلمات نفسها ، والتأنيبات نفسها ، والمسائل الحسابية نفسها منذ سنين عديدة، فلا يوجد شيء جديد أبدًا!

ماذا ينتظر التلاميذ؟ أن أحدًا ما سيحضر من الفناء وسيدق على زجاج النافذة، وهذا ما تستطيع أن تقرأه في عيونهم ونظر إلى الممر، ولكنه كما كان دائمًا مشجب طويل جدًا، ومعاطف كثيرة، وحرامل كثيرة، وكوفيات حمراء، ومعطفان أو ثلاثة من الفراء للأولاد الأغنياء، ولكن ماذا يوجد داخل الجيوب؟ صفارات، أزرار، صواميل، غطاء علبة "ورنيش" وكسر حلوى قد أُكلت، لا يعرف أحد كم من الزمن مضى عليها. إنها تتناقص باستمرار لأن التلميذ يتذكر

طعمها من حينٍ لآخر. الجور بارد في الممر، وأرى الأستاذ "باليابي" يمر إنه عجوز مسن، وتتدلى كوفيته حتى عينيه، ويقول بصوته المرتعد: إن هذا الشتاء، لا ينتهي أبدًا!

وينفخ في يديه، محاولًا تدفئة أطراف أصابعه التي برزت من قفاز نصفي أسود قديم. وهناك في نهاية الممر، ينام الفراش فوق أحد المقاعد ومع ذلك فليس هناك شيء جديد، فالفراش ينام، والأستاذ "باليابي" يتألم من الشتاء الذي لم ينته بعد كالمعتاد. والنور مضاء في حجرة المديرة، والمديرة تجلس بجانب المدفئة. وأحلم في كل لحظة بأن أكون مديرًا، وأمامي ذلك المكتب الأنيق ذو القلم والمحبرة الفضية الجميلة، وهي هدايا المدرسين (الأستاذ "باليابي" دفع من ثمنها خمس ليرات فقط، يقولون أنه بخيل ولديه ثروة في البنك، مسكين ذلك الأستاذ "باليابي" فربما كان لديه ألف ليرة قد ادخرها في ثلاثين عامًا قضاها في التدريس. ويقول في نفسه: سأتمتع بها عندما أحال إلى المعاش، ولكن من يعلم إذا كان سيصل إلى المعاش أم لا، فهو دائمًا يشعر بالبرد، أما الشتاء فلا ينتهي أبدًا). وبجانب القلم والمحبرة الفضية، توجد ساعة كبيرة– مستندة إلى تمثالين لسيدتين من البرونز– صوتها يفزع الأولاد عند استدعائهم إلى حجرة المديرة في لحظة الصمت العابس التي تسبق تأنيب المديرة. وفي وسط المكتب ختم الإدارة، ذلك الختم السحري الذي يثبت "قانونية" الشهادات، والإثباتات، والتقارير الخاصة بأحوال التلاميذ والدبلومات. ذلك الختم السحري الذي تستطيع المديرة استعماله دون غيرها، ولعلني من أجل ذلك الختم وحده أود أن أكون مديرًا وأختم به بقوة في نهاية العام على تسعمائة تقرير عن أحوال التلاميذ واحدًا تلو الآخر.

وتبدو حجرة المديرة آخر العام– بسبب الضوضاء الصادرة منها– كأنها مكتب من مكاتب البريد. وحيث أجلس الآن، أرى نور حجرة المديرة فقط،

الذي يضيء أيضًا حجرة السكرتير الذي يعد أوراق الحضور والغياب بخط جميل لليوم التالي. إن خطوط سكرتيري المدراء متشابهة كلها؛ إذ يكتبون لقب المدرسين بالخط القوطي وأسماءهم بالخط العادي في أسطر طويلة مستقيمة، ومن حينٍ لآخر تجد بعض الحروف الأولى من الأسماء مكتوبة بخط أحمر. ولابد أن تكونوا قد مُنحتم في بعض الأحيان "ميدالية" وأنتم صغار وتلك "الميدالية" قد أثرت فيكم، ولكنها اليوم– وبعد سنوات طويلة– توجد في درج من الأدراج، وإذا بحثتم عنها فستجدونها من جديد، ولا تؤثر في نفوسكم تأثير حرف الـ "ج" المكتوب بالقلم الأحمر، والذي يزين الدبلوم الذي يصحب "الميدالية"، والذي يكتب على "جائزة التفوق"، ولقد كتب تلك الـ "ج" من أجلكم سكرتير مدرستكم السابق، والذي لم يعد الآن سكرتيرًا للمدرسة. على أنه لايزال يوجد في كل مدرسة سكرتير يكتب حرف الـ "ج" مثل سكرتير مدرستكم السابق، وبالخط نفسه، وبالزخارف نفسهت، وبالحبر الأحمر نفسه.

أدخل الفصل من جديد، وقد زاد اضطرابًا، وحينئذ أجد شيئًا ما لم أدركه أنا، ولا الأستاذ "باليانى"، ولا سكرتير المدرسة. ولكن الأولاد هم الذين يدركونه، يجب رفع الصوت والنظر بقسوة إلى "جوردانى" ومنع مجيء التلاميذ لإلقاء الأوراق في سلة المهملات، وتكرار "روما ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣.. إملاء اكتبوا" وأخذ كتابًا وأتصفحه، ولا أجد شيئًا يستحق أن أمليه، ولا أجد فقرة مفيدة لها مغزى إلا وكانت طويلة، ثم ولابد أن يتضمن الموضوع بعض الصعوبات النحوية لكي أمرن الأولاد.. وماذا أفعل؟ الإملاء المعتادة: "وداعًا أيتها الجبال" أو أملي عليهم هذه الفقرة: "لم يكن يهب النسيم، والبحيرة تبدو مصقولة وهادئة أو بسكارينكو" لا، فتلامذة المدارس الابتدائية لا يفهمون شيئًا منها. ومن ثم أُملي– كما أفعل كثيرًا– ما يخطر ببالي، أكتبوا: "نافذة فصلة".. هأنذا قد أمليت

العنوان، والآن أمر بين المقاعد.

وحسرتاه! كنت أبحث عن جمل فيها قواعد صعبة، وقد كتب مانيلي: "نافذة الفصلة" وبالرغم من أن مانيلي يكتب جيدًا، فإن ذلك كان سهوًا منه. وينظر مارتينيللي إلي ويبتسم، إنها ابتسامة لا أبادله إياها لأنني أشعر أن هناك شيئًا ما في الجو، شيئًا ما يدركه الأولاد، ولا أدركه أنا.

وأحس بأنني عجوز مثل الأستاذ "بالياني" الذي تجمدت أصابعه من البرد، تلك الأصابع التي برزت من القفاز الأسود، وأتصور نفسي بعد عشرين عامًا، وأنا أمر خلال الممر البارد المظلم، والكوفية تغطيني حتى أذني، وأجد نفسي أقول: "إن هذا الشتاء لا ينتهي أبدًا". وأُملي ما يمر بذاكرتي: "من نافذة فصلة، ترى قطعة من السماء الرمادية دون غيرها، وقمة شجرة سوداء ذات فروع جافة. "مارتينيللي ما الذي أمليته؟" ويقوم "مارتينيللي" مضطربًا، محمر الوجه، ويقول: "من نافذة فصلة ترى قطعة من السماء الرمادية" وأقول: "ثم ماذا؟" فيجيب: "كفى.. لقد وصلت إلى هنا فقط" فأقول له: "وقمة شجرة سوداء ذات فروع جافة" ويكتب "مارتينيللي"، رغم أنفه، وأكمل الإملاء: "ومازال الشتاء ففي العام الماضي، في مثل هذه الأيام، كانت قد ظهرت براعم الأزهار على فروع الشجرة، أما في هذا العام فالربيع مازال بعيدًا، وأقول: "مارتينيللي، هل كتبت؟" لقد كتب: "لقد زهرت براعيم الظهور، فالربيع ما زال بعيد" والمهم أنه كتب، فلنكمل الكتابة "فالربيع مازال بعيدًا" فاستطردت قائلًا: "نقطتين.. هل وضعتم نقطتين؟ فالربيع مازال بعيدًا، فلا شجرة مورقة، ولا نبات قد ظهرت وريقاته الأولى".

وقال "مارتينيللي" الذي رفع يده مستأذنًا في الخروج: "حضرة المدرس"، فسألته: هل انتهيت من الكتابة؟ فأجاب: لا، فقلت له: ستخرج عندما تكمل الكتابة، وحدجني بنظرة لم ينظرها إلي من قبل. وندمت لأنني وجدت نفسي– في

لحظةٍ واحدة– قد غدوت قاسيًا مثل مدرس عجوز لا أمل له، وأردت أن أستمر في الإملاء، ولكني كنت سأستمر في إملاء أشياءً سخيفة، فقلت: "كفى هكذا، ولنرَ الأخطاء" ووجدت نفسي مرورًا– لأنهم أخطئوا كثيرًا– فسأعطيهم درجات سيئة. وأترك في الدرج القلم الأحمر الذي يُستخدم في تصحيح الأخطاء الخفيفة، واستعمل القلم الأزرق وحده، والأطفال ينظرون مندهشين بعيون واسعة، مدرس طيب هكذا!

ويبكي الآن مانيلي، لقد أعطيته أربع درجات، كذلك يبكي جورداني، لقد أخذ أيضًا أربعًا، وأخذت الدموع من تلك الأعين التي كانت تضحك تتساقط في صمت، وتنتشر على غلاف الكراس الأحمر، وتأخذ لونه. وألاحظ أن مارتينيللي لم يعد، وأعطي أربعات وخمسات أخرى، وأبكي عيونًا كثيرة أخرى كانت تضحك من قبل، وأرسل في البحث عن مارتينيللي فلا يجدونه.

– والآن عندما يرجع سأريه، أعطوني كراسته.

وأعطيته على تلك الإملاء الناقصة ثلاث درجات أكتبها بخط كبير يملأ الصفحة.

ومن المُستحسن في بعض الأحيان وضع المدرسين خلف السبورة عقابًا لهم، وأخرج لكي أبحث عن مارتينيللي، وأسأل الفراش، فيقول أنه لم يره. ولكن الفراش– كما هو معروف– ينام دائمًا، ولأول مرة أقول له– أنا الذي لم يسبق له أن أنب فراشًا من قبل– كلمات تجعله يقفز من مكانه. وأنزل على السلم، وأسأل البواب.

إن الباب يظل مغلقًا في أثناء الدروس، وإذن فلم يستطع مارتينيللي الخروج. وأعود إلى أعلى، وأبحث من جديد، وأقابل المديرة وأقول لها إن تلميذًا قد

اختفى. والمديرات كثيرًا ما يقاسين مرض البحث والتحقيق، فتدخل الفصل لمعاينة الحادث، وتنادي الفراش والبواب، وتستنتج أن مارتينيللي لا يمكن أن يكون قد خرج. أما الأستاذ "بالياني" ذو الكوفية التي تصل إلى عينيه، فإنه يشير للتلاميذ بأن يتظاهروا أنهم لم يروه، ولكنه يضم أطراف أصابعه ويهز رأسه، ويسأل: "ماذا حدث؟".

وتتعقد المسألة.. وبعد قليل ستعرف كل المدرسة ذلك الخبر، وسيطل المعلمون من الأبواب، وسيخطون بعض الخطوات في الممر.. بعض الخطوات البسيطة في الممر، ولكنهم لا يذهبون بعيدًا خوفًا من المديرة، وسينتهز الأطفال تلك الفرصة لتصويب سهامهم والقيام بحرب بمساطر الرسم. والذنب ذنبي بطبيعة الحال؛ لأني سمحت لمارتينيللي بالخروج، والمديرة.. مديرة.. نعم، ولكنها في أعماقها سيدة، وتضطرب كما لو كانت في البيت وفقدت أحد أحفادها الذي لا يمكن العثور عليه. إن الأولاد وحدهم هم الهادئون، وعاد "جورداني"– بعد أن اختفت دموعه– إلى الضحك، وأقول له: "هل تعرف أين ذهب مارتينيللي؟" ويجيب: "إنه بالفناء يا حضرة المدرس". وأنزل على السلم أنا والمديرة، وبطبيعة الحال ستتأخر هي عني كثيرًا. فقد وصلت إلى الفناء، وأنظر حولي، فأرى مارتينيللي وهو ثابت ينظر إلى شيءٍ ما، وأقترب منه وهو مازال ينظر إلى ذلك الشيء، وقد أخذ يداعب برقة وحنان نباتًا في أصيص زرع، وقد نبتت به وريقاته الخضراء، وقال لي: "إنك كنت تقول أن الربيع لم يأتِ بعد يا حضرة المدرس". وتصل الآن المديرة، وسوف يكون من الصعب كثيرًا شرح الأمر لها.

– الذنب ذنبي يا سيدتي.

وأحدثها عن الإملاء وعن النوافذ الرمادية، والشجرة الجافة، وأخذ مارتينيللي وأضعه بنفسي في الفصل، وأعود قرير العين إلى الفصل، وقلبي مملوء

بالندم على تلك الثلاثات والأربعات، وأقول:

– "مارتينيللي".. هل كنت تعرف من قبل وجود تلك النباتات في الفناء؟

– نعرفها كلنا يا حضرة المدرس، وقد لاحظناها هذا الصباح، قبل الدخول في الفصل، وكنا ننتظر الآن أيضًا ظهور الأوراق على الشجرة، ونحن نراهن على عشرة من أسنان الريش لمن يرى ظهور أول ورقة. إذن فإنهم كانوا من أجل ذلك ينظرون من النافذة، وكانوا ينتظرون الربيع الذي سيجيء إلى فناء المدرسة وسيصل إلى الأشجار، ذلك الربيع الذي قد وصل، فلم ألاحظه لا أنا ولا الأستاذ "بالياني"، ولا المديرة التي أغلقت عليها غرفتها وجلست بجانب المدفأة، ولا كذلك الفراش النائم، ولا حضرة السكرتير المنهمك في كتابة الـ "ج" للدبلومات بالخط الأحمر، ويسأل الأستاذ "بالياني"، وقد رجع ليطل من الباب: "حسنًا.. كيف انتهى الأمر؟"

– لقد جاء.

– من هو؟

– الربيع طبعًا.

مسكين ذلك الأستاذ "بالياني"، لقد فر وهو يرتعد ويقول: "آه من هؤلاء المدرسين الشبان".

وأخذنا كلنا– لأنني قد عدت تلميذًا وأخجل من أن أكون ذلك المدرس الذي كان قاسيًا منذ نصف ساعة– نطل جميعًا من النافذة لننظر إلى الشجرة، ولنعرف من الذي سيفوز بأسنان الريش العشر.

أما في الفناء، فتقف المديرة أمام الشجرة، آه لقد لاحظت هي أيضًا هذه الوريقات، وأخذت تداعبها–كما فعل مارتينيللي– برفق وحنان، وهي تخشى من

أن تذبلها، وحضرتها مديرة كبيرة وسمينة، ولابد لها من تلميذ من السنة الرابعة ليفهمها معنى الربيع.

آه لقد رأيت أول ورقة من أوراق الشجرة، تختفي بين جذعها وأحد فروعها وكان من الصعب رؤيتها، إن مارتينيللي لم يرها بعد. وإذا قلت أنني رأيتها فإن الأسنان العشرة ستكون لي، ولكني ألتزم الصمت، فإني لا أستحقها وستكون هذه سرقة.

الفصل التاسع

رائحة العجة

جاء التلاميذ اليوم دون حقائب، إنه يوم الرحلة المدرسية للتنزه. وتوصي والدة "ليوناردي" المدرس قائلة:

- سيدي المدرس، لا تجعل "ليوناردي" يجري.. إنه نحيل جدًا.. قل له ألا يخلع المعطف، وألا يقف في الشمس، وألا يشرب من النافورة، وألا يمكث أيضًا في الظل.

مسكين "ليوناردي"، أين يمكث إذن؟

قلت لها:

- اهدئي يا سيدتي، فإني أفكر في أمره.

إن أم "ليوناردي" سيدة نحيفة شاحبة اللون وصغيرة، وهي تميل إلى ناحية تحت ثقل حقيبة كبيرة- من التيل- قد انتفخت بالكرنب، والخرشوف، والبطاطس، وقد تدلت منها أطراف بعض الخضراوات التي تعد منها "السلطة"، ولها سبعة أولاد، و"ليوناردي" هو الأخير، وتقول: "إنه رقيق جدًا.. وليس مثل غيره من الأطفال، وقد ألبسته معطفًا من الصوف السميك".

فقلت لها: "اهدئي يا سيدتي، فإني أفكر فيه."

وفي أثناء ذلك، أشرت بعيني للولد الصغير، كأني أريد أن أقول له: "لا

تخف.. سوف تجري مع الآخرين، وسوف تخلع المعطف، وسوف تمكث في الشمس والظل حيثما تشاء".

الويل لمن يُولي اهتمامًا إلى الأمهات.. فإن جميع الأطفال رقاق، حتى هؤلاء الأولاد الطوال والكبار الذين يقرب صوتهم من صوت الرجال، وأنه لمن المخجل أن نجعلهم يذهبون بالسراويل القصيرة إلى المدرسة، ويوجد في كل فصل أربعة أو خمسة منهم قد نبت لبعضهم شعر، مقدمة لظهور شواربهم، ويخجل المدرس قليلاً من هؤلاء التلاميذ الكبار الذين يزيدون عليه طولًا، ويجمعهم في الفصل في المقاعد الأخيرة، وفي الرحلة يضعهم في المؤخرة..

أنهم يمشون منخفضي الرءوس، خجلين؛ لأنهم مازالوا يتعلمون بالمدارس الابتدائية، كما يخجلون من جلوسهم مع أطفال عديدين أصغر منهم بكثير.

أنهم لا يتعلمون شيئًا، وكما أعادوا السنة الثانية، والثالثة، والرابعة، كذلك سيعيدون السنة الخامسة، حتى أنه عندما يقرب الشعر النابت من أن يكون شاربًا حقيقيًا، سيجدون مدرسًا ينقلهم إلى فرقة أعلى، لا لأنهم يستحقون ذلك، ولكن لأن الشوارب لا تقبل في المدارس الابتدائية.

وفي الرحلة، نجد الكبار في المؤخرة، والصغار في المقدمة، إنهم منظمون مثل درجات السلم، الأصوات الرفيعة للمتقدمين، والأصوات الغليظة للمتأخرين. ويتجول المدرس من المقدمة إلى المؤخرة كأنه "مكوك"

وقد قلت للأولاد في بدء الرحلة:

– إلى الأمام، تقدموا وضموا الصفوف.. ممنوع التكلم في الطريق، وأنت يا مارتينيللي، لا تهرج.. انتباه، الآن يلزم عبور الشارع.

إن الرحلة مع هؤلاء تعب شديد للمدرس، إن أولئك الذين في المقدمة

يسيرون دون أن ينظروا إلى أين يذهبون، ودون أن يهتموا بالترام أو بالعربات أو بالجدران ما دام يوجد إلى جانبهم المدرس الذي يفكر في كل شيء. هو يأمر بالوقوف، ويأخذ بذراع الدليل ويوجهه يمنة ويسرة، أو يوقفه، ويشير باليد الثانية للمتأخرين بالوقوف، ولكن المتأخرون لا يلمحون شيئًا من هذه الإشارات، فيصطدمون بالمتقدمين الذين يحتجون ويركلونهم بأرجلهم؛ لأنهم يشعرون أن الآخرين يضغطون عليهم، عندئذٍ يقول المدرس:

– هيا، تستطيعون العبور الآن.

وعندئذٍ يسيرون كخطاطيف كثيرة، وفي لحظة يصلون إلى الرصيف المقابل، ولكي يعيدهم المدرس إلى صفوفهم بترتيب الطول، يتألم من شدة الصراخ ويعرق، ويؤثر الجمهور– الذي ينظر ويضحك– في أعصابه، كما أن النساء المتوسطات الحال العائدات من السوق ومعهن الحقائب المنتفخة يقفن، وتقول واحدة منهن: "إنهم تلاميذ مدرسة دانتي اليجيري".

وتقول أخرى: "انظري إلى المدرس.. ما أصغر سنه، أنه يبدو هو الآخر صبيًا. كيف يمكن أن يحترمه الأطفال؟!"

ويخرج التجار من الحوانيت، ويربتون على رءوس من يمرون بجانبهم ويجيبني الخباز قائلًا: "أسعدت صباحًا.. يا سيدي المدرس".

وتفوح من الدكان رائحة (البتسا)[1] الساخنة.. هكذا يسمونها في روما، وهي مسحوق من الخبز، والملح، والزيت.. وقد اجتذبت الرائحة الأطفال، فدخل الجميع حانوت ذلك الخباز الماكر الذي لم يخرج من دكانه لشيء إلا ليقول:

---

(١) فطيرة مقلية أو مشوية في الفرن مصنوعة من الدقيق والزيت والطماطم والثوم والملح وتعتبر اكلة شعبية في إيطاليا.

– أسعدت صباحًا يا سيدي المدرس.

ويدخل الجميع، ما عدا مارتينيللي.

وقلت لمارتينيللي: "ألا تأكل البتسا؟"

فقال لي: "عنها لا تعجبني.."

مسكين مارتينيللي، إنها تعجبه ولكن ليس لديه الأربع المليمات.

فقلت لمارتينيللي: اشتر لي منها بثماني مليمات.

إن المدرس هو الآخر يأكل البتسا، ولكنه لا يأكلها عبر الطريق.. بل عندما يصل الجميع إلى الفوروم الروماني[1]،وهو مقصد الرحلة وظلت "البتسا" ملفوفة في ورقة، يمسكها مارتينيللي متحفظًا عليها، وهو يفخر بحمله "بتسا" المدرس، وأنه لمن الفخر أن يمسكها بعيدًا عن الزملاء، حتى يهرسوها له أو يسقطوها من يده على الأرض.

– إلى الأمام يا أطفال، كدنا نصل علينا أن نركض بسرعة، لنتحاشى الترام الذي يقرع الجرس، وها نحن أولاء أمام الكولوسيوم[2]، الذي يُرى منه قوس الإمبراطور تيتوس[3].

هنا يبدأ الطريق المقدس، وتلك هي الحجارة التي رصف بها ذلك الطريق، وقد تآكلت بمرور الزمن وأقدام أناس كثيرين لا عدد لهم ولا حصر.

إن الأطفال يعرفون كل شيء من قبل عن هذا الشارع، وهم يسيرون فيه

---

(١) من آثار روما القديمة.

(٢) من آثار روما القديمة وهو بناء قدم بتشييده الإمبراطور فيسباسيانوس.

(٣) الإمبراطور تيتوس: إمبراطور روماني مشهور توفي سنة ٨١ بعد الميلاد، وهو ابن الإمبراطور فيسباسيانوس.

على أطراف أصابعهم، وينحنون حتى يمسوا الحجارة.

– سيدي المدرس، هل هذه العلامة تركها لنا روماني قديم؟

إنها شرخ في حجر مستحيل أن يكون الرومانيون القدماء الصارمون المنظمون، قد تسلوا بأحداث الأشياء. ولكن ربما يكون خداعًا للأولاد، إذا قيل لهم إن تلك العلامة لم يتركها لنا روماني قديم، فأجيب: بكل تأكيد.

ويقف الجميع، ويلمسون ذلك الشرخ واحدًا واحدًا، وهم دهشون مفتونون، وقد تملكهم الإعجاب، ويلتقطون كل ما يجدونه من الحصى، ويتجمعون وهم يحدقون بعيونهم في ذلك الولد الذي التقط حصاة كبيرة وبيضاء لامعة.

وأرى في تلك الأعين أسئلة عديدة حول تلك الحصاة، ومنها:

– هل كنت عمودًا؟ أم معبدًا؟ وهل كان قصر الإمبراطور كله ناصع البياض؟ ثم يضيقون عيونهم ليروا بريق تلك الحصاة بطريقة أكثر وضوحًا.

– سيدي المدرس، هل يوجد ذهب في داخلها؟

نحن وحدنا في "الفوروم الروماني" إذ لايزال السائحون نائمين، وسيأتون عند الظهيرة وهم خليط بين آنسات يلبسن النظارات، وشباب ذوي وجوه حمراء وشعر أشقر، ورجال ضخام الأجسام صلع الرؤوس يتسلقون فوق الأطلال، مثل متسلقي جبال الألب، وسيقول لهم الدليل ما يشاء.

السكون شامل، ولا يقطعه المدرس بشرحه غير المفيد، ولا هؤلاء الأطفال الذين يحترمون كل شيء في ذلك المكان ابتداءً من الزهرة الصغيرة إلى أعمدة الكنيسة الرئيسة الرومانية القديمة، وإلى قوس الإمبراطور سيتيميوس سيفيروس[١]

---

(١) إمبراطور روماني: ١٩٣– ٢١١م.

الذي اسود بفعل الزمن، بينما بقي قوس الإمبراطور "تيتوس" أبيض لسبب من الأسباب.

والآن لنصعد فوق تل البلاتينو(١) عبر ذلك الممر القديم الهائل التابع لقصور الإمبراطور، فهو ممر منحدر ذو سقف عظيم الارتفاع، ينعكس فيه صدى الخطوات والأصوات هائلًا.. ثلاثون تلميذًا من تلاميذ السنة الخامسة الابتدائية، يبدون كأنهم مائة من الجنود، لا نقابل أحدًا، ولكن الأطفال عند كل منعطف يتوقفون هم ومدرسهم، لرؤية صور جنود اللجيوناريوس(٢) العمالقة.

ويتساقط الماء من المنعطف قليلًا قليلًا، على هيئة قطرات كبيرة تبلل الجدران، وتفوح منه رائحة ملح البارود العفنة، كأنها خارجة من باطن الأرض.

ولكن ها هي ذي الشمس تظهر، ويتوقف الصدى عن التردد، وتعود فوق سطح تلال "البلاتينو" خطوات ثلاثين ولدًا، التي كانت بمثابة خطوات مائة من الجنود لتكون خطوات ثلاثين تلميذًا لا أكثر، وهي خطوات ذات وقعٍ خفيف.

ويشرف الناظر من السطح على الفوروم ومدينة روما.

ولكن الأطفال ليسوا مثلنا، لا يقفون ليتطلعوا من أعلى إلى تلك الأماكن التي مروا بها من لحظة مضت، ولا يتعمقون في التفكير لدرجة تجعلهم يتمتعون بها أو برؤية الأشياء الصغيرة، تلك الأشياء التي كانت منذ لحظة مضت تبدو لهم كبيرة، عندما رأوها عن قرب.

إن هذا التفكير العميق، وهذه الحاجة للتذكر، للرؤية مرة ثانية، هي من خصائص الرجال دون سواهم، ولهذا كان المدرس وحده هو الذي يطل من

---

(١) تل من تلال رومة السبعة.

(٢) اسم الشهرة لعساكر الإمبراطورية الرومانية القديمة.

السطح لمدة لحظة وجيزة، ثم يعود تلميذًا ضمن التلاميذ، يجري معهم على السطح، وفي طرقات يحف بها من الجانبين شجيرات الريحان المزدهرة، فإن تل البلاتينو قديم على غرار الفوروم، ولكنه ليس إلا حديقة لا يؤثر فيها الزمان بها أعواد الورد وزهور الكريزانتيم، وأشجار البرتقال المزهرة تليها أشجار السرو الخضراء.

أما الفراشات التي تطير بها، فهي فراشات حديثة يستطيع الإنسان أن يلاحقها، وأن يأخذها بين أصبعين، لقد دهش الأطفال بعد أن طارت الفراشة من أيديهم وتركت على أطراف أصابعهم اللون الذهبي، والبنفسجي، والفضي، والسماوي. لقد هربت الفراشة، ولكنها تركت ألوانها.. والآن من ذا الذي يعرف أين تختفي خجلًا؟!

حانت ساعة الإفطار..

"لنجلس هنا على الحشائش"

والكل حول المدرس يتنافسون في الجلوس على مقربة منه، وانتصر كل من مارتينيللي، وليوناردي؛ إذ جلس أولهما عن يمينه، وثانيهما عن يساره.

ويعرق ليوناردي ويتضجر وليس الذنب ذنبه، بل ذنب أمه التي ألبسته في شهر مايو ذلك الصديري السميك، مع أن الجميع قد خلعوه.

– سيدي المدرس، هل أستطيع أن أخلع المعطف؟

– اخلعه، والآن يا أطفال تستطيعون أن تبدأوا الأكل.

ويسمع همس مفرح، وتنبسط أوراق الجرائد، وورق أصفر من ذلك الذي يستعمله الخبازون على حشيش المرج، وسرعان ما تفوح فجأةً رائحة العجة.

ولست أعتقد أنه يوجد تلميذ في العالم، لا تعد له أمه خبزًا وعجة للإفطار.

فلدى كل ولد من الأولاد الأغنياء برتقالة، أو يوسفية، أو تفاحة لامعة، مسحت بعناية بطرف المريلة، ولكن الأصناف الرئيسة للإفطار هي دائمًا خبز وعجة. وتفوح رائحة في الهواء، إنها رائحة السلة، ورغم أن الأطفال لم يعودوا يستعملونها في الرحلات المدرسية الآن.

هل تتذكرون؟ كنا نحن نستعملها فيما مضى، عندما كنا أطفالًا وكانت الدراسة تنتهي ظهرًا، لقد كانت سلة صفراء مصنوعة من القش، وعليها بطاقة بها اسم التلميذ ولقبه، ولكن ماذا كان يوجد بداخلها؟ لقد كانت تملؤها لنا أمهتنا في الصباح ونحن لانزال نائمين، وقد كان ذلك على الدوام، مفاجأةً لنا، وكنا نفتحها على مهلٍ بقلب منقبض، ونحن نحاول شم رائحتها، ولكنها كانت تحتوي دائمًا على الأشياء نفسها، الأشياء نفسها التي تستعمل في ذلك الحين، وفي وقتنا هذا، خبز وعجة، برتقالة أو يوسفية، أو تفاحة حمراء لامعة شديدة اللمعان، وإلى جانب هذا، شوكة صغيرة، وفوطة صغيرة، كنا نستعملها في كل شيء ما عدا مسح الفم.

يغلق المدرس عينيه كأنه نائم، ويبدو له أنه مازال طفلًا بين الأطفال، يرى مدرسه مرة ثانية، شابًا كما هو الآن والآن لا شك قد أصبح شعره رمادي اللون، وبعد عشرين سنة سيكون لي في ذلك الوقت شعر رمادي اللون، وسوف توجد رائحة العجة بذاتها.

إن مارتينيللي لا يأكل، ولكن المدرس كما تذكرون قد اشترى "بتسا" بثماني مليمات ليأكلها.

– مارتينيللي، ألا ترغب في قطعة صغيرة منها؟

وما دخله في "عجة" الزملاء، أو التفاحة الحمراء، أو البرتقالة التي مازالت

ملفوفة في تلك الورقة الشفافة الخفيفة، وقد رُسمت فوقها صورة عربة صقلية؟

إنه يأكل "البتسا" التي أهداها له المدرس، وإنه لشرف كبير أن يأخذ هو وحده قطعة من المدرس، ومن ثم فإن التلاميذ الباقين يودون لو أعطوه ما لديهم، كي يحصلوا هم أيضًا على قطعة مثلها.

ولكن "كريبا" و"ليوناردي" و"باتيستوني" و"مانيلي" لم يبدأوا الأكل بعد، يجب عليهم أولًا، أن يأخذوا زيت كبد الحوت، والمدرس يعمل كأنه أم لهم، يجب عليه أيضًا أن يعطي تلاميذه زيت كبد الحوت، لقد أحضره المدرس في حقيبة صغيرة، إنه لا يستطيع إعطاءه لجميع التلاميذ، لأنه يعطي للأطفال الفقراء المحتاجين للعناية دون غيرهم انتهى الإفطار.

ثم يقول المدرس: هيا ننزل على السلالم.. رويدًا، رويدًا يا أولاد، لننزل حيث المرج المنحدر الذي يقودنا إلى قوس تيتوس، وتقوم منافسة في السباق لمن يصل أولاً ليلمس القوس بيده.

كان "مارتينيللي" في المقدمة و"سبادوني" على بعد خطوتين منه وربما يسبقه، هذان هما صاحبا زيت كبد الحوت.

ويخاطب المدرس نفسه قائلًا: إني أشعر حرب تدور رحاها داخل قلبي، وأجد نفسي في غاية التردد والاضطراب، إنني مضطر لأن أنزل في وقار مثل المدرس المسن، أو لا فإنه لايزال أمامي وقت طويل لكي أصبح مدرسًا مسنًا، إنه لسباق جميل، فإن "مارتينيللي" و"سبادوني" قد انهزما، وكنت أول من لمس قوس تيتوس.

إنه لا يجب على المدرس أن يعرف جميع الأفعال الشاذة، وأن يحفظ التواريخ فحسب، ولكن يجب عليه أيضًا أن يكون أسرع في الجري من تلاميذه.

مازلنا في الطريق المقدس، وشرخ الحجر لم يره أحد بعد، وها نحن أولاء من جديد عبر الطريق بين الترام والسيارات.

– والآن سكوت.. اصطفوا في نظام حسب الطول.

وليس هذا بالشيء اليسير في هذه الدنيا، فإن قصار القامة يقفون على أطراف أصابعهم لكي يظهروا أنهم أكثر طولًا، وأما طوال القامة المعيدون فإنهم يثنون باستمرار ركبهم؛ لأنهم يخجلون من أن يقفوا دائمًا في المؤخرة، ومن ثم فلابد من أخذهم من أذرعهم واحدًا تلو الآخر، ووضعهم حيث يجب أن يكونوا.

ينال "سبادوني" هذه المرة شرف حمل الحقيبة الصغيرة التي بها زجاجات كبد الحوت، ففي كل مرة ينال هذا الشرف أحد التلاميذ، وكانت المرة الأولى من نصيب "ماريني" الذي يشعر بالضيق الآن، وينظر إلي بوحشية، لأنني انتزعت منه هذا الشرف.

أن العودة دائمًا أقل تعبًا من الذهاب– بالنسبة للمدرس– الأطفال متعبون، ويتكلمون قليلًا، ومحلات الخبازين لا تفوح منها رائحة بعد، وهم يسيرون ببطء.

– بسرعة يا أطفال، الساعة الآن الثانية عشر تقريبًا.

ولابدَّ من الوصول خلال تلك الساعة، وقد بقيت عشرون دقيقة. وقفت بعض الجدات أمام باب المدرسة، ينتظرن ويتحدثن فيما بينهن، إن الجدات دائمًا يصلن قبل غيرهن. وقد نفذ صبرهن، فيتلهفن على رؤية الأطفال، ربما كان ذلك لأنهن يدركن أنه خلال قليل من الوقت قد لا يرينهم أبدًا، ومن أجل هذا فهن لا يرغبن في أن يضيعن دقيقةً واحدة، ثم تصل الأمهات اللاتي لايزال لديهن متسع من الوقت، وأخيرًا تأتي الأخوات والأخوة الكبار.

وها نحن أولاء قد كدنا نصل، ويوجد أمام باب المدرسة الكبير جمع غفير،

وتصل معنا بقية الفصول من جميع الجهات، وهي عائدة– هي الأخرى– من النزهة.

ويأمر المدرس– قبل الوصول بمائة متر– بالوقوف، ويضع بعض أربطة العنق في مكانها.

ويقول: ارفع هذا الشعر عن جبينك، وأنت يا ليوناردي، جفف العرق والبس المعطف من جديد، وأمام الجميع سيروا رافعين رءوسكم وأيضًا لو شعرتم بالتعب، لا تجعلوهم يلاحظون ذلك.

كلمات ساحرة.. وتعود الأعين لتشع بريقًا، وتهتز الأذرع، وتسرع السيقان في مشية عسكرية.

إلى الأمام سر.

ها هم أولاء يسيرون.. ليسوا فصلًا، وإنما فرقة بأكملها.

قف.

وإذا بثلاثين قدمًا تضرب الطريق الممهد بقوة لحظةً واحدة، وعندئذٍ ترتفع عبر الطريق سحابة من تراب "الفوروم الروماني" وتل "البلاتينو" لم يبق إلا عشرون مترًا، وتسرع الأمهات، والجدات، والأخوات، إلى الأطفال ليروا ما إذا كانوا يشعرون بالحر، أو يتصبب منهم العرق، أو يسعلون إذا كانوا شربوا من النافورة.

ها هي ذي أم "ليوناردي" لا تحمل حقيبة حاجيات المنزل، ولا تميل إلى أحد الجانبين..

– إلى اللقاء يا سيدي المدرس.

– سيدي المدرس، طاب يومك.

– سيدي المدرس، غذاء طيب.

– شكرًا، يا سيدي المدرس.

والآن الجميع إلى المنزل ، وأنا أيضًا متعب.

ما هذا !

إن أم ليوناردي توقفني، وتسألني:

– سيدي المدرس، هل خلع ابني المعطف؟ هل شرب من النافورة؟ هل جرى؟

فأجيب: "أبدًا يا سيدتي، كان ساكنًا دائمًا لم يجلس لا في الشمس، ولا في الظل، كان يهرب من النافورات، ولم يخلع المعطف قط، أو بالأحرى قد استعرت له معطفًا آخر من أحد رفاقه، وبقي بمعطفين في أثناء فترة النزهة.

ثم أهرب لأني متعب وجائع ثم في النهاية؛ لأن لي أما أنا أيضًا تنتظرني في المنزل.

الفصل العاشر

الآنسة تشينتشي

أطرق باب فصل أولى ثان.

– هل تسمحين؟

يجب أن أسلم للآنسة تشينتشي نقود البطاقة الشخصية لجمعية دانتي اليجيري.

إن الآنسة تشينتشي تعمل كل شيء بنفسها، وهي تجمع نقود البطاقات الشخصية، وتجمع نقود صندوق المدرسة، وتوزع أسنان الريش الجديدة، والكراريس، وورق الرسم، وأقلام الرصاص الحمراء والزرقاء، ولو أردت أن تستخدم الصمغ، وقطعة من الدوبارة، ومبراة، وقطاع الورق، أو شريطاً مثلث[١] الألوان، فعليك أن تذهب إلى الآنسة تشينتشي.

الجميع يطرقون ذلك الباب؛ لأن المدرسين يشبهون الأطفال إلى حد ما ولما كان الأستاذ "باليايي" قد حصل على قلم أحمر وأزرق، فقد انتشر الخبر، وكل واحد يرغب في قلم أحمر وأزرق، ليتمتع ببريه، ووضع الدرجات بقلم جديد.

والمدرسون مثل الأطفال، يفرحون هكذا من الأشياء الصغيرة، وتكفي ثلاث أسنان ريش مطلاة باللون الذهبي لكي يسعد "ستوروني" مدرس السنة الخامسة

---

(١) الثلاثة الألوان الموجودة في العلم الإيطالي وهي الأخضر والأبيض والأحمر.

المسن، الطويل الضخم، ذو الشعر الأبيض.

كما يكفي شريط صغير مثلث الألوان، لكي تشع البهجة والسرور في عيني الأستاذ "بالياني"، ذلك الشريط الذي يطلبه من الآنسة تشينتشي معتذرًا بأنه سيعطيه لتلميذ، لكنه يستحوذ عليه.

وقد أدركت أنه كان يحمل الشريط إلى المنزل.

ومن يدري كم من الأشرطة مثلثة الألوان قد جمعها، بعد سنين عديدة قضاها في التعليم.

– هل تسمحين؟

ها هو ذا باب الفصل أولى ثان قد انفتح، ولا يعرف من فتحه، يحدث كل ذلك بغموض وصمت في هذا الفصل، وأسير على أطراف الأصابع، وكأنني أدخل كنيسة صغيرة أرضيتها لامعة لدرجة أني أخاف أن أوسخها، وأقترب من كرسي الآنسة تشينتشي.

إنها آنسة دون عمر، صغيرة، نحيلة، وتلبس ملابس سوداء.

والآن فقط، وبعد سنين عديدة لم أرها خلالها، أتذكر أنها كانت تحمل النظارات.

ولعل هذه النظارات لم تستدع انتباه أي إنسان، فالنظارات حالة طبيعية بالنسبة لها، وربما ولدت بالنظارات. ومن الأكمام الضيقة التي ربطت حول معصمها بشريط صغير من الحرير، تخرج يدان صغيرتان كيدي طفلة، ولكنهما كثيرتا العظم والتجاعيد، هما يدان خفيفتان حيثما وضعتا، لا تتركان أثرًا، يدان دائمًا في حركة صامتة، وهي تارةً تنزع ذرة من التراب من المفرش الذي يغطي مكتب المدرس، وتارةً تبحث بهدوء في درج مملوء بكل تلك الأشياء الصغيرة التي

تُفرح الأستاذ باليابي، وأحيانًا بإيماءة تقضي على همس كان قد انبعث هناك في المؤخرة من المقاعد الأخيرة.

هاتان اليدان تسكتان أربعين طفلًا من السنة الأولى، كلهم دون أسنان. الجزء الأكبر منهم حليق الشعر، ولكن بعضهم شعره مرسل حتى الأكتاف مثل البنات، وفي وسط الشعر "فيونكة" كبيرة صنعتها لهم أمهاتهم، تبدو كأنها كانولو[(١)] فارغ، ولكن دون قشدة بداخله، فتنبعث من الفصل، كما في جميع فصول السنة الأولى رائحة خفيفة كرائحة حظيرة الدواجن.

لا أحد يتكلم.. الجميع بالأذرع مربعة على الصدور، وبالأعين مصوبة تجاه المدرسة، ولا تتجه أبداً نحو اليمين ولا نحو اليسار، كأنهم يتنافسون في أن يبقوا صامتين، والجميع في ثبات وانتباه، وذلك أقرب إلى المبالغة منه إلى الحقيقة. أمام كل واحد كراسة مكتوب بها الجملة نفسها: "إني أحب الوطن حبًا كبيرًا، والوالدين، والسيدة المديرة، و...".

كان يجب عليهم أن يكتبوا: "والمدرسة" ولكني قد دخلت، والأقلام الآن بقيت جميعها في المجرى المعد لها بالمقعد، وعلى المحبرة توضع قطعة صغيرة من الصوف لكي لا يتسرب تراب إلى الحبر، وبقرب المحبرة منشفة الحبر، وهي مكونة من قطع صغيرة عديدة من القماش ذات ألوان مختلفة ولا توجد بقعة واحدة على الكراسات.

آه.. نعم، توجد واحدة صغيرة جدًا على كراسة "ماركوليني"، وهو طفل تنقصه كل الأسنان إلا واحدة، وهي مع ذلك، تهتز وكأنها مربوطة ربطة بسيطة بخيط في اللثة، والآنسة تسينتشي قد أدركت ذلك.

---

(١) نوع من الحلوى الإيطالية.

–كيف حدث ذلك؟

– لا أعرف.

وبإشارة من يدها، وإذا "بماركوليني" محني الرأس يقترب من مكتب المدرسة ومعه الكراس.

كان يسود صمت من قبل، ولكن الآن يسود صمت مضاعف.

أنا نفسي كان يتملكني الخوف من أن أتحرك، ونظرت إلى أصابعي، لقد كانت أظافري متسخة قليلًا، وقبضت يدي كي لا تراها الآنسة، وقد عاد إلي خوف التلميذ القديم، لقد تملكني الخوف مثل ماركوليني الذي يرتعد، واضعًا الكراسة فوق مكتب المدرسة.

هل أكون مخطئًا إذا قلت إني أسمع قلب "ماركوليني" يدق في ذلك الصمت الرهيب؟

السن الصغيرة الأخيرة "لماركوليني" تتأرجح.

الآنسة تشينتشي لا تتكلم، ولا تقول شيئًا، غير أنها تنظر إلى "ماركوليني"، ثم إلى كل الفصل، وتلك اللمحة كأنها تقول: "بقعة.. بقعة على كراسة تلميذ في فصل أولى ثان!. منذ لحظة واحدة كان فصل أولى ثان، الفصل النموذجي ولكنه حاليًا معاب".

تبحث أيادي الآنسة تشينتشي بهدوء في "الدرج" ها هو ذا مقشط، وممحاة الحبر، وعصا صغيرة من العظم، لكي تزيل كشط الورقة وتعيد إليها بريقها، ويعود "ماركوليني" بالكراسة، والثلاث الأدوات إلى مكانه. "ماركوليني" الذي يبكي دون شهيق، بدموع كثيرة تتساقط في صمت على الخدود، وليست هناك حاجة لتلك الأدوات الثلاث؛ لأن دمعة كبيرة قد سقطت على البقعة الصغيرة وأزالتها.

دمعة "ماركوليني" مسحت العار الذي لصق بفصل أولى ثان، العيوب لاتزال تتكرر هي عيوب السنين الأولى التي تكفي دمعه واحدة لتمحوها.

"ماركوليني" لم يعد يبكي، وقد عادت إلى الفصل الابتسامة، وأنا أيضًا أشعر بالتحسن. سيبقى السر في داخل هذه الحوائط الأربع، والسيدة المديرة، والمدرسون الآخرون، والعالم كله لن يعرف أنه في فصل أولى ثان للآنسة تشينتشي قد سقطت بقعة على كراسة واحدة للتبييض.

يا آنسة تشينتشي، لماذا لا تتكلمين؟ لماذا التأنيب والمديح والابتسامات، تحدثينها باليد؟

وهل الأطفال يحبونك؟

آه.. نعم يحبونها، ويأتون إليها لكي يطلعوها على بعض الأشياء الصغيرة التي لا تهتم بها أية مدرسة أخرى.

وفي المقعد الأخير، ترتفع يد صغيرة، إنها يد "جولياني" الذي يرغب في أن يرى شيئًا.

يد المدرسة تشير إليه ليتقدم إلى الأمام، "جولياني" يتقدم بوقار، وله أصبع مربوط.

وبمجرد رؤية ذلك الإصبع المربوط، ترتفع همسة من الحسد والإعجاب التي تعجز المدرسة عن منعها،

وعندما وصل "جولياني" أمام مكتب المدرس، نزع الرباط ووضع اصبعه أمام عيني الآنسة تشينتشي،

إنه طرف الاصبع الوسطى الذي إذا نظرت إليه بعناية وفي الضوء، ترى علامة صغيرة مثل رأس دبوس.

فتقول المدرسة: "إنه حرق".

ويقول "جولياني" وهو ممتلئ بالفخر: "نعم إنه حرق".

ويقص كيف حدث حرق اصبعه.. يقص بصوت عال، ليسمع الجميع ما حدث له، فإن أخاه الأكبر الذي في السنة الخامسة في فصل المدرس "ستوروني" وجد عود ثقاب، وعند الخروج من المدرسة، أعطى ميعادًا لبعض زملائه لكي يذهبوا بعود الثقاب ليشعلوه في شارع صغير قريب، لا يمر فيه المدرسون أبدًا،

ودعي "جولياني"– ورغم أنه صغير– بوصفه أخًا لمالك عود الثقاب، وأضاف "جولياني" قائلًا: "بينما كل الفصل منصت إليه وصلنا هناك وأشعل أخي عود الثقاب الذي أرسل لهيبًا كبيرًا وجميلًا، وداخل اللهب كان يرى وجه شابة تلبس ملابس بيضاء، وقد رأيت ذات مرة "جنية" داخل لهب عود ثقاب أشعله والدي.

ويقول ماركوليني: "أنا أيضًا رأيت ذلك".

وصار كل تلميذ يقول: "أنا أيضًا.. أنا أيضًا".

يقول الجميع ذلك لكي لا يكونوا أقل أهمية، والجميع يرفعون أيديهم ويضربون أيديهم على صدورهم، لكي يؤكدوا أنهم فعلًا رأوا "جنيات" في داخل أعواد الثقاب.

" عندئذٍ يتابع "جولياني" الحديث مشيرًا إلى الأصبع المحروقة، وقد قربت يدي لألمس الجنية، ولكن الجنية اختفت واحترق اصبعي كله.. سيدتي المدرسة، هل أستطيع أن أريها للزملاء؟"

وبعد أن حصل على الإذن من المدرسة، دار "جولياني" حول المقاعد ليري الأصبع المحروقة لكل واحد، وهو يعطي بلطف تفصيلات لمن يسأله عن الأصبع،

ويسمح بلمس الجرح، وأخيرًا يعرض أصبعه علي، ويعيد القصة إلي مضيفًا أشياءً جديدة مستحيلة، ولكي أرضيه كنت أربت على كتفه، كأني أريد أن أوجه إليه تهنئتي.

ويضع "جولياني" من جديد الرباط، ويعود إلى مكانه مفتخرًا ومتباهيًا، فقد رأى أيضًا مدرس السنة الخامسة الحرق.

إنهم أطفال في السادسة من عمرهم، ولكن هناك أيضًا الأستاذ "بالياني" المتقدم في السن، يعرض على الزملاء القلم الأحمر والأزرق الجديد جدًا، والذي لم يستعمل بعد، وذلك ليميتهم غيرةً وحسداً.

الآنسة تشينتشي تعيش مع أختين أكبر منها سنًا، وتتكلم عنهما غالبًا، كأنهما طفلتان.

ويسمي بعضهن بعضًا بأسماء التدليل والتلطيف التي تشهد بنعومة تلك العوانس الثلاث، نعومة دفينة في قلوبهن، وقد أصبحت حزينة وسخيفة بمرور الزمان.

إن إحداهن مدرسة، والاثنتان الأخريان تبقيان في المنزل لتعدا الغذاء وأكلة المساء للأخت التي تشتغل وتعود إلى المنزل ظهرًا، متعبة إلى حد بعيد.. ذلك المنزل أراه جيدًا.

الشبابيك دائمًا مغلقة، ويدخل في غرفة "الصالون" القديمة من خصائص النافذة، شعاع من الشمس محمل بالتراب، كما يحدث في الكنائس المظلمة. والأرضية لامعة جدًا، مثل: أرضية فصل أولى ثان التي تنعكس عليها صورة "الكونصول"[١] والكنبة (ولايزال هذان الاسمان القديمان يطلقان على ذلك

(١) أثاث وعليه رخام، يستعمل في حجرة الصالون.

الأثاث) والكراسي الضخمة مغطاة بالأكسية[١] والشجرة وعلى "الكونصول" ساعة تدق، منذ سنوات بعيدة، دقاتها الرتيبة، وتدل على الوقت نفسه ، وناقوس كبير من الزجاج بداخله تمثال ليسوع وهو طفل، وهو مصنوع من الشمع، ومحاط بزهور من الباغ. وتمر العربات فيرن ذلك الناقوس الكبير الموجود بتلك الحجرة المظلمة دائمًا، الباردة كأنها حجرة في دير.

على الحوائط لوحات عديدة.. الكبيرة منها بها صورة رمادية اللون، باهتة، للوالدين عندما عقدا الخطوبة، وهما منحنيان كل منهما تجاه الآخر برأسيهما اللذين يتلامسان.

واللوحات الأخرى صغيرة تمثل مناظر عديدة ساذجة لأيام انقضت على شاطئ البحر أو في الريف، ولصيادين يطلقون الرصاص على الأرانب الجبلية– القريبة جدًا– وهي أرانب جبلية لا تهرب، ولكنها تعرض صدورها بشجاعة إلى البندقية.

– يا آنسة تشينتشي، هل تحبين المدرسة؟

ربما تجيب بالنفي، قائلة إنها متعبة، وأنها تتمنى ساعة التقاعد على المعاش، والاستقرار في قرية من القرى مع الأختين.

ولكن لماذا تشتغلين كثيرًا، ولماذا تأخذين على عاتقك جميع المهمات التي يرفضها بقية المدرسين؟ ولماذا تفكرين في المدرسة أكثر مما تفكر فيها المديرة؟

ولهذا فإن الآنسة تشينتشي تحبني، وتشغلني بالكلام عندما أسأل عنها.

إنني أنا الوحيد الذي أعترف بعملها، والآخرون بالعكس، يهزؤون منها ويقولون: "من ذا الذي يأمرها بعمل أشياء كثيرة؟" وهم يحضرون عندها في

---

(١) بياضات تستعمل في إيطاليا لتغطية الكراسي "والفوتيه".

لحظات الحاجة فقط.

- يا آنسة تشينتشي.. غدًا سيأتي المفتش، أنا لا أعرف ماذا أفعل لكي أزين فصلي؟ هل تسمحين بإعارتي بعض الزهريات؟

- يا آنسة تشينتشي، أليس عندك ولو بطريق الصدفة قليل من ذلك الورق الشفاف السماوي المجزأ؟

- يا آنسة تشينتشي، رجائي أن تعيريني لوحة صغيرة، فليس عندي شيء أضعه على الحوائط؟

والآنسة تشينتشي تعطي الجميع، لأنها تتمتع بالعمل لأجل راحة الآخرين، وترغب فقط في أن يعترف الآخرون بهذا الجميل، وترغب في أن تعترف المديرة لها بهذا العمل.

- لا شك أن المديرة مشغولة بالاعتراف بعمل صاحباتها العزيزات عليها فقط، وهن اللاتي يبتسمن وينحنين لها، ولا تقدر مع هذا أن تعني بي؛ إذ إنني مدرسة فقيرة، وفي هذا العام سأتقاعد على المعاش.

- هل تتقاعدين هذا العام؟

- نعم، هذه هي الشهور الأخيرة لي بالمدرسة، في شهر أكتوبر لن أعود أبدًا، إنني مسرورة أخيرًا أستطيع أن أتقاعد على المعاش ومن يفكر في المدرسة بعد.. الأولاد؟ ولكن حتى أيضًا الأولاد بعد سنين عديدة يملون المدرسة.

مسكينة الآنسة تشينتشي، كادت تقول كذبة كبيرة.

ولكنها تحس بها هي أيضًا وتخفض عينيها مسرورة من ترك المدرسة؟

إنها هي بالذات التي تعود إلى المدرسة بعد الظهر عندما لا يوجد بها أحد،

وتكون الفصول خاوية، ومظلمة ورطبة مثل غرفة صالون بيتها القديم.

ماذا تعمل الآنسة تشينتشي في الفصل الخاوي؟

تصحح الواجبات، تلقي الأوراق الجافة بعيدًا، تنفض كتب المكتبة الصغيرة، ثم تعود لتنفض عنها الغبار من جديد، وتقضي وقتها في عمل كثير من الأشياء الصغيرة الأخرى عديمة الجدوى، لكي تمكث أكثر مدة ممكنة في ذلك الفصل الذي هو فصلها منذ سنين عديدة، ترى كم تكون هذه السنين؟ أنها لا تتذكرها بعد، وعندما تفكر في إنه في السنة القادمة ستأتي لذلك الفصل مدرسة أخرى، ترتعد وتتألم،

فتلك المقاعد تعرفها واحدًا واحدًا، وتذكر أسماء جميع الأطفال الذين اختلفوا إليها.

ويبدو لها إنه من المستحيل أن أية مدرسة أخرى غيرها، تستطيع فتح ذلك الدرج حيث قد وضعت خلال ثلاثين عامًا يدها وحدها، أو أن مدرسة أخرى تستطيع أن ترش بالماء تلك الزهور التي زرعتها، والتي أولتها عناية كبيرة، زهور لا تذبل أبدًا؛ لأنها تحضر لتراها حتى في أيام الصيف، وعندما تكون المدرسة خاوية مهجورة.. تسمع خطوات الآنسة تشينتشي وهي تحدث صوتًا في الممر.

وداعًا "ماركوليني"، وداعًا "جولياني".. الآنسة تشينتشي عليها أن تذهب، سيطردونها بعيدًا، وقد أصبحت عجوزًا دون أن تحس، وهي في وسطكم.

في وسط الأطفال الذين يحدثون بقع الحبر، والذين تحترق أصابعهم، وبين المدرسين الذين يطلبون أسنان ريش من الذهب، وشريطًا مثلث الألوان لحمله مضمومًا على قلوبهم إلى المنزل.

إلى اللقاء "ماركوليني"، إلى اللقاء "جولياني"، ستكونان في السنة القادمة مع

مدرسة أخرى، لم تدرك أبدًا أنك يا "ماركوليني" قد أحدثت بقعًا صغيرة من الحبر، وأنك يا "جولياني" بك حرق صغير جدًا لا يراه أحد.

وأنت يا أستاذ "بالياني"، لو أردت قلم رصاص أحمر وأزرق، سوف تجول في المدرسة دون أن تعرف ممن تطلبه.

وأنتم أيها المدرسون، سوف تقتسمون ميراث كل هذه الأصص من الزهور، ولكنكم ستميتونها.

– إلى اللقاء.. يا آنسة تشينتشي.

إننا سوف نراك لمدة ما وأنت تتجولين حول المدرسة، حيث لن تستطيعي الدخول، ويوجد هناك بعض الأشخاص الذين لا يزالون ينطقون باسمك ولمدة ما، وبعد هذا سينساك الجميع، وأما "ماركوليني" الذي سيصبح فيما بعد تلميذًا في السنة الثالثة أو الرابعة، فسوف يضحك من تلك المدرسة التي كانت تعطي أهمية كبيرة لبقعة صغيرة من الحبر.

والآن سوف يكون في استطاعته أن يحدث بقعًا كبيرة كما يشاء، ودون أن يقول له المدرس كلمة واحدة.

الفصل الحادي عشر

سر المدرس

إنكم لا تعرفون المدرس جاربيني- أنطونيو جاربيني- مدرس السنة الرابعة فصل "ب " ولكن تذكروا مدرسكم أيام كنتم صغارًا، أو أي مدرس آخر قد عرفتموه، إنه واحد من هؤلاء الآلاف المنتشرين في جميع أنحاء إيطاليا في مدارس المدينة وفي مدارس الريف، ومن هؤلاء الآلاف الذين في آخر الشهر يدخلون حجرة السكرتارية- بين السرور والقلق وخفقان القلوب- ليقبضوا مرتباتهم. إن الظرف الذي يضم تلك الماهية خفيف، كأنما يكاد يطير من لحظة لأخرى، ولذلك يضعونه في جيب الصديري ويضغطون عليه بيد قوية كي لا يهرب أو يطير مع الطيور.

فكروا في أي واحد من هؤلاء المدرسين الذين قد شابوا جميعًا قبل الأوان.. إنهم متعبون من أول النهار، فإن الظرف الذي يطير مع الطيور ليس كافيًا للإنفاق على الأسرة؛ وإذن لابد من العمل من الليل حتى الفجر، عندما يسقط رأسه إلى أسفل مثقلًا بالنعاس وتقرأ على جبينه- منعكسة كما لو كانت ورقة نشاف- أرقام حسابات مخزن عقاقير أو بيت من بيوت التصدير؛ إذن فهم متعبون حقًا من أول النهار.

هل تتذكرون سترته.. أنها قد بليت من كثرة الإصلاح والبقع والقلب، وأصبحت في درجة تجعل أي إنسان- حتى ذلك السائل الذي كان يرى

كل صباح بجانب أحد أركان المدرسة– يهديها إلى أحد الفقراء. ومع هذا فإن المدرس، يقول: أنها تبدو لي جيدة.. وبعد كيها وتنظيفها من البقع، يختال بها كالطاووس وهو يترك خلفه رائحة حادة من البنزين.

ولا تصل أبدًا أحلام هؤلاء المدرسين إلى الحصول على سيارة؛ لأن كل واحد يحلم بما يستطيع، وإن أولئك المدرسين يصلون بأقصى تفكيرهم إلى امتلاك دراجة، ولكن مادامت هناك رائحة البنزين فإنها تمنح هؤلاء المدرسين ذلك الإحساس البعيد بامتلاك سيارة، والذي يضفي وقارًا على أحذيتهم الممزقة، وياقاتهم المهلهلة، وأربطة أعناقهم التي فقدت ألوانها.. هل تذكرون قرص "نيوتون"؟

عندما كان المدرسون يقومون بإدارة قرص "نيوتون" بسرعة، وتندمج ألوان الطيف السبعة في لون واحد رمادي، فإنه لا يبدو أنه يكون مجموعًا لتلك الألوان الزاهية، ذلك هو لون رباط عنق المدرسين الذي لو رأينا خلال منشور ثلاثي، فسنحصل على السبعة الألوان الأصلية بعد انفصالها، فيبدو ذلك الرباط المسكين مثل قوس قزح.

ولكن من ذا الذي يفكر في أن يرى رباط عنق المدرس خلال المنشورة وأضيفوا إلى ذلك، هذا الحزن الذي يبدو على من يعرف أن حياته لن تتغير مطلقًا.

فإن الصوت الذي كان قويًا مؤثرًا يفرض السكون، أصبح الآن يكاد لا يسمع أبدًا بل يرجو السكون، وليد الذي كانت يريد أن يشير إلى فرنسا على الخريطة الجغرافية أصبح يرتعش، وحينئذٍ لن يعرف إذا ما كانت تشير إلى إنجلترا أم ألمانيا.

لقد تقوس ظهره، تحت أعباء ثقيلة لا يراها التلاميذ ولا يشعرون بها؛ لأن المدرس في نظرهم ليس رجلًا مثل غيره من الرجال، إنه مدرس وكفى.. إنه لا يأكل، ولا يشرب، وليست له أسرة، ولا يحتاج إلى منزل.. إنه مخلوق خاص، يتجسم فقط من الثامنة والنصف صباحًا إلى الثانية عشرة والنصف ظهرًا، ثم يتلاشى ليبدو ثانيًا في الصباح التالي.

تخيلوا بعد ذلك صورة الأستاذ جاربيني– أنطونيو جاربيني– معلم السنة الرابعة فصل "ب " الذي كانت له في وقت ما عيون زرقاء أو سوداء، وكان له شعر أشقر أو كستنائي، وكان له أنف يوناني أو أقني.

ولكن بعد عشرين عامًا من الخدمة، يصبح جميع المدرسين متساوين مثل أربطة العنق، ويصبحون على حال واحد.. تفوح منهم رائحة البنزين، ويقولون بنفس الصوت: "نزل "ليناس"[(١)] من المركب مع ابنه الصغير "آسكانيوس" عند مصب نهر "التيبر"، أو يقولون: "يملك السيد "لورنزو" قبة نصف كروية قطرها أربعة عشر مترًا، يريد أن يغطيها بصفائح النحاس".

ولكن المدرسين المسنين فقط، هم الذين يقولون هذا، أولئك المدرسون الذين كانوا يعيشون في الوقت الذي كانت فيه مسائل الحساب محلاة بأسماء الأشخاص والأماكن فمثلًا، كان الأولاد يكتبون في دفاترهم: "يشتري تاجر أقمشة عجوز قطعة طولها (٤٨.٧٥) سم، أو "أن العمة ماتت، وإن جانيتو ولويجينو يريدان أن يحملا إليها زهورًا ثمن الواحدة (٥٠٠) ليرة، وإن جانيتو معه ليرة واحدة وأن لويجينو معه نصف ليرة".

---

(١) ابن فينوس "ألهه الحب والجمال" وانجيسي وهو بطل كتاب فيرجيلبوس، الشاعر الروماني الكبير، المسمى بالآبنيادة.

ولتاجر الأقمشة المسن هذا، لحية بيضاء طويلة، وما المانع من أن تكون هناك ببغاء ذات ألوان جميلة فوق كتفه؟!

كذلك تخيله الأطفال، ويتخيلون أنهم يدخلون سعداء محل التاجر المسن، وبينما يداعبون الببغاء يحلون المسائل الحسابية.

والعمة.. مسكينة تلك العمة، وتتساقط الدموع فوق الوريقات.. دموع التلاميذ الكبيرة الكروية التي تنزل على الورقة، وتطمس معالم الحبر، وهي تحدث بقعة مستطيلة تغطي كل الورقة.

و"جانيتو ولويجينو" اللذان يبدوان كأنهما يسيران نحو المقبرة، ويتحركان داخل الضباب الخفيف الذي يظهر في شهر نوفمبر، وجانيتو معه عشرين زهرة، ولويجينو عشرة.

وها هي ذي المسألة قد حلت، لقد حُلت بنفسها أمام أسوار المقبرة وسط ضباب شهر نوفمبر.

واليوم تُشرح المسائل الحسابية بطريقة مختلفة جدًا، فلا يوجد فيها أبدًا عمات، ولا يذكر فيها قط أولئك التجار المسنون اللطفاء ذوو الببغاء فوق الكتف، ولا أولئك العملاء الغرباء الذين من أجل تمرين الأولاد على استعمال الأرقام العشرية كانوا يدخلون المحل، ويسألون ببساطة دون أن يجد التاجر الصبور في سؤالهم خروجًا عن المألوف: (٠.٠٠١) من المتر من القماش لعمل أي شيء؟ إنه لا يصلح حتى لعمل جيب صغير القزم من الأقزام ولا جونلة لنملة لا لشيء، ولكنها فقط تمرين الأولاد على استعمال الأرقام العشرية.

وهذا السيد "لورنزو" الذي كانت عنده قبة يبلغ مقدار نصف قطرها أربعة عشر مترًا، والذي يريد أن يغطيها بالنحاس.

هؤلاء السادة المسنون المدعوون "لورنزو" والذين يرتدون حللًا ذات مربعات حمراء وزرقاء، وعلى رءوسهم قبعة كبيرة بيضاء مزينة بريشة صفراء، هؤلاء السادة ليسوا من عالمنا، إنهم يعيشون– أو بالأصح كانوا يعيشون فقط– في مسائل حساب السنة الرابعة والخامسة الابتدائي، وفي الربيع كانوا يعدون في حديقتهم زهور الخوخ، ويطرحونها من زهور اللوز، ويقدمون الفرق إلى العمدة الذي كان يبلغ طوله مترًا وستين سنتيمترًا، إنه خمس شجرة البلوط الكبيرة التي كانت ترى أمام البلدية وتنتج ثمرًا خمس المعتاد.

وكان الأولاد يحبون هؤلاء السادة، ويدرسون الحساب محض إرادتهم، أما اليوم فعلى النقيض من ذلك، أصبح كل شيء جافًا. أما الأسماء المؤثرة في دروس التاريخ، فقد حًذفت وربما يعتبر المدرسون أن وسيلة التأثير في الأولاد غير مناسبة للزمن الحديث.

وقد كاد المدرسون يعتقدون أنه من غير المناسب التأثير على التلاميذ، فإن هذا يخالف العصور الحديثة.

ومثال على ذلك أن "أنيا" لم ينزل أبدًا مع ابنه الصغير "اسكانيو" عند مصب نهر التيبر، ولكنهم ببساطة يقولون: "اسكانيو" دون ذكر كلمة "الابن الصغير".

وهذا مثال آخر: أن "اميلكاري باركا" لم يحضر بعد ابنه الصغير "هانيبال" إلى مذبح الاله، ولكنهم يقولون "هانيبال" دون ذلك الوصف "الابن الصغير" ذلك الوصف الذي يُحلى ذلك الاسم الجاف، ومن ثم يمنع الأطفال من أن يتخيلوا "هانيبال" في سن التاسعة، وعلى ذلك فهم يرونه وقد بلغ الأربعين ذا مظهر قوي، وجسم مليء بآثار الجروح. وبهذه الطريقة في تدريس التاريخ التي قلت فيها الصور المسلية اللطيفة، تفقد تلك المادة خيالها الجميل، وتفقد أيضًا

المسائل الرياضية اللطيفة جزءً من سحرها وخيالها، فمثلًا هذه المسألة:

"يقرأ ولد كتابًا ذا أربعمائة وثمانين صفحة، قرأ في اليوم الأول ٣ ÷ ١٦ وفي اليوم الثاني ٥ ÷ ١٣ من باقي الكتاب، فكم صفحة لم تُقرأ بعد؟

هذا الشاب الغبي المعقد.. ما أبعد الفرق بينه وبين السيدة العجوز الطيبة التي كانت تشتري (٠.٠٠١) من المتر من القماش!

وعندما يفاجأ الأطفال بمثل هذه الأنواع من المسائل، فإنهم لا يهتمون بحلها فقط، بل يفقدون أيضًا كل شغف بالمطالعة.

ولقد كان المدرس "أنطونيو جاربيني" من هؤلاء المدرسين الذين كانوا يتبعون الطريقة القديمة، وحينما كانت تحين، حصة الحساب، كان الأولاد يحبسون أنفاسهم، كي لا تضيع كلمة واحدة من مسائلة التي كانت تفتح أمامهم عالمًا سحريًا، به شخصيات شاذة غريبة وغير مألوفة.

وتفتح هذه الطريقة القديمة للمدرس المسكين "أنطونيو جاربيني" الذي كانت ماهيته "خفيفة كالريشة" عالما بعيدًا عن كل زمان ومكان، عالمًا كان يستطيع أن يعيش فيه أفقر الناس عيشة راضية، ويستطيع أن يملك خيولًا وعربات، وتستطيع زوجته أن تشترى معاطف من فرو السمور.

ولقد كان المدرس "أنطونيو جاربيني" مدرس السنة الرابعة يعمد إلى عالم الخيال كي لا يموت.

لقد كان هذا هو سره.. سر مدرس ابتدائي مسكين قد دُفِن ودفن معه سره، وإني اليوم أظهره حتى يستطيع من يقلده أن يجد وسيلة دفاع ضد مشقات الحياة القاسية، التي لا يستطيع أحد أن يواجهها إلا بانتمائه إلى عالم غير مألوف.

ولكي لا يزعجه أحد، وهو سابح مع التلاميذ في دنيا الخيال، فإن الأستاذ

"أنطونيو جاربيني" كان يغلق باب الفصل بالمفتاح وهو يغطي عينيه بيديه، حتى لا يرى شيئًا يعيده من جديد إلى الواقع الذي كان يود الهروب منه، وكان يبدأ في الإملاء ببطء كلمة كلمة ليتمتع بالكلمات، دخل السيد "ألبرتو" محل بقالة، واشترى شريحة كبيرة طويلة من "الجامبون" تزن (٣.٧٥) من الجرام بمبلغ (٠.٢٥) من الليرة، وكان في بعض الأحيان لا يتمم الإملاء؛ إذ كان يتوقف عند ذكر وزن تلك الشريحة الطويلة الكبيرة من "اللحم"، وكان الأولاد يصيحون قائلين: "ولكن هذا مستحيل يا سيدي المدرس"، وكان يضرب بقوة، بعصاه الصغيرة على المكتب، ليعيدهم إلى السكون..

مسكينة تلك العصا الصغيرة التي كانت تستعمل فقط في إعادة الأولاد إلى السكون، ولكن المدرس "أنطونيو جاربيني" كان يكتفي بذلك، وهو قانع بالتذوق الخيالي لتلك الشريحة الكبيرة المباعة بمبلغ خمس عملات تساوي كل منها "سلدو" من تلك النقود الجديدة التي تبدو كالذهب، وربما كانت ذهبًا حقيقًا، ولكننا لم نعرف ذلك أبدًا.

ولم يكن المدرس "أنطونيو جاربيني" يتوقف عند هذا الحد، فقد كان يعجبه النبيذ، ومن ثم كان يتخيل أن هذا الرجل كان يدخل عند محل بائع خمور، عنده برميل يحتوي على ألف لتر من النبيذ الأصلي، وكلفته في جملتها مبلغ (١٢.٤٢) ليرة فكم ثمن اللتر، وبكم كان يجب عليه أن يبيعه ثانيةً، إذا أراد أن يربح في كل عشر لتر (٠.٠٠١٥) ليرة يا له من تاجر نبيذ طيب!

"بسرعة يا أولاد" هذا ما أوصى به المدرس "أنطونيو جاربيني" تلاميذه، فأسرع الأولاد في عمل حساباتهم لإرضاء المدرس. وكانوا يحصلون على مبلغ ضئيل جدًا لكل لتر من النبيذ، لدرجة أن المدرس كان يستطيع أن يشرب لترين، ولكنه لم يشرب أبدًا أكثر من واحد، ذلك لأنه لا يسره أن يبالغ، وبخاصة أمام التلاميذ.

وكان وجهه يضيء بسبب كثرة الدم الدافئ الذي كان ينفخ الشرايين، وحينئذٍ لم تكن يده ترتعش بعد، وعندما كان يشير إلى فرنسا، كانت هي فرنسا وليست بإنجلترا أو ألمانيا.

كان للمدرس "أنطونيو جاريبني" أربعة أبناء كانوا يبدون كأنهم أربع شمعات، تستطيع أخف الرياح أن تطفئها، وهي نفس الريح التي في استطاعتها أن "تطير ماهية" الوالد لو أرادت.

وكان الوالد– وهو في المدرسة– يفكر فيهم، فكان يملي تلك المسائل التي تسيل لعاب التلاميذ، فيقول: "دخل رجل في محل حلوى في وسط المدينة، ومعه أربعة أطفال، ودعاهم لاختيار الحلوى التي تعجبهم، وأخذ منها "جيلبرتو" اثنتي عشرة قطعة و"ماورو" ثماني قطع، و"لويجي" تسع قطع و"زينو"– الأكثر شراهة– خمس عشرة قطعة، فاذا كان الثمن "سنتيما(١) لكل ثلاث قطع، فكم ينفق الرجل؟

ومرات أخرى كان يملي: "عند السيد "بالدساري" أربعة أولاد ظرفاء، وحيويين ذوي قامات قصيرة لا تفوق قامات الخنافس، وعندما يحين الشتاء، ويجب عليه أن يزودهم بالملابس الثقيلة، كان يدخل في محل تاجر مسن ويشترى بالجملة واحدًا وعشرين سنتيمترًا من قماش الصوف المدفئ الناعم".

كان المدرس "أنطونيو جاريبني" بهذه الطريقة، يستطيع أن يعيش "ماهيته الخفيفة كالريش" والتي كانت تعطيها له الدولة.

وفي نهاية العام الدراسي، كان قد أدخر مبلغًا قيمًا.

وهكذا كان مدرسو الابتدائي يستطيعون أن يدفعوا عن أبنائهم البرد القارس، وهم يتخيلونهم صغارًا كالخنافس.

---

(١) واحد من مائة من الليرة.

وفي آخر أيام الدراسة، كان الأولاد يدخلون الفصل مشبعين بحب الاطلاع، وهم يتساءلون: "أي شيء يستطيع السيد "بالدساري" أن يشتريه مما أدخره من المال؟"

وكانت تكفي نظرة واحدة إلى عيني المدرس، ليفهم أن السيد "بالدساري" سوف يشتري لنفسه حصانًا، مسكين ذلك المدرس.

كان مثل جميع المدرسين، في آخر يوم للمدرسة، أي أن صدره قد أصبح فارغًا، وكان يتحدث كما لو كان ينفث تلك الكلمات الأخيرة التي بقيت له.

ونزل المعلم "أنطونيو جاريبيني" مترنحًا من فوق مكتبه، وأملى وهو مستند على المقعد الأول، ما يأتي: "منذ ثلاثمائة وخمس وستين يومًا، ادخر السيد "بالدساري" كل ليلة همر من الليرة في علبة صغيرة من العاج، فكم بلغ مجموع ما ادخره؟ وإذا أراد أن يشتري حصانًا ثمنه سبع عشرة ليرة، فهل يستطيع دون أن يطلب أية سلفيات، أن يشتري أيضًا زوجًا من الركاب المنكل الذي يشبه الفضة ثمنه ليرة وربع ليرة؟".

وجرت الأقلام في الدفاتر، وبعد قليل صاح "ليوني ماريو" الذي كان أسرع تلميذ في حل المسائل: نعم، يستطيع، ثم أضاف قائلًا: والسيد "بالدساري" ادخر ثماني عشرة ليرة، وجملة ما بقي له– بعد أن أشترى الحصان– ليرة وربع ليرة، ويمكن القول بإنه المبلغ اللازم للحصول على الركابات التي تبدو كالفضة". ثم سأل "ليوني ماريو" مدرسه": سيدي المدرس: وكيف يكون الحصان؟ فأجاب المعلم أنطونيو جاريبيني: "لونه أبيض".

ومنذ تلك اللحظة، لم يتكلم بعد؛ لأنه لم تكن لديه كلمات أخرى في صدره الفارغ، ويتأخر جرس النهاية، وبدا في أعين "ليوني ماريو وزملائه، منظر الحصان

الأبيض الذي إذا نظر إليه إنسان بدقة لا يرى به أية نقطة سوداء. وكانت الركاب تبدو حقًا الفضة، وتبدو رخيصة جدًا عند التفكير في أنها كلفته ليرة وربعًا.

كان "أنطونيو جاربيني" مدرس السنة الرابعة "ب " مشعًا بنور السعادة، وما كان يستطيع أن يتكلم بعد، ولكن تلك الصفقة كانت تملؤه فرحًا، ولم تكن هناك حاجة إلى أن يتكلم ليتفهم ذلك للتلاميذ الذين– في لحظة معينة– صفقوا بأيديهم وهم سعداء، وذلك لأنه في فصلهم.. وفي فصلهم فقط يوجد حصان جميل، وزوج جميل من الركاب.

وفي هذا الوقت، كان المدرس يفكر في نفسه قائلًا: "لقد آن الأوان، وقد وجب على أن أقوم برحلة، بعد عدة سنوات قضيتها بين المنزل والمدرسة، وبين المدرسة والمنزل، وبين العمل الذي يستمر طوال الليل، فيجعلني لا أعرف خضرة الريف والزرقة.. لا أقول زرقة البحر، بل ولا حتى زرقة بحيرة صغيرة بين الأشجار.

"والآن يجب على أن أسرع قبل أن يُدق الجرس؛ لأنني لو لم أسرع في القفز على السرج فسيختفى الحصان".

وقفز فوق الحصان.. إنه حاول القفز، ولكنه سقط، ولما لم يتحرك صاح الأولاد، وجاء الفراش وبيده الناقوس، وحضر المدرسون الآخرون وجميع تلاميذ المدرسة، وكما كان يقول تلاميذ السنة الرابعة "ب " الذين لم يكن يصدقهم أحد في أول الأمر، من أن الأستاذ "جاربيني" لابد وأن يكون قد سقط من فوق الحصان العالي؛ لأنه إذا لم يكن كذلك، فكيف كان يمكن شرح أسباب موته؟

وكان المدرس يضغط بيده بقوة على صدره، ورفعها الحاضرون وفي تلك اللحظة، رأى الجميع ظرفًا قد أخذ طريقه من النافذة، وشارك الخطاطيف في

طيرانها الدائم حول المدرسة.

وهكذا تُوفي المدرس الذي كان على الرغم من ضألة مرتبه، غنيًا يأكل شرائح اللحم، ويغذي أولاده الأربعة، ويلبسهم الملابس الصوفية المدفئة الناعمة، وهو الذي اشترى ذلك الحصان الأبيض، إنه حصان عالٍ ذو ركاب من الفضة، قد صعد عليه.

ولكن للأسف في تلك اللحظة، دقَّ الفراش جرس النهاية.

الفصل الثاني عشر

قطعة النقود الذهبية

الآنسة ماريني مدرسة ما بعد الظهر -تبلغ عشرين عامًا- ولكن من المعروف عنها أنها لن تتزوج، أنها لا تضع المساحيق، وإذا حييتها تجيب بإيماءة من رأسها، جادة.. جادة، كأنها راهبة. وحذاؤها بغير كعب، وإذا مشت لا تحدث صوتًا، ولا تتكلم إلا همسًا، ولم أرها أبدًا تلاطف طفلًا، ولو أنها انقطعت عن المجيء، فلن يهتم بذلك أحد،إنني لا أعتقد أن الأطفال يحبونها.

وجهها طويل شاحب، وشعرها قصير أملس، وعيونها كبيرة، ولكنها تنظر إليك فترة طويلة، ولا تستطيع أن تفهم عن أي شيء تعبر.

وهي كل يوم عند الظهر، وهناك في آخر الممر، وفي أحد الأركان، تنتظر التلاميذ وهي منتصبة تنظر أمامها، وإن ذلك الركن الذي تقف فيه، ليبدو أكثر ظلامًا.

تبلغ من العمر عشرين عامًا، وعندما تبلغ الأربعين، ستظل كما هي اليوم.

منذ كم سنة وهي في هذه المدرسة.. لا أحد يعرف ذلك؛ لأنه لم يهتم بها أحد عندما جاءت. ولقد بدأت منذ أيامٍ قلائل ألاحظ وجودها.. أحييها وتجيبني بإيماءة من رأسها، إنها جادة.. جادة وكأنها إحدى الراهبات.

إنها مدرسة مارتينيللي.

وعند الظهر، لا يرجع مارتينيللي إلى البيت- ككثير من التلاميذ الآخرين

الذين تعمل أمهاتهم- وليس في وسعهن الإشراف عليهم- ولكنه يأكل في المطعم، ثم بعد استراحة قصيرة، يظل حتى المساء لكي يؤدي الواجبات تحت إشراف مدرسة فترة المساء- الآنسة ماريني- ويقول مارتينيللي:

- إنها قاسية يا حضرة المدرس، لا تريد منا أن نتكلم، وفي وقت الفسحة لا نستطيع أن نلعب، لابد أن نتكلم بصوت منخفض، وإذا اتسخت أحذيتنا تنهرنا، وهي تقول عنك: إنك طيب أكثر من اللازم، وتعطينا واجبات قليلة، ومن ثم فإنها تعطينا واجبات أخرى، وتعطينا قصائد شعرية طويلة.. طويلة. مسكين مارتينيللي.. إنه يقول:

- لقد صادرت مني صفائح مذهبة.

وها نحن أولاء نسمع دقًا على الباب.. إنها هي.

وبإيماءة صغيرة من رأسها- ودون صوت- تصل إلى المكتب الذي أمامي، وتقول:

- هل حضرتك الأستاذ موسكا؟ أرجوك أن تذكِّر التلميذ مارتينيللي بمراعاة النظام، إنه كثير الحركة، لا يذاكر.. يعطي مثلًا سيئًا للتلاميذ، وبدلًا من أن يؤدي الواجبات، يلعب بتلك الصفائح.

وأقول: "آه كم أنا متألم وآسف، يلعب بها في مثل تلك السن، ألا تستحي يا مارتينيللي؟"

وينهض مارتينيللي واقفًا على قدميه ويقول: "لا، يا حضرة المدرس" وأصيح: "وهذا أسوأ، ألا تستحي؟" ثم أتوجه إلى الآنسة قائلًا: "سأعتني بهذا الموضوع.. وعلى أية حال، فإني أشكرك على تنبيهك وأؤكد لك أن مارتينيللي لن يلعب بها، إنني أظن أكثر من هذا إنه لا يذاكر محفوظات الشعر التي تعطينها".

وتقول الآنسة: أبدًا يا أستاذ موسكا، منذ ثلاثة أيام وأنا أسأله في قطعة منها، فلا يحفظ منها كلمة.

وأصيح: رديء.. كم هو رديء مارتينيللي، إنني أعدك يا آنسة أنه سيحفظ الشعر جيدًا، الذي يقول: "مثل كتلة تنزل من القمة..." هل معك تلك الصفائح المذهبة؟ وتجيب الآنسة: نعم، ولكني لن أردها له إلا في آخر العام، وأقول: حسنًا تفعلين يا آنسة" وتجيبني: "إلى اللقاء.. يا أستاذ موسكا" وأقول: "إلى اللقاء يا آنسة ماريني" وتخرج في سكون، فأقول: "مارتينيللي، يؤسفني أن الصفائح الذهبية لن تأخذها إلا في آخر العام، حاول أن تكون طيبًا بقدر المستطاع ربما تردها إليك قبل ذلك الوقت. ربما لو حفظت قطعة المحفوظات، تردها إليك فورًا"، ويقول مارتينيللي: "إنني لا أفهم منها شيئًا يا سيدي المدرس"، فقلت له: "هذا لا يهم.. احفظها"، وسألته قائلًا: "ماذا كنت تفعل بالصفائح؟" فأجابني: "أصنع منها النقود يا سيدي المدرس".

لقد كنت أنا أيضًا أفعل ذلك عندما كنت صغيرًا– الصفائح الذهبية والنقود نفسها التي كنت أصنعها منها– إنني أعرف مدى حزن مارتينيللي.

قطعة نقود من فئة المليمين، وصفحة من ذلك القصدير المذهب، عندما تضغط بالأصبع يمكن أن تكون قطع نقود كثيرة كما تريد، وذهبية، أنها نقود خفيفة.. خفيفة كان من الممكن شراء كل شيء بها: قصور رائعة، خيول بيضاء ذات أجنحة، وأحذية طويلة مسحورة من يلبسها يقفز سبعة أميال، وأسلحة براقة، ودروع سحرية. جميع الأشياء الجميلة الموجودة في القصص الخيالية والتي لا يمكن شراؤها بالنقود الحقيقية، ولكن بتلك النقود الخفيفة التي نصنعها بضغط إحدى الرقائق على قطعة من فئة المليمين.

ولقد كانت عند مارتينيللي حزمة من تلك الرقائق، وكان بسببها أغنى ولد في

العالم، ولكن الآنسة ماريني قد صادرتها، كيف أصبح مارتينيللي هكذا مسكينًا؟!

وكأنما لم يكفها هذا، لقد كان عليه أن يحفظ عن ظهر قلب قطعة المحفوظات.

وأقول: "اسمع يا مارتينيللي، أنت تحفظ القطعة، وأنا أحاول أن أساعدك بطريقة أخرى، رأيك أستطيع أن أعيد إليك ما أخذته الآنسة".

وفي أثناء الشتاء، لم تكن تلهيه الذبابات ولا الفراشات التي كانت أحيانًا تطير في فناء المدرسة، ومن ثم كان من السهل على مارتينيللي أن يحفظ المحفوظات. ولكن والوقت ربيع.. ابتدأ ذلك الفصل منذ أيام قليلة، وتلك الرقعة من السماء التي نراها من فناء المدرسة تمتلئ بالخطاطيف وخصوصًا قرب المساء؛ أي في الساعة الأخيرة من فترة ما بعد الظهر، والشجرة.. الشجرة الوحيدة أزهرت، والممر أصبح منيرًا، وتساقطت أشعة الشمس على أرضيته، وكيف يستطيع مارتينيللي أن يحفظ المحفوظات؟ ولايزال هناك في الممر ركن مظلم، وهو ذلك الذي عند الظهيرة نرى فيه الآنسة ماريني منتصبة مستقيمة تنتظر مني أن أسلمها تلاميذ ما بعد الظهر. وبمجرد أن تتسلمهم الآنسة ماريني لا يضحكون، يصبحون جادين، ويحييني مارتينيللي بعينيه، مسكين.. مسكين مارتينيللي، إنه بغير النقود الذهبية.

لقد جاء الربيع منذ أيام قليلة، ولكن التلاميذ يحضرون لي الزهور التي قطفوها من المروج أو سرقوها من تل أوبيو. وأدخل الفصل، وأجد كثيرًا من تلك الزهور على المنضدة التي أمامي، وأقول: "مارتينيللي،

سوف تسترد الصفائح".

وأصنع من كل تلك الزهور باقة جميلة، وعند الظهر أقدمها للآنسة ز.

– آنسة ماريني، هل تسمحين؟

وفورًا تبدأ في رفض الزهور، ولكنها بعد ذلك تأخذها وتشكرني دون أن تنطق بكلمة، ودون أن تنظر إلي، وإنما إيماءة صغيرة من رأسها، وأقول: "يا آنسة، إن مارتينيللي سيحفظ قطعة المحفوظات، خلال أيام قليلة، كما وعدتك".

وفي اليوم التالي، زهور أخرى.. وليس هذا فقط، ولكن مارتينيللي وقد حفظ قطعة المحفوظات، يقول لي وهو في غاية السرور:

– سيدي المدرس، لقد تعبت كثيرًا في حفظها.. وأجبته: "ولكنها الطريقة الوحيدة لكي تسترد الصفائح الذهبية!"

وفي كل يوم يحضر لي التلاميذ الزهور، وفي كل يوم– عند الظهر– أضعها بين ذراعي الآنسة ماريني.

إنها لا تبتسم في وجهي، إن الابتسام أكثر من اللازم، ودون أن تنظر إلى تقول: "شكرًا".

وفي يومٍ ما، ها هي ذي تنظر إليّ.. ماذا حدث في لحظة لتلك الأعين؟

وفي يومٍ آخر، التفت وإذا بي أراها تقرب وجهها من باقة الزهور، كي تتنسم عبيرها.. وتلحظني فتنتصب مستقيمة لتنظر أمامها كالمعتاد.

وأسأل مارتينيللي: "كيف الأحوال في فترة ما بعد الظهر؟"

– لقد أصبحت المدرسة طيبة، إنها لا تنهرنا كثيرًا، وفي الفناء نستطيع الجري الآن.

– هل أسمعتها قطعة المحفوظات؟

– نعم، والآن قد أعطتنا قطعة أخرى، ولكنها لطيفة لقد حفظتها بسرعة، إنها

"سان فرانشيسكو الصحراوي" إنها تلك القطعة الخاصة بفتيات "بورانو" اللاتي يجرين في الشارع بقباقيبهن(١).

هناك من يدق على الباب.. إنها هي، لقد أصبح كعب حذائها عاليًا وفي يدها شيء.. وتقدمت قائلة:

– أستاذ موسكا.. ها هي ذي صفائح مارتينيللي الذهبية.

– شكرًا يا آنسة، ولكن إذا كان مارتينيللي يستحقها حقًا، فإنما يرجع هذا إلى طيبتك.. وإذا لم أخطئ، فإنك قد قلت له إنك ستعيدينها إليه آخر العام.

– نعم، ولكنه الآن يذاكر ويحفظ المحفوظات.

– سمعت أنه يجري في الفناء، ويحدث ضوضاء.

– نعم، ولكن...

مسكينة الآنسة ماريني، لقد كانت تود أن تقول: "نعم، ولكننا في فصل الربيع، ولكنها تخاف من تلك الكلمة، وتخفض عينيها اللتين كانت قد رفعتهما منذ لحظة كي تنظر إليّ. ربما لم يكن ينبغي أن أهديها كل تلك الزهور، لقد ارتكبت خطأ.

إن كعب حذائها عالٍ الآن، وهي دائمًا تلبس ملابس سوداء، ولكن شعرها قد تموج، وعلى أظافرها أرى قليلًا من الطلاء الأحمر. لقد أخطأت أنا.. إنها لا تعرف أن تلك الزهور كانت من أجل صفائح مارتينيللي الذهبية. ومن خلال

(١) "يا لها من قباقيب رنانة..

لا على رصيف الشوارع

"آه لجزيرة بورانو ذات التطريز الجميل

"آه لجزيرة بورانو، جزيرة الحب..

النافذة، ترى تلك الرقعة من السماء الزرقاء، وتمر الخطاطيف كل لحظة.

لقد استرد مارتينيللي صفائحه، وهو يضمها إلى قلبه.. إنه سعيد و"غني" مرةً أخرى. وفي الفصل سكون عميق– ولا أدري ماذا أقول– وأتمنى ألا تبتسم الآنسة، إنني أتمنى ذلك من أجلها، كم هي مسكينة الآنسة ماريني؟! ولكن رويدًا رويدًا ترفع بصرها وتنظر إليّ (لماذا.. لماذا أهديتها تلك الزهور؟) وترتعش عيناها.. وتبتسم.. يا إلهي ما أقبحها عندما تبتسم! لا، إنها لن تتزوج أبدًا.. مسكينة الآنسة ماريني.

وأصيح في التلاميذ: "سكوت يا أولاد".

إن التلاميذ لا يتكلمون، ولكني أنا الذي أحس بالحاجة إلى أن أحطم ذلك الحزن، وألا أرى ذلك الابتسام، وأقول: "آنسة ماريني، إنني أشكرك باسم مارتينيلي، ذلك التلميذ الشقي، والذي لم يكن يستحق كل هذه الطيبة منك".

ويختفي الابتسام عن الشفتين، ولكن هناك في القلب.. هناك الأمل.

وتجيب الآنسة مارتينيللي: "لا..لا إن مارتينيللي تلميذ نبيه، كان يستحق صفائحه.. إلى اللقاء يا أستاذ موسكا" وتنصرف. لقد فهمت هي كيف كان مارتينيللي يتألم لفقد صفائحه، تلك الزهور جعلتها تفهم كل شيء.

والآن، أصبح البقاء في المدرسة بعد الظهر متعة للأولاد، إنهم يلعبون ويجرون– وحتى لو تسلقوا الشجرة فإن المدرسة لا تقول لهم شيئًا– ومارتينيللي يسك نقوده الذهبية، ويشتري– دون انزعاج– قصورًا رائعة سحرية، وخيولًا بيضاء، لها أجنحة، وأحذية طويلة سحرية، وأسلحة براقة. من يدري– ربما تكون الآنسة ماريني لم ترد واحدة من تلك الصفائح الذهبية لكي تستطيع أن تصنع منها بعض النقود الخفيفة.. الخفيفة جدًا، لكي تشتري بها بعض أحلامها.

والآن ها هو ذا الركن الذي كانت ماريني عند الظهر تنتظر فيه التلاميذ، لم يصبح مظلمًا، لقد أصبحت ماريني تلبس فساتين زاهية اللون. وتابعت إرسال الزهور، وبالأمس لم يحضر التلاميذ الزهور، ولكني أرسلت في شرائها، وسوف أستمر في إرسال الزهور حتى نهاية العام، ثم لن أراها أبدًا، لأني سأترك مهنة التدريس.

وستبقى لدى ماريني المسكينة، ذكريات إنسان كان يهديها كل يوم كثيرًا من الأزهار، إنها لن تعرف أبدًا أن الأزهار ما كانت من أجلها، إنها ذكريات إنسان أعطاها درسًا، وعلمها ألا "تصادر" من التلاميذ صفائح ذهبية، كانوا يصنعون منها النقود.

وستفكر بعد سنوات عديدة عندما ترجع إلى الملابس السوداء، وإلى الحذاء ذي الكعب المنخفض، وإلى الشعر المرسل، وهي صامتة لا يهتم بها الجميع، وسترى التلاميذ في ذلك الركن المظلم، وستتذكر أنه كان هناك إنسان، وما أحبها في يوم من الأيام.. لقد كان مدرسًا شابًا، من يدري الآن أين هو؟ وستكون دائمًا طيبة مع التلاميذ، وستعلمهم قطع المحفوظات اللطيفة، وستحفظهم.

يا لها من قباقيب رنانة..
على رصيف الشوارع..
آه لجزيرة بورانو ذات التطريز الجميل..
آه لجزيرة بورانو جزيرة الحب..

وهناك في أحد الأدراج، ستحتفظ بقطعة من النقود المذهبة الخفيفة.. الخفيفة، التي اشترت بها ذات مرة أحد الأحلام، إنها الشيء الوحيد الجميل في حياتها وهي قطعة النقود الذهبية التي صنعتها من الصفائح الرقيقة، والتي قد أخذتها من مارتينيللي منذ سنوات عديدة.

الفصل الثالث عشر

أدريانا كوراتشيني

أخرجت شجرة الفناء منذ بضعة أيام أولى وريقاتها، إنها وريقات من ذلك الورق الأخضر الغض الجديد الذي لا يُرى إلا في أوائل أيام الربيع، وإنها لمعجزة تبقى وقتًا قليلًا من الفجر حتى الغروب، ومن هذا الوقت القصير قد توجد ساعة، ومن تلك الساعة توجد دقيقة، إنها تلك اللحظة التي تبلغ فيها معجزة هذه الخضرة غايتها.. إنها وريقات صغيرة نستطيع بالجهد أن نراها، ولكن دون أن نلمسها، بسبب ذلك اللون الرقيق الذي يحس به القلب دون أن تلاحظه الأعين.. ذلك اللون الذي تغير عما كان عليه منذ فترة من الزمن، وغدًا سيصبح لونه داكنًا كأن ظلًا وقع عليه، ولن يبقى من المعجزة الجديدة الغضة إلا الذكرى والأسف.. وريقات تبدو واضحة ومبعثرة على الفروع السمراء التي تتراءى كأنها لازالت عارية بعد، وتبدو في الظل وكأن الشمس تضيئها.

إنها معجزة تستغرق لحظة قصيرة، رقيقة، كالبراءة التي تلاحظها في أعين الأطفال الصافية، ثم تأخذ في الاختفاء، وغدًا بقلب منقبض، سندرك أن ظلًا قد أخفى ذلك الصفاء الذي نراه اليوم في تلك الأعين.

هناك من يقرع باب الفصل، وتدخل بخفة ورشاقة على أطراف أصابعها "أدريانا كوراتشيني" وهي تلميذة بالسنة الخامسة "ج"، كما هو مكتوب بخيط أحمر على مريلتها البيضاء، إنها طفلة نحيلة شقراء زينت ضفائرها بشريطين

سماويين، وكانت عيناها أيضًا سماويتين.. بيد أني لا أراهما إلا لحظة واحدة فقط؛ لأنها تخفضهما فورًا عند وجود الأولاد، وتقول لي دون أن ترفعهما، كأنها تنشد قطعة محفوظات:

– سيدي الأستاذ موسكا، إن مدرسة الأناشيد بالفناء تنتظر تجربة "الكورس" ولم يبق إلا فصلك.

ويضحك الأولاد، ويتضاربون بأكواعهم وهم ينظرون إلى الطفلة، ولكنهم يخفضون أبصارهم في الحال. وهناك في آخر الفصل انطونيللي يحمر وجهه خجلًا، ومارتينيللي وحده ينظر إليها مبتسمًا، إنه التلميذ الذي أحضر لي هذا الصباح مجموعة من أزهار "المارجريت" واحتفظ لنفسه بزهرة وأدخلها في عروة المريلة على قلبه.

وبعد تحية جميلة، تنصرف "أدريانا كوراتشيني" بخفة– كما أتت– وهي تخفض عينيها كعادتها، وتصلح قليلًا من رباط ضفائرها.

أُغلق الباب، ولكن مارتينيللي مازال ينظر تجاه الباب، وهو يبتسم.

وصلنا إلى فناء المدرسة متأخرين، فوجدنا مدرسة الأناشيد، وقد وقفت بين الأولاد.. البنات في جانب، والبنون في الجانب الآخر.

كانت طويلة جدًا، بارزة العظام، ترتدي ملابس سوداء، وتضع فوق عينيها نظارات تنزلق على أنفها المستطيل من حين لآخر، غير أن شريطا مثبتًا في عروة سترتها كان يمنعها من السقوط، فتتحرك باستمرار على صدرها كبندول الساعة. والأولاد يتمتعون كثيرًا بهذا المنظر، ولماذا جرت العادة على أن تكون المدرسات اللائي يدرسن الأناشيد– وهو فن جميل– من الدميمات؟ لا أحد يدري.

وأوقف الأولاد في صفوف مع بقية الطلبة، بينما تنظر إلى المدرسة شزرًا، وفي

عينيها أمارات اللوم والتبكيت، وأتظاهر بالاضطراب لهذه النظرة، ثم ترتفع العصا بينما تسقط النظارات عندما تبتدئ في حركتها، وينشد الأطفال الأغنية:

"أيتها الشمس التي تشرقين في حرية وحيوية..."

إنه النشيد الذي ينبغي أن ينشده الأولاد– بعد أيام– أمام حضرة المفتش والسيدة المديرة.. الوقت بعد الظهر، وجميع النوافذ التي تطل على الفناء مفتوحة على مصاريعها، والشمس تكاد تغرب، وقد أضاءت ما ارتفع منها، والأغنية تعلو حتى تصل إلى الخطاطيف التي تطير، وهي على شكل دائرة في ذلك الجزء من السماء الذي نراه، وهي تغني دون أن يطغى غناؤها على الكورس.

وتسمع أصوات البنات الحادة، وأما تلك الأصوات الأكثر غلظة فهي أصوات الذكور.

"أيتها الشمس التي تشرقين في حرية وحيوية..."

ويرى جميع الأولاد في مرايلهم الزرقاء في الصف الأول، كما تشاهد زهرة "المارجريت" البيضاء الموضوعة فوق قلب مارتينيللي الذي يبتسم، وهو ينظر إلى البنات كأنهن أخوات صغيرات، ثم ينظر إلى "أدريانا كوراتشيني" التي تبتسم له وهي تحدق في زهرته والشجرة في الظل، غير أن الوريقات تبدو كأنها مازالت مضاءة بنور الشمس. ويخيل إلي أنني أستطيع أن أميز من خلال الأصوات الكثيرة ما هو أكثر صفاء، ألا وهو صوت مارتينيللي وصوت أدريانا كوراتشيني. وأقول لهما: "حسنًا، لقد أديتما النشيد على أكمل وجه". وتبدو المدرسة راضية وهي تفكر في علامات الإعجاب البسيطة التي ستظهر من حينٍ لآخر على وجه السيد المفتش وحضرة المديرة، وهما يستمعان إلى النشيد وهما جالسان في الصف الأول على الأرائك الحمراء المذهبة.

وعادت النظارات فوق أنف المدرسة، بينما ينظر الأولاد إلى البنات وهم يضحكون ويتهامسون، وأرى "كريبا" يأتي بشيء لم يأت بمثله قط في حياته، إنه يصفف شعره الذي لم يكن منظمًا أبدًا بيده الصغيرة. أرى "سبادوني" ينظف فمه المغطى بالشوكولاتة بكم مريلته، أما "فنتوريني" فيتوارى خجلًا خلف الأولاد الذين يفوقونه لأنه كان حليق الرأس. وتضحك البنات أيضًا دون سبب ظاهر، إنهن يضحكن على أشياء لا يعرفن ما هي، وهن منفعلات ينظرن من أسفل إلى الأولاد.. ويعدلن ملابسهن، وشعورهن، وأشرطتهن، وأربطة الرقبة السماوية اللون التي فوق المرايل البيضاء.

وكان "مارتينيللي" و"أدريانا كوراتشيني" هما اللذان تتلاقى نظراتهما دون أن يخفضا بصرهما ويبتسمان، ولم تصبغ الشمس غير سطح المدرسة بلون أشعتها الحمراء، وتعود العصا إلى الارتفاع، وتعود النظارات كذلك إلى التأرجح.

"أيتها الشمس التي تشرقين بحرية وحيوية.. تجربة أخرى، وتنصرف بعدها المدرسة مسرعة، وصدرها يرتفع بفخر كأنها ابتلعت شجرة من أشجار الدردار.

وغربت الشمس، وقد بقي منها أثر في السماء لايزال أحمر اللون، ولكن قليلًا من اللون البنفسجي يصبغ الوجوه، والهواء صاف رقيق كعادته عند الغروب في فصل الربيع، وتسمع الأصوات عالية، كما تسمع أصوات الخطاطيف التي لا تغرد ولكنها تصيح.

ويمتد الظل فوق الشجرة، وبعد قليل سوف لا يرى الجذع ولا الأغصان، ولكن ستثري فقط تلك الوريقات الخضراء مضاءة، وكأنها معلقة في الهواء.

وأقول: "تستطيعون أن تلعبوا أيها الأولاد" ولكنهم لا يلعبون، بل ينظر بعضهم إلى بعض خجلين.. لماذا؟

خجلوا من أن يتقاربوا، أو من أن يتشابكوا بالأيدي، أو أن يكونوا دائرة، أو أن يقفوا كالأعمدة الصغيرة، أو أن يلعبوا لعبة الكلب والأرنب الجبلي.

ويتابع "فنتوريني" الاختفاء خلف الزملاء كي لا يرى البنات رأسه الحليق، من في مثل هذا الهواء الصافي المنعش، الذي تدوي فيه الأصوات بقوة، لديه الشجاعة ليبدأ بالكلام. لا شك إنه "مارتينيللي" الذي يتقدم وهو يبتسم تجاه "أدريانا كوراتشيني" التي تبتسم له، ويأخذها من يدها، ويقول لها:

– أية لعبة نلعبها؟

وبدأ الآخرون أيضًا في التحرك، يأخذ بعضهم بأيدي البعض.. طفل وطفلة، طفل وطفلة ينظمون حلقة، وبقي خارج الحلقة انتوناللي.. إنه فارع الطول، عمره اثنا عشر عامًا تقريبًا. وترى سحابة في عينيه ومن المفترض إنه يجري حول الحلقة ويلمس ظهر زميله الذي يجب عليه أن يترك موضعه بمجرد أن يلمس، ويجري عكس اتجاه أنتوناللي.. يجري كي يصل إلى المكان الخالي قبل زميله، ويسرع أنتوناللي قليلًا.

ترى من عساه يلمس.. ربما طفلة، ولكن تنقصه الشجاعة. وأخيرًا أستقر به الرأي، فلمس ظهر طفلة

وصرخت الزميلات: "اجري.. اجري يا جولييتا" وشاركهن الأولاد، وأخذوا يشجعون الطفلة؛ لأن أنتوناللي ثقيل الظل، وله ساقان طويلتان. وعلاوة على ذلك فإنه لم يبلغ السن التي يقبل فيها الشاب بأن يترك الفتاة تسبقه ويظهر "الشهامة".

وتجرى الطفلة السوداء الشعر والعينين، تجرى هي أيضًا بخفة، ولكن أنتوناللي قد سبقها في نصف الشوط الأول. وفجأةً، وبين صيحات السرور، ينزلق ويسقط؛ فتتسلخ يداه وركبته فوق الحصى، وتسبقه جولييتا، وعندئذٍ يصيح الأولاد:

– انتصرت جوليتا.. انتصرت جوليتا.

واختفت الخطاطيف، ويجب على انتونللي أن ينال العقاب الآن، ويتساءل الأولاد: "بم تكلفه أن يعمل؟" هل نطلب منه أن يطوف بالفناء، وهو يقفز على قدم واحدة؟ أم نتركه يذهب إلى المدرس وينحني أمامه، ويسأله:

– كم الساعة الآن يا سيدي المدرس؟ ويصيح الأولاد: "ليلاطف جوليتا.. ليلاطف جوليتا" ويحمر وجه أنتونللي خجلًا.. ويضحك بطريقة سخيفة، ويقترب من الطفلة، ولكنه سرعان ما يعود إلى الخلف ويطلب منهم أن يغيروا العقوبة، وأخيرًا بعد أن شجعوه، وبعد أن دفعوه، يمد إحدى يديه.. لا، ليست لديه الشجاعة ليلاطف جوليتا، وينزوي في ركن من الفناء في الظل.. ويستأنف الزملاء اللعب من جديد، والآن يأتي دور مارتينيللي فهو الذي يجري حول الحلقة وهو يعرف مقدمًا من سيلمس: "أدريانا

كوراتشيني)، ويجري كلاهما في خفة ورشاقة على الحصى، ويسمع لأقدامها على الحصى صوت خفيف، ويتهامس الأطفال: "من سيفوز؟ ويصلان معًا تقريبًا، ولا يعرف أحد من الذي فاز منهما"، "فازت الطفلة، ولكن لابد أن ينال مارتينيللي العقاب"

لا يخجل مارتينيللي، بل يرى مسرورًا، ولا يزال يلهث، ثم يقترب من أدريانا كوراتشيني، ويربت بيده على خدها، وينزع وردة المارجريت، ويهديها إليها.

مضى الوقت، وربما لم تبق سوى دقيقة واحدة تظهر بعدها النجوم، ومع ذلك فإن وريقات الشجرة مازالت ترى، وربما كان ذلك اليوم بالنسبة لها يوم المعجزة. ويخيم الظلام رويدًا رويدًا، ويتكلم الأولاد بصوت خفيض، وتنتابني رعشة من البرد.. كم تبدو عن بعد تلك الخطاطيف التي كانت تغرد منذ نصف ساعة فوقنا، وعند ذلك أقول: "إلى البيت يا أولاد، فإن الوقت متأخر". فيقترب

الأولاد من الباب على أطراف أصابعهم خشية أن يحدثوا صوتًا، فإنهم يقتربون من الباب وينقسمون إلى مجموعتين من جديد.. مجموعة فيها البنون، والأخرى فيها البنات، ولا يحيى بعضهم بعضًا، ولا يتبادلون تحية المساء عند باب المدرسة، وأنتونلي ليست لديه الشجاعة لينظر إلى الطفلة الصغيرة، ذات الشعر الأسود، ولكن أدريانا كوراتشيني، ومارتينيللي يعبران الفناء في بطء، متشابكي الأيدي. وقد انتقلت الزهرة اللؤلؤية من فوق قلب الولد الي فوق قلب البنت، وتسأله: "من أين تحضر هذه الزهور الجميلة؟".

فيقول: "من تل أوبيو، فهناك كثير منها، وكل صباح أحضر باقة للأستاذ، ألم تذهبي قط إلى تل أوبيو؟"

– أبدًا.. فإن الطفلة تبقى دائمًا بالمنزل بعد الظهر.

ويقول لها: "إذا أتيتِ فسنبحث عن الحلزون المختفي تحت النباتات، وسننشد بعض الأغاني لنحمله على أن يخرج من القوقعة.. اخرجي، اخرجي أيتها القرون"، إن مارتينيللي لا يعرف التاريخ، ولا يعرف الجغرافيا، ولكنه يعرف جميع الأغاني التي تجعل الحلزون يخرج من قوقعته، والتي تجعل "حشرة أبي العيد" تطير، وتبقى على الزهور تلك الفراشات التي يمسكها بأصبعيه، ويمكث بعد ذلك مدة طويلة دون أن يلمس بهما أي شيء حتى لا يحرمهما ذلك المسحوق الذهبي والفضي، ذا النقوش البديعة التي تتركها الأجنحة على أصابعه.

ويقول: "إذا أتيتِ فسنأخذ بعض حجارة الزند التي تطلق شررًا مجرد الاحتكاك، وسنقدح شررها بسن الريشة.. هل تستطيعين أن تفعلِ ذلك؟"

– أنا؟! لا.. ألا تحرق؟

– إنها لا تضر.

وتستمع "أدريانا كوراتشيني"، وفمها مفتوح، إلى كلمات مارتينيللي وكأنها خرافات، ويستطرد قائلًا:

–كيف تستطيع شرارات الزند أن تحرق ما دامت أرواحًا؟

وقد تألق نجم صغير في سماء فناء المدرسة، وهناك في تل أوبيو حارس لا يقول شيئًا إذا دخلنا أحواض الزهور وعند الباب الخارجي يفترقان، فإن منزل الطفلة يوجد في مكان، ومنزل مارتينيللي في مكان آخر.

ويقول لها: "طاب مساءك يا أدريانا".

وتنصرف الطفلة، ومعها زهرة مارتينيللي والتي دونها أصبح الثقب وحده على قلب مارتينيللي.

– أدريانا.. أدريانا.. إذا أتيت، فأحضري معك سن ريشة جديد، إن السن القديمة لا تقدح الشرر.

ليس هناك أي أثر لحقد أو ضغينة في قلب مارتينيللي، ترى إلى متى ستدوم هذه البراءة التي تقرأ في عينيه الصافيتين.. ربما يكون ذلك غدًا، إنه ذلك اليوم الذي لا يذهب فيه إطلاقًا لمقابلة "أدريانا كوراتشيني" ولا يأخذها من يدها.

البراءة! إنها المعجزة القصيرة الأمد والرقيقة، التي لا يمتد بها الزمن أكثر من امتداد خضرة وريقات الربيع. وقد يراد لها أن تدوم، وقد يراد أن تظل كما هي، ولكن بمجرد الإحساس بها تتغير عما كانت عليه منذ لحظة مضت، فإن أول خيط من الظل قد وقع عليها.. ومثلها في ذلك مثل خضرة الوريقات البديعة التي لا تدوم سوى يوم واحد. إن الربيع جميل في تلك اللحظة التي يبدأ فيها، وبعد ذلك لا يبقى منه إلا الذكرى والأسف.

الفصل الرابع عشر

كنز الأستاذ بالياني

اليوم– بعد أربعين عامًا قضاها في التعليم– يحال الأستاذ بالياني إلى المعاش.. وفي منتصف الساعة الواحدة، بعد انصراف الأولاد من المدرسة، سيلقى المدير خطبة يعقبها حفل وداع، وسيقدمون إليه قدحًا من الفرموت.

مسكين الأستاذ بالياني، سيقدمون إليه هذا الكوب من الفرموت، وبعض البسكوت، ثم ينصرف بعدها.. ولن نراه أبدًا.

لقد تقوس ظهره، وأبيض شعره، وأصبح يرتدي المعطف حتى في شهر مايو، ولكي لا يجشمه المدير مشقة صعود السلم، أعطاه الفصل الموجود بالدور الأرضي، حيث يوجد قسم الروضة، وحيث يوجد الأطفال الصغار في زيهم الأبيض، يلعبون بقطع الطباشير الملون، ويبنون البيوت الصغيرة والأبراج من الزهور، ويسيرون في الطرقات متشابكي الأيدي.. وفجأة يجهشون بالبكاء وينادون أمهاتهم، ويهربون ناحية الباب، وتتبعهم المدرسات الشابات اللائي لا تتجاوز أعمارهن عشرين عامًا، واللائي يصحن طوال اليوم.. فإذا ما أقبل المساء، تكون أصواتهن قد نُحِتتْ. وفي نهاية الممر، يوجد فصل الأستاذ بالياني.. الفصل الخامس. ومن ثم نكاد لا نراه، وهو لا يصعد إلى الدور العلوي إلا عند توزيع أقلام الرصاص الجديدة وقطع النشاف. حينئذٍ نراه وقد أخفى نفسه تقريبًا داخل المعطف والقفاز الصوف الأسود النصفي، ويتساءل:

– هل من شيء لي.. هل من شيء لي؟

لقد أعدت الآنسة تشينتشي له أيضًا أقلام الرصاص.. تلك الأقلام السوداء، والأقلام الأخرى التي نصفها أحمر ونصفها أزرق، والتي تستعمل لتصحيح الواجبات.

ويحصي الأستاذ بالياني الأقلام، ثم يسأل: كم نال الآخرون؟ خشيةً أن يكون قد أُعطي عددًا أقل ويعود إلى الفصل بهذا الكنز، وقد ضمه إلى صدره في سعادةً، ولكن ينبغي أن تكون مدرسًا حتى تشعر جيدًا مقدار السعادة التي يمنحها عدد قليل من أقلام الرصاص التي نصفها أحمر ونصفها أزرق، الأستاذ طاعن في السن يعيش الآن على هذه الأشياء الصغيرة: أقلام رصاص، أسنان ريش جديدة، مبراة، ممحاة.

وعندما يتقدم الأساتذة في السن، يصيحون كالأطفال الذين عاشوا بينهم سنين عديدة، يشعرون بالسعادة عندما يحصلون على عدد من أقلام الرصاص والأقلام الملونة، أو بامتلاك آلاف الأشياء الصغيرة يملئون بها جيوبهم. في جيوب الأستاذ فقط، يمكنك أن تجد مبراة على شكل ساعة صغيرة، أو على شكل "البالونات" الطائرة في الهواء، والبرتقالة والشمعة التي يستعين بهما الأستاذ في شرح طريقة دوران الأرض حول الشمس بعد أن أظلم الفصل، والزهور التي جفت منذ أيام مضت، قد استخدمها في شرح دروس النبات، والشريط ذا الألوان الثلاثة[1] الذي لم يعطَ لأحد التلاميذ لأنه كان غائبًا. كل تلك الأشياء حرص الأستاذ على الاحتفاظ بها، كما حرص على الاحتفاظ بمدية صغيرة أوتوماتيكية ذات ثلاثة أنصال "صادرها" من تلميذ خوفًا من أن يصيب بها أحد زملائه، مطمئنًا إياه بقوله: "سأعيدها لوالدك عندما يأتي إليّ" ثم يأتي الأب، ولكن

(١) الأبيض والأحمر والأخضر، هي ألوان العلم الإيطالي، ويعطي للتلاميذ الممتازين.

المدية لاتزال في جيب المدرس الذي يزداد تعلقًا بها.. وإذا ما ذهب إلى المنزل، وجلس وحيدًا، أخذ يختبر طريقتها الأوتوماتيكية، فيجرح أصبعه ثم يضمدها بمتر من الشاش كالأولاد الذين ينتهزون فرصة جرح صغير، فيربطونه برباط كبير، ويحتفظون بالرباط أيامًا وأيامًا، ويختالون به.. ولا يفتنون يقصون الحادثة في كثير من المبالغة.

والمدرس باليابي– كتلاميذه تمامًا– ولذلك لا يكونون دائمًا على وفاق، وفي ممر الدور الأرضي في تلك اللحظات الفريدة التي لا يبكي فيها أطفال الروضة، ولا تصرخ المدرسات الشابات، يسمع صوت الأستاذ باليابي يتهدج بعض الشيء وهو يقول: "لا.. لن أعطيكم شيئًا.. إنكم أشقياء.. أسنان الريش الجديدة للرسم سأوزعها غدًا، ولكن ليس للجميع.. بل لمن يستحقها فقط".

ويقول الزملاء إنه غني، ويدخر النقود ولا ينفق منها شيئًا على الإطلاق، ولكن هذا ليس صحيحًا، فالمدير يعرف ذلك.. ويعرف أن المدرس باليابي يملك ألف ليرة.. ألف ليرة جمعها خلال أربعين عامًا قضاها في التدريس.

هل تعرفون أين يدخر تلك النقود.. في "حصالة" كما يفعل الأولاد، إنها قطع من النيكل والفضة، حشرت في الحصالة، فلا يسمع لها صوت.

ترى ماذا سيشتري الأستاذ باليابي بهذه النقود، عندما يحال إلى المعاش؟

عربة صغيرة.. لقد ذكر ذلك مراتٍ عديدة.. عربة صغيرة يتنزه بها نزهات جميلة في الشتاء بعد الظهر، عندما يكون الجو دافئًا والشمس ساطعة.

والحصان.. هل يستطيع شراءه أيضًا بألف ليرة.. يعتقد أنه من الممكن، مثله في ذلك مثل الأطفال الذين أهدوا إليه جميعهم في نهاية العام– ذات مرة– ثلاثين مليمًا، لكي يشتري بها قلم حبر. إن الثلاثين مليمًا مبلغ كبير بالنسبة لهم، وكذلك

ألف ليرة بالنسبة للأستاذ باليابي مبلغ كبير جدًا، يمكنه من شراء الحصان بالإضافة إلى العربة.

لقد توفيت زوجته منذ سنين عديدة، والآن يعيش وحيدًا، أما أبناؤه فقد تفرقوا في جهات عدة تبعًا لأعمالهم.

وأسأله: "ألا يحزنك يا أستاذ باليابي أن تحال إلى المعاش، وأن تترك المدرسة والأولاد؟".

فيجيب: "لا.. بالعكس، إنني سعيد.. فبعد أربعين عامًا من حقي أيضًا أن أعيش، وأن أفكر قليلًا في نفسي، وأن أعمل أشياء كثيرة منعتني المدرسة من القيام بها".

يا له من مسكين!

لن أسأله عن الأشياء الكثيرة التي يريد أن يفعلها، والتي منعته المدرسة من أدائها، فلا شك إنه لا يعرف كيف يجيب، فلن يفعل شيئًا.. إن حياته هي المدرسة.. وقد انتهت في المدرسة، وسيدرك أن الخيول باهظة الثمن، وأنه يجب عليه أن يتنازل حتى عن عربته التي كان يحلم بها منذ زمن بعيد، كالأطفال الذين يحلمون بالدراجات.

واليوم يحال الأستاذ باليابي إلى المعاش.. لقد حلق لحيته، وقص شعره، قبل أن يأتي إلى المدرسة، وارتدى ملابسه الجديدة.. قميصًا ملونًا بياقة بيضاء، أما رباط الرقبة فلا يوجد من يعتني بربطها له، فربطته غير محكمة ولا تكاد تستقر في مكانها؛ ولذا فإن زرار الياقة يظهر من الجانب الآخر.. إنه زرار صغير من النحاس الأصفر يلمع جيدًا، حتى يبدو وكأنه من الذهب، وأتى الأستاذ باليابي دون أن يرتدي معطفه وقفازه الأسود النصفي، قد يكون ذلك لأن الجو حار، أو لأن

الأستاذ بالياني قد بدأ حياة جديدة من اليوم.

ودخل الفصل، وحيا الأولاد، وأعاد إليهم الأشياء التي "صادرها" منهم.. ماعدا بعض أشياء لم يردها مثل المدية، فقد احتفظ بها لنفسه ومعها منديل من الحرير ذو ثلاثة ألوان: أبيض، وأحمر، وأخضر. والآن ها هو ذا يفرغ القمطر، ويفتحه لآخر مرة، ويقول: "وداعًا".. متحدثًا إلى الجندول الصغير الذي ظل فوق مكتبه أعوامًا عدة، يحرس كومة الواجبات المدرسية الصغيرة التي كان يجب عليه تصحيحها، ولكن

الجندول ليس ملكًا له، بل هو ملك للمدرسة؛ ولذا يجب عليه أن يتركه لها.

ويقول: "وداعًا" للمحبرة، وللريشة، ولسطح المكتب الذي بالرغم من أنهم كانوا ينظفونه دائمًا، فإن الزمن والعادات والحركات الأكثر شيوعًا قد أثرت عليه تأثيرًا لا يراه إلا الأستاذ بالياني، وإنه ليلمس لآخر مرة ذلك الخدش البسيط، ويمسح بيده تلك البقع، ويمر بأصابعه فوق ذلك الجزء الخشن من المكتب الذي كان يلمسه كل يوم من جديد لا شعوريًا، بينما يؤدى الأولاد الواجب في الفصل.

ويقول: "وداعًا" للبقعة الموجودة على السقف من أثر الرطوبة، وعند النظر إليها تبدو وكأنها "تنين". ويفكر في إنه ابتداءً من الغد لن يرى بعد تلك البلاطة المكسورة القريبة من الباب التي كان الأولاد يتعثرون فيها، وكان هو بدوره يتعثر مثلهم بعض الأحيان؛ لأنهم لم يتذكروا ذلك أبدًا رغم معرفتهم بوجودها.. ودون رغبة منه، يوزع أقلام الرصاص السوداء، وأسنان الريش للرسم، ولكن الأقلام الحمراء والزرقاء لا يوزعها؛ لأنها خاصة به ويعمل منها حزمة، وسيظل يبريها في البيت مادام على قيد الحياة، وهو يستعمل في ذلك المدية الأوتوماتيكية ذات الأسلحة الثلاثة. لقد حانت الآن لحظة الخروج، ويقول الأولاد: "إلى اللقاء.. إلى

اللقاء سيدي الأستاذ".

– وداعًا يا أولادي، هل يوجد منكم أحد لم يحصل على أسنان الريش.. هل يوجد أحد منكم يود أن يشتكي مني لأنني لم أرد إليه؟

يالله.. نعم يوجد الولد صاحب المدية.

– وداعًا.. وداعًا يا أولاد سأعود أحيانًا.. وسآتي لرؤيتكم.. أصبح الفصل خاليًا، والأستاذ باليابي يغلق الدرج لآخر مرة، ويسمع صوت جلبة كبيرة، وفي الدور العلوي ينتظر المدير والزملاء حفل الوداع.

نحن الآن مجتمعون في حجرة المدير، وعلى المنضدة زجاجتان وكؤوس كثيرة، وقد حضرت مدرسات فصول الروضة الشابات للاشتراك في الحفل، وكان آخر من وصل إلى مكان الحفل الأستاذ باليابي وبيده حزمة صغيرة تدخل أشعة الشمس من النافذة المفتوحة، وترى انعكاسات الزجاجتين تلك الانعكاسات التي تشاهد في الصور الفنية، والكؤوس تتألق.

انتهت الضوضاء التي كان يحدثها الأولاد في الطابق الأرضي، ولم تكن تسمع سوى دقات ساعة حجرة المدير: تك.. تك.. تك.. تك، تلك الساعة التي كانت على شكل تمثال من البرونز، ولا يجرؤ أحد على أن يقطع هذا السكون.. ومدرسات فصول الروضة الشابات ينظرن إلى البسكوت.

وجلست المدرسات الأخريات– على شكل دائرة– حول منضدة المدير، وخلفهن المدرسون واقفون. وكان من المفترض أن يلقي المدير كلمة.. بيد إنه لم يتكلم، وظل واقفًا على قدميه أمام المنضدة، مطأطئ الرأس.. يلمس بأصبع يده المكتب ويداعب باليد الأخرى جبهته، وبالقرب منه مدرسة عجوز تسعل باستمرار في هدوء، وأخرى تجفف عينيها، وليس ذلك لأنها تحب الأستاذ باليابي،

بل لأنها تفكر في أن يومًا سيأتي، يقام لها فيه حفل كهذا الحفل.. ولم ينته المدير بعد إلى قرار.

ووجب أن نضع له كأسًا في يده.. أفتح زجاجة الأستاذ وأملأ الكؤوس، ثم أقدم واحدة منها للمدير الذي يقول: "العفو.. الأستاذ باليابي أولًا"، ولكن الأستاذ باليابي يمتنع، وأخُذ كأسين وأقدمهما في وقت واحد، إلى كل من المدير والأستاذ باليابي.. الآن حان أن يلقي المدير كلمته، فيرفع الكأس إلى أعلى، ويقول: "في صحة الأستاذ باليابي الذي سيتركنا.. إن المدرسة أسرة واحدة، وكل عضو من أعضائها، عندما تحين اللحظة".

ويبحث المدير عن كلمات.. لقد ابتدأ خطابه وهو في حالة سيئة، ولكن المدرسات رغم ذلك يبكين،

فيستطرد المدير قائلًا: "إن الأستاذ باليابي سيتركنا، ولكننا سنذكره دائمًا.. أليس هذا صحيحًا.. سنذكر المدرس المثالي الذي وقف كل حياته على المدرسة، فكانت حياته سلسلة من التضحيات وإنكار الذات.

لماذا يقول المدير كل هذه الكلمات التي ليس وراءها طائل؟ تلك الكلمات التي تبكي العيون، لا يعرف أحد.. وتبقى في أيدينا الكؤوس، واستمع دون أن تكون لدينا الشجاعة لإحداث أية حركة.

"إنك يا باليابي ستذهب، ولكنك ستبقى هنا في قلوبنا جميعًا"، يقول المدير تلك الكلمات، ويلمس قلبه متأثرًا.

"سيرى كل منا الآخر مرة أخرى.. أليس هذا صحيحًا يا باليابي؟ سوف تأتي كثيرًا لزيارتنا، فبعد أربعين عامًا في التدريس، لا يكون ترك المدرسة إلا مجرد كلام.. إنها جزء من حياتك تربطك به ذكريات أربعين عامًا، وعندما تريد أن ترى

الأولاد وترانا مرةً أخرى، فعد ولو للحظة قصيرة، واعتبر نفسك في أسرتك"

وكان المدير يريد أن يقول: "تعال يا باليايي، وسنلقاك بترحاب وبأذرع منبسطة، وإذا احتجت إلى شيء ما فإننا هنا، وأنا أيضًا كذلك مديرك الذي يقدرك ويحبك.. سأعتبرك دائمًا مدرسًا كفؤًا محبوبًا، كأنك مازلت مدرسًا بالمدرسة ولم تخرج منها".

أراد أن يقول كل هذا، ولكنه لا يستطيع ذلك.. ولذا فهو يشرب "الفرموت" ومع شراب الفرموت، يكفكف دمعات يجب ألا يظهرها المدير.

وكنا جميعًا نشرب ما عدا باليايي، فإن الكأس أخذت تهتز في يده، فقد حان دوره في الرد على المدير،

فيقول: "سيدي المدير سأعود أن أردت، ولكني قد ودعت مكتبي، وغدًا سيأتي غيري ليرمي بمحبرتي وليضع بدلها محبرته ولا يدري أحد ماذا سيضع في درج القمطر، فخلال عام واحد لن يتذكر أحد أن الفصل كان فصلي، ستقول الأمهات: "لقد كان رجلًا مسنًا، لم يكن يفهِّم الأولاد، وإن مدرسًا شابًا أصلح منه".

ويقاطعه كل واحد منا: "لا.. لا.." ولا شك أن العكس صحيح، ويستطرد الأستاذ باليايي قائلًا: "إنه ليؤسفني أن أذهب، ولكن الوقت قد حان لأبدأ من الآن حياة جديدة، أفعل فيها كل الأشياء التي حالت المدرسة دون قيامي بها خلال الأربعين عامًا المنصرمة".

ما هي تلك الأشياء أيها الأستاذ المسكين؟!

ويتابع حديثه قائلًا: "وإلى جانب هذا، فإنكم تعرفون أنني ادخرت مبلغًا ضئيلًا.. ولا أقول كبيرًا، يكفي لتحقيق جميع رغباتي.. سيدي المدير: هل تسمح

لي أن أخرج ومعي تلك الحزمة، إنها أقلام رصاص حمراء وزرقاء كلها جديدة، وإنك لتسأل: ماذا أريد أن أفعل بها؟ أبريها.. أبريها يا سيدي المدير، كما كنت أفعل خلال الأربعين عامًا المنصرمة سأبري واحدًا كل شهر، إنها ليست قليلة.. فهي تكفيني مدة طويلة، وإذا انتهت وأنا لاأزال على قيد الحياة، فسأعود إلى المدرسة لأسالكم غيرها.. وستعتبر المدرسة تشينتشي أنني مازلت مدرس بالمدرسة، وسوف تعطيني أقلامها كعادتها مثل الآخرين.. وسأبريها يا سيدي المدير بالمبراة، تلك المبراة التي...".

وارتبك الأستاذ باليايي، واحمر وجهه خجلًا.. وبدا له أن المدير والزملاء يقولون له:

– ماذا؟ ماذا؟

– بالمبراة التي لم تردها لتلميذك.. يا للخجل!

نعم: يا للخجل! ولكن الأستاذ باليايي لم تكن لديه القدرة على إعادتها للتلميذ، ويشرب "الفرموت" ويؤدي التحية، ويعد بأنه سيعود إلى المدرسة، ثم ينصرف مسرعًا.. وأنظر خارج الباب لقد اختفى وداعًا يا أستاذ باليايي.

إنه دون عربة؛ لأن حصالته وهي المليئة إلى آخرها والتي لا تحدث صوتًا، لا تكفي لشراء حصان.. ستلحظ أن حياتك هي المدرسة، والأولاد، وأسنان الريش التي تستعمل في الرسم، وبقعة الرطوبة على السقف، كانت تبدو وكأنها "التنين".

ستلاحظ أن كل الأشياء التي حالت المدرسة دون أن تقوم بها، لا وجود لها.. ماذا ستفعل؟ ستجد نفسك منفردًا بكنزك المربوط فوق صدرك. ستدور حول المدرسة، وفي الحدائق العامة بميدان دانتي، سترى باب المدرسة وأنت جالس على المقعد تتأمل في الصباح دخول التلاميذ، وخروجهم عند الظهر، ومعهم

الزملاء والمدير.. ستمكث هناك وعلى صدرك كنزك المربوط، تريد أن تنفقه، ولا تعرف في أي شيء؛ لأنك مازلت تحلم، ومازلت طفلًا.. وفي جيبك حزمة الأقلام الحمراء والزرقاء، والمدية ذات الفتحة الأوتوماتيكية. ستخجل من أن نراك أنت الذي كانت لديك أشياء كثيرة تؤديها، وسنتظاهر بأننا لا نراك.. إلى متى سيأتي يوم قريب نجد فيه المقعد خاليًا. مسكين أنت يا أستاذ بالياني، إنك لم تكن تعرف أن المدرسة هي حياتك، وإنك لم تحي إلا لها.

الفصل الخامس عشر

حتى الطيور تذهب إلى القداس!

في هذا الصباح، سأل طفل في الثالثة من عمره يسمى "باتستوني ماريو" مدرسة الروضة قائلًا: "هل حقًا ما يقال من أن الطيور تذهب إلى القداس؟!"

كان ذلك نوعًا من الجدل فكان "باتستوني ماريو" يقول: "لا.. إن الطيور الصغيرة لا تذهب إلى القداس". وكان يشاركه في هذا الرأي زميله في المقعد، وزملاؤه في المقعدين الأمامي والخلفي، ولكن "روميجولي لاورتا" وهي طفلة صغيرة شقراء ذات عيون سماوية كبيرة. وترتدي فستانًا يخرج عن المريلة المتناهية القصر، كانت تقول: "نعم، إنها تذهب وقد رأيتها، وعندما باركها الكاهن انصرفت لتعود إلى أوكارها".

لم يكن هناك سوى خمسة يشاركون "باتستوني ماريو" رأيه، بينما كان باقي الأطفال يرفعون الأيدي، ويقولون: "نعم.. نعم إن روميجولي على حق حتى أنا أيضًا رأيتها، ويوم الأحد كانت هناك خطافة مع ابنها الصغير الذي أخذ يغرد، وعندئذٍ وضعت الخطافة جناحها أمام منقاره لإسكاته.

لكن "باتستوني ماريو" لم يكن مقتنعًا تمامًا، وأخذ رأي المدرسة في ذلك.

إنها مُدرسة في العشرين من عمرها، لقبها "كاراتشولو" أما اسمها فلا أعرفه، ولكني أعرف فقط إنه يبدأ بحرف التاء. كل صباح أرى إمضاءها على ورقة الغياب، إمضاء لايزال مبللًا، علامة على أنها تصل إلى المدرسة قبلي ببضع دقائق.

ولكن تلك الدقائق القليلة تكفي لكي لا أستطيع رؤيتها، وعندما أصل تكون قد دخلت الفصل، وعندما أمر أمام الباب أسمع صوتها. رأيتها مرةً واحدة في حجرة المديرة في اليوم الذي يسبق إجازات عيد الميلاد، عندما يذهب الجميع لتقديم التهاني للمديرة.. كانت قد أفرطت في وضع المساحيق، وكانت تتصرف تصرف الآنسة "العصرية".. ولعلها كانت تضع السجائر في الحقيبة، وقد ضايقتني هذه الفكرة،

كانت تضحك بطريقة سخيفة، وكان جميع المدرسين الشبان ينظرون إليها.

وقد قلت في نفسي: "لا.. لا أظن أن تكون تلك الفتاة بهذا الشكل إنها تتصرف على هذا النحو؛ لأنها لا تجد من يهتم بتأنيبها.

واقتربت منها لأهنئها بالعيد.. فأجابتني– وهي شاردة الذهن– دون أن تنظر إلي، وقد ساءني هذا التصرف لأني كنت أشعر– دون أن أجد سببًا لذلك– بأنه أصبح من نصيبي ألا أبقى شخصًا عاديًا بالنسبة لها.

كنت أتخيلها، وهي بغير زينة، وغير شاردة الذهن، ودون تلك الأوضاع التي كانت تضايقني، كنت أتصورها تبتسم قليلًا وبشعرها الطويل المعقوص خلف رأسها.. مرتدية المريلة السوداء، والياقة الصغيرة البيضاء.

"سيدتي المُدرسة، أحقًا أن الطيور تذهب إلى القداس؟!"

وفي اللحظة نفسها التي يوجه "باتستوني ماريو" سؤاله إلى المدرسة أقرع الباب.. فإني منذ زمن بعيد، أبحث عن عذر لكي أراها مرةً ثانية.

واليوم وجدته وهو عذر لائق، ومع ذلك لايزال قلبي يدق بقوة.. الممر طويل جدًا ومهجور. وعلى جانبي الممر، تنبعث أصوات أطفال الروضة تعلوها أحيانًا صيحات المدرسات، قلت: "هل مسموح؟".

آه.. لقد كنت أتوقع ذلك ولكن كيف تغيرت هكذا في ذلك الوقت القصير، منذ عيد الميلاد إلى شهر مايو؟! إنها لا تضع شيئًا من المساحيق وتبدو في غاية البساطة، ولاتزال تعلو وجهها ابتسامة خفيفة، وشعرها طويل قد جمعته خلف رأسها وترتدي مريلة سوداء بياقة بيضاء، كما تخيلتها وتنظر إلي وتسألني بعينيها.

وهناك "باتستوني ماريو" واقف على قدميه، ويده الصغيرة مرفوعة، ينتظر الإجابة عن سؤاله.

فقلت لها: "يا آنسة، هل عندكم طفل في الفصل يُسمى مارتينللي؟ إنه أخو تلميذ عندي، لم يأت إلى المدرسة منذ يومين، وقد أتيت هنا لكي أسأل".

ولم يكن هذا حقًّا؛ لأنني أعرف جيدًا لماذا لا يأتي مارتينللي إلى المدرسة.

إنه شهر مايو، ومارتينللي يمكث في تلال أوبيو لقطف الزهور، ولمسك الفراشات، ولغناء الطقاطيق السحرية للحلزون لكي تخرج قرونها من القوقعة، فقالت لي:

– إنه من تلاميذي، ولكنه غائب هو الآخر منذ يومين وسوف يعود غدًا ومعه الزهور.

وكانت على مكتبها زهرية صغيرة بها أزهار المارجريت.

فأقول: "هل أحضرها لك تلميذك مارتينيللي؟ إنها الزهور نفسها التي يحضرها لي أخوه.

الآن يجب أن أنصرف، ولكنني لم أفعل هذا، بل اقتربت من مكتب المدرسة.

لايزال "باتستوني ماريو" منتظرًا الإجابة عن سؤاله، ويده الصغيرة مرفوعة.

النافذة مفتوحة.. وتدخل فراشة آتية من الفناء وتكون "روميجولي لاورتا"

أول من يلحظها، وترسل صيحة وهي مُندهِشة، وخلال لحظة تقف الفراشة على أزهار المارجريت التي أحضرها مارتينيللي، ثم تطير ثانيةً وتلف قليلًا حول "الفيونكة" الحمراء المربوطة حول شعر إحدى الطفلات، ثم تقف "مخدوعة" بورقة رسمت عليها بعض الزهور كانت موجودة فوق رف المكتبة.

وتخرج من النافذة، وقد ترك الأطفال مقاعدهم، وتجمعوا عند قاعدها، وتختفي الفراشة بين أوراق شجرة الفناء الكبيرة.

ولقد أثار ظهور الفراشة دهشة الأطفال، ما بين سن الثالثة والرابعة، ثم ساد صمت كبير، فالأفواه فاغرة، والأعين محدقة.

كانت توجد هناك فراشة، والآن لا أثر لها.

وتقول "روميجولي لاورتا": سيدتي المدرسة، عندما أصبح أنا أيضًا فراشة، سأهبط على الزهور! ولم يتعجب أحد في الفصل من تلك الكلمات، لا الزملاء، ولا الزميلات، ولا المدرسة، ولا أنا أيضًا.

إنها طفلة صغيرة إلى حد كبير لها "فيونكة" كبيرة ضخمة وفي ذات يوم، في أحد المروج، ستهبط فراشة على كتف المدرسة، وتلك الفراشة ستكون "روميجولي لاورتا"، وهذا يفسر لنا السر في أن الآنسة كاراتشولو لا تضع المساحيق، وأنها أصبحت بسيطة، ترتدي مريلة سوداء وياقة بيضاء، وصارت عيناها وديعتين، وأسألها: "يا آنسة، هل أستطيع أن أبقى بعض الوقت؟"

ولكن ها هو ذا طفل آخر (يُسمى جاتتو، ولم يكتب شيءً آخر على مريلته).

يقول بصوت مرتجف: "سيدتي المدرسة".

إن عمره ثلاث سنوات ونصف سنة تقريبًا، وتوجد في عينه دمعة واحدة كبيرة، وفمه مفتوح قليلًا، وترى منه سنتان صغيرتان.

يقول الطفل: "سيدتي المدرسة، أريد أن أذهب إلى ماما" وعند ذلك ابتسم..

ولكن المدرسة تظل رزينة!

وتقول لي: "لا" ثم تلتفت إلى الطفل، وتقول له: "إن أمك ليست في المنزل.. إنها...".

ثم تنطق بشفتيها، دون صوتها، بتلك الكلمة الحزينة:

لقد قالوا له: إنها طارت، وهو أيضًا الآن يود أن يطير.. ومن ثم فهو ينظر دائمًا إلى أعلى، وبين أوراق شجرة الفناء ترى زرقة السماء.. يود جانتو أن يذهب إلى أعلى حيث الخطاطيف ليرى والدته.

وأقول: "ولكن الأطفال لا يستطيعون أن يطيروا".

وتقول لي الآنسة كاراتشولو: "لماذا تقول له هذا.. دعه يعتقد ذلك حتى يفهم بنفسه أن الإنسان لا يستطيع أن يطير، وأنه لا يستطيع أن يصبح فراشة".

وتنحني فوق جانتو، وأنحني أنا أيضًا بدوري، وقد لمس شعري شعرها ولكن دون قصد.

ولقد قالت في يوم من الأيام لجاتو: "سنذهب معًا إلى أعلى.. هل ترى تلك السحابة المرتفعة في السماء.. وإذا كنا متعبين سنستريح هناك".

فسألها: "ولكن إذا وقعت؟ فأجابت: "نتشابك بالأيدي".

وقلت: "سآتي أنا أيضًا.. ولقد سُرَّ جانتو لأنه- مع رجل- سيشعر باطمئنان أكبر، وكذلك ستكون الآنسة كاراتشولو مسرورة.

وقد سألتها: "هل هذه هي أول سنة تُدرسين فيها؟".

فأجابت: "نعم، أول سنة.. إنني لم أوجد قط بين الأطفال.. إنك عندما

دخلت كدت لا أعرفك".

– أعرف ذلك.

– ولكني كنت أعرف أنك هكذا.

فأخذها من يدها، كما لو كان قد وجب علينا حقًا أن نصطحب جانتو ليرى أمه.

وتدخل الشمس من النافذة، وكان هناك طفل في يده قطعة صغيرة من الزجاج.. ينظر بدهشة إلى تألقها.

وتلميذ آخر جالس في المقعد الأول، يظهر طرف إصبعه الصغير لمجموعة من الزملاء والزميلات، وعلى هذا الطرف لابد أن تكون علامة لسعة لا يمكن رؤيتها، ويقول:

– أحدثتها لي نحلة.

– كيف تكون النحلة؟

– إنها كبيرة هكذا (ويفتح ذراعيه كما لو كان يريد أن يصف نسرًا) وفي ركن، تقول طفلة لأخرى بصوت خفيض: "في هذا المساء عندما يخيم الظلام، لابد من السير بالفوانيس، فإن تلميذًا كبيرًا من تلاميذ السنة الثالثة، سيذهب مع زملائه إلى متنزه لدفن عصفور صغير ميت".

– ما معنى كلمة ميت؟

– معناها أنه لا يطير ولا يغرد أبدًا.

وتشرح الطفلة كيف تقام الجنازات للعصافير الصغيرة.

تقول إن تلميذ السنة الثالثة، سيرتل الصلاة، وسيردد الزملاء الأدعية وإنها

قد دعيت مع أخيها الصغير التلميذ بالسنة الأولى ليردداها، وهذه الدعوة تملأها فخرًا وعجبًا.

ولاتزال "روميجولي لاورتا" تنتظر عودة الفراشة.

وتنتظر الآنسة "كاراتشولو" مني أن أقول لها:

ولكننا لسنا بحاجة للتحدث في ذلك.

ولكني أسألها شيئًا واحدًا: "أتُرينني ما بداخل حقيبة يدك الصغيرة؟ إنها حقيبة صغيرة مثل حقيبة الطفلة بها منديل صغير جدًا ومطرز، ومحفظة بداخلها ليرة، وبضعة مليمات من النحاس، و"كرملة"، ومرآة صغيرة كان الأجدر بها أن تستعمل للعب في الشمس بدلًا من أن تستعمل الرؤية الوجه فيها.

– إنني لو أمسكت بيدك يا آنسة كاراتشولو، ولم تسحبيها من يدي.. فمعنى هذا أننا لا نرتكب عيبًا، ومعنى هذا أيضًا أنه شيء نستطيع أن نفعله أيضًا أمام تلاميذ الذين يلعبون في الشمس، والذين يدفنون الطيور الميتة، والذين يريدون أن يطيروا إلى أعلى عند الأم، وعندما يكونون متعبين يستريحون على متن سحابة صغيرة.

أعود إلى فصلي.. مضت ساعة لم أشعر بها، ولكننا عند الخروج سنتلاقى، فإن فصول الروضة تخرج قبل الفصول الأخرى بنصف ساعة، وستنتظرني الآنسة كاراتشولو.

غدًا في الصباح، سيحمل لها تلميذها مارتينيللي أزهار المارجريت الصغيرة، وسيحمل لي أخو مارتينيللي الأزهار المقطوفة نفسها من المرج نفسه.

وفي رقعة السماء التي تشاهد من النافذة، تبحث "روميجولي لاورتا" عن الفراشة، وأما جانتو فيبحث عن أمه، وأما أنا، والآنسة كاراتشولو، فكلانا يبحث

عن تلك السحابة التي خيل إلينا أننا جلسنا عليها في تلك اللحظة التي أمسكت فيها بيدها.

قد حانت ساعة الخروج.

الآنسة كاراتشولو تنتظر في ركن خارج المدرسة.

وأسألها: "ما اسمك؟ أنا أعرف فقط أن اسمك يبتدئ بحرف التاء".

فأجابت: "تريزا".

فاستطردت قائلًا: "ألم يكن يؤنبك أحد عندما كنت تضعين المساحيق على وجهك، وتبدين هكذا مختلفة عن حالتك الطبيعية؟!

أجابت: "لا أحد.. لكن كان يحدث أن أطفال فصلي يريدون تقبيلي، وكنت مضطرة إلى منعهم من ذلك، وكانوا يطلبون مني أن أفتح الحقيبة الصغيرة ليروا إذا كانت توجد بداخلها "الكرملة" وكان لابد أن أقول "لا".

ونمسك بالأيدي مثل الأطفال.. ونمر أمام إحدى الكنائس.

فقلت لها: "قد نسينا شيئًا"

– أي شيء؟

– وقد نسينا أن نجيب "باتستوني ماريو" عندما سأل: "إذا كانت الطيور تذهب حقًا إلى القداس؟!".

فأجابت: "ماذا تقول؟".

ونرفع أعيننا حول برج الكنيسة، حيث تحوم الخطاطيف دون تغريد.. أنا أعتقد صواب ذلك.. أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يصبح فراشة، ويمكنه أن يطير في السماء، ويمكنه أن يأخذ بيد مدرسة شابة تدرس في قسم الروضة، ذات

عينين كبيرتين، ومرآة صغيرة، ويحس في قلبه بسعادة كبيرة.

غدًا في الصباح، عندما سترين "باتستوني ماريو" قولي له: نعم، قولي له: إن الطيور أيضًا تذهب إلى القداس، قولي له: نعم، يا آنسة كاراتشولو تريزا.

ولقد صارت الآنسة كاراتشولو تريزا فيما بعد زوجتي.

الفصل السادس عشر

الساعة الصغيرة الزائفة

كنت غائبًا مدة يومين، وعدت إلى المدرسة، فوجدت الفصل في غاية الحيوية، ومارتينيللي في غاية الضيق.. والمدرس الاحتياطي "صادر" ساعته الصغيرة الزائفة، وهي ساعة من تلك الساعات الصغيرة التي تساوي ثماني أو عشر مليمات، ولا تدور.. ولكن لها ميزة ليست الساعات الحقيقية: إنك تستطيع أن تضبطها في الزمن الذي تريده، وحتى إذا لم تلف العقارب من جديد تبقى هذه الساعة كما هي.

الزمن مع هذه الساعات الصغيرة، إما أنه لا يمر وإما أنه يمر بسرعة تجعلنا نقضي شهرًا من الزمن في دقيقة واحدة، وإذا أدرنا العقارب إلى الخلف، فإن ساعات الشهر الماضي، أو السنة الماضية.. تلك الساعات التي كنا نعتقدها قد ضاعت إلى الأبد، تعود إلينا.

فالأولاد هم وحدهم الذين يملكون مثل هذه الساعات الصغيرة، أما نحن الكبار فلدينا الساعات الحقيقية التي تشير بأمانة إلى الزمن الذي يمضى دقيقة تلو دقيقة، ولو وقفت فمعنى ذلك أنها فاسدة. اشتراها مارتينيللي من دكان صغير قريب من المدرسة.. من دكان الخردوات الصغير الذي بقي كما هو منذ طفولتي، حيث تباع حتى أيامنا هذه الأشياء الصغيرة نفسها التي كانت تباع للأولاد منذ عشرين سنة مضت منها ساعات صغيرة، وعربات من الصفيح الأخضر بالسائق والخيول الملونة باللون الذهبي (هل تتذكرون تلك الخيول الصغيرة من الصفيح

التي قبل أن تمضي ساعة على شرائنا لها كنا نقسمها إلى نصفين، والحصانان كنا نجعلهما أربعة، والأربعة كنا نجعلها ثمانية) وعفاريت النماء، وزجاجات في منتهى الصغر كانت تساوي مليمين وبداخلها الماء الملون بالأحمر والأخضر وكنا نشربها في الخفاء، ونحن مقتنعون أنه مشروب كحولي.

ويريد مارتينيللي الآن– مرة ثانية– ساعته الصغيرة، ويقول:

"سيدي المدرس، لم أكن أحدث ضررًا بهذه الساعة، كنت أدير العقارب ليمر الوقت بسرعة.. المدرس الاحتياطي كان مملًا قليلًا".

وهذا المدرس عجوز متعب، لا فصل له.. يجلس في حجرة السكرتير تحت تصرف الإدارة، يرسل البريد، ويملأ شهادات الدبلوم، وينظم المكتبة.. وأحيانًا عندما كان يتغيب مدرس عن فصل، كان يقوم هو بالتدريس بدلًا عنه.. وهو يتكلم ببطء؛ لأنه متعب وليس له من الصبر مع الأولاد ما كان له في أيام الشباب ولهذا فقد "صادر" ساعة مارتينيللي، وكان يريد أن يلقيها في السلة، ولكنه بالعكس وضعها في جيبه وهو متذمر. والآن عندما دخلت حجرة السكرتارية لأسأله عن الساعة؛ لأنني يسيئني أن يبقى مارتينيللي دون ساعته) وجدته والساعة في يده، وهو يدير العقارب مثل مارتينيللي، ولكنه ربما كان لا يفعل ذلك لكي يجعل الوقت يمر بسرعة، بل لكي يعيد زمن الماضي الذي لن يعود إلا بمساعدة ساعات الأطفال الصغيرة، وحين يراني يضعها في جيبه من جديد وقد أحمر وجهه قليلًا.

إنه أكبر مني سنًا إلى حد أني لا أستطيع أن أتكلم معه إلا بصيغة الاحترام.

وقلت له: "علمت أن سيادتكم قد صادرتم ساعة تلميذ لي.. لقد فعلتم خيرًا، إنني أنا أيضًا لا أسمح بوجود مثل هذه الأشياء في أثناء التدريس".

فأجاب: "إنه عيب فظيع، فالأولاد ينشغلون ويشغلون زملاءهم أيضًا، إنكم

معشر الشباب متسامحون أكثر من اللازم، لابد من قسوة أكثر وشدة أكثر.. الساعة لدي، أتعشم ألا تكون لديك رغبة في أن ترد الساعة إلى الولد".

يقول كل هذا، بينما يتحاشى نظرتي.. وأنا أيضًا أتحاشى نظرته، فأنا لا أريد أن أظهر أن لدى الرغبة الشديدة لأسترجع الساعة الصغيرة من جديد، وأفهم منه أنه لا يريد أن يردها، وأنه يخشى أن أسأله عن الساعة.

فقال المدرس العجوز لي: "وحتى أنا، لم أرَ هذه الساعة جيدًا، ولكني أعتقد أنها ساعة صغيرة زائفة تساوي مليمات قليلة، ولا تستحق أن ترد إلى الولد" فأقول: "ولا أنا أيضًا لدي فكرة عن هذه الساعة، ولكن عند نهاية السنة أقوم برد كل الأشياء المحجوزة إلى الأولاد ولذلك أرجو سيادتكم أن تعطيها لي، وسأضعها في درج المكتب وأغلق عليها".

– لو كانت الساعة معي الآن لرددتها إليك، ولكني أعتقد أني تركتها في البيت ويؤلمني ذلك.

يا لكذبتك الكبيرة! أيها المدرس العجوز، وما أسعدك بأن تكون الساعة زائفة، ولا يسمع لها صوت: "تك.. تك.. في جيبك!"

فإنك تريد الساعة لنفسك، لتلعب بها مثل مارتينيللي، ولكي تدير العقارب إلى الخلف، وتعيد الزمن الماضي.. ذلك الزمن الذي لم يكن لديك فيه هذا الشعر الأبيض، ولم تكن تغضب من الأولاد، ولم تكن "تصادر" منهم الأشياء التي ليس لها صلة بالدرس، ولكن يستحسن أن تردها.. ولكي نترك للأولاد تلك الأشياء، يجب أن تقتنع بالساعات الحقيقة، تلك الساعات التي لا تدور إلى الخلف، والتي لا تقف حسب الإرادة، والتي بدقيقة تلو دقيقة تعلن عن الزمن الماضي، وأما الزمن الحاضر فتظهره لنا في اللحظة نفسها التي يمضى فيها.

أرجع إذن الساعة لمارتينيللي، فقال المدرس العجوز: "مادمت متمسكًا بتلك الساعة، فسأجعلك

تستردها عن طريق السيدة المديرة".

وأخذ من جديد في كتابة الدبلوم الذي تركه، مسكين ذلك المدرس العجوز، الذي ما أن أبتعد عنه، حتى ينتزع بخفة من جيبه ساعة مارتينيللي الصغيرة ذات السلسلة الصفيح، والتي تدور عقاربها كما تريد أنت، وتقف على الساعة التي تريدها. ولو كانت هذه الساعة الزمنية جميلة بالنسبة لك، فستظل باقية على ما هي عليه، ولو مائة عام.

فقلت لمارتينيللي: "لم أنجح في إعادة الساعة الصغيرة لك، إنها عند المدرس الاحتياطي في المنزل، غدًا سيحضرها إلى السيدة المديرة".

ليس مارتينيللي هو الوحيد الذي كان متضايقًا، ولكن الفصل كله كان متألمًا من ذلك. هذا الشتاء (على ما أذكر) كان مارتينيللي في أثناء الفسحة يخرج من جيبه تلك الساعة، وكان زملاؤه يلتفون حوله. بينما كانت السماء تمطر من الخارج، وكانت ملبدة بالغيوم فوق الفناء، والشجرة حالكة السواد وأغصانها جافة. ولم يكن هناك أمل في صفاء السماء، وكان الربيع يبدو وكأنه شيء قد مضت عليه مائة سنة. إنه تذكار بعيد جدًا، لا يتحسر عليه أحد، ولو قالوا: "لن يأتي بعد، لصدقنا ذلك!"

ولكن مارتينيللي كان يبتدئ في لف العقارب بسرعة وبعد قليل، كان يقول: "مضى شهر فبراير" وكانت العقارب لا تزال تلف، ومارتينيللي يتوقف في شهر مارس.

ويقول: "هل حضرت الخطاطيف؟" ونظر الجميع إلى السماء الملبدة بالغيوم،

ولكنهم رأوها زرقاء. ورأوا الفروع الجافة قد ابتدأت في الظهور بها أوائل الأزهار، وكانوا يسمعون تغريد الخطاطيف، ويضحكون مسرورين.

كانت أيديهم منتفخة من شدة البرد، ولكنهم كانوا يفكرون في أن يأخذوا بأيديهم الفراشات.

كان مارتينيللي يقول: "إبريل!" ولم تكن توجد الزهور الأولى على الفروع بعد، ولكن كانت هناك أوراق صغيرة خضراء. وكان يوجد على الأرض خيط كبير من الشمس يخترق الفصل، ويرتفع فوق الحائط الذي أمام النافذة.

"إبريل!" في صمت كان الأولاد يسمعون، وينصتون إلى الطنين الأول في الفناء، طنين الذبابة الكبيرة الملونة ذات الأجنحة التي كانت تبدو كإنها الصدف. وصاح الأولاد: "إنها ترتطم بالزجاج! إنها تقرع الزجاج لتفتح النافذة ولتدخلها. ولكن سرعان ما انتهى شهر إبريل، وجاء شهر مايو، وقد أصبحت الشجرة مورقة بأوراق كبيرة ملونة بلون أخضر داكن، وأمام هذا اللون الأخضر الداكن كانت تمر الفراشات البيضاء.

شهر "يونيه" ياالحرارة الامتحانات، والعرق من مسائل الحسا!ب، ولكن خلال أيام قلائل ستنتهي المدارس، ولن تكون هناك مرايل صغيرة بعد. أخيرًا سأرى كيف تكون ملابس "مارتينيللي" الداخلية. وأخيرًا سأرى "ماستروفيني" بزي البحرية، وصديريًا "سبادوني" الصيفي ذي الخيوط الزرقاء والصفراء.

لا يفكر أحد أبدًا في الملابس التي يرتديها الأولاد تحت المريلة، في أثناء الدراسة، ولكننا في آخر يوم في السنة نرى التلاميذ وكل منهم يلبس بطريقة مختلفة، ويبدو غريبًا غير مألوف. ومما يثير الدهشة رؤية "سبادوني" الذي كان يرتدي قبل ذلك مريلة طويلة، تصل حتى قدميه مريلة باهتة اللون، قديمة، والآن

يرتدي صديريًا ذا خطوط ملونة فاقعة اللون.

شهر "يونيه" أوراق شجرة الفناء، كثيفة الأوراق، تحدث ظلًا كبيرًا لبعض أوراقها أطراف مصفرة، ومن يعرف أين يغني صرار الليل، والحوائط بيضاء ناصعة.

ولكن ساعة الاستراحة قد انتهت ويضع مارتينيللي الساعة في جيبه من جديد، وداعًا أيها الربيع، وداعًا أوراق الشجرة، فقد كثرت السحب في السماء من جديد، واسودت الشجرة ذات الفروع الجافة.

ولو أنهم قالوا لنا: "إن الربيع لن يعود بعد" فسنصدق ذلك.

أتفهمون لماذا سأذهب غدًا عند المديرة، ولو أن في قلبي شيئًا من الخوف؛ لأنها قاسية. إنني سأذهب عندها لأسترجع منها ساعة مارتينيللي الصغيرة. ولكي أصل إلى حجرة المديرة، لابد لي أن أمر بحجرة السكرتارية، حيث أجد المدرس الاحتياطي يجلس هناك منحنيًا فوق الشهادات. إنه اليوم أكثر انحناء، وأكبر سنًا؛ لأنه ليست معه الساعة.. تلك الساعة التي كانت تعيده إلى عشرين عامًا مضت.

ربما أكون قد أسأت إليه عندما طلبت منه تلك الساعة وينظر إلى عابسًا، ويأمل في دخيلة نفسه ألا ترجعها إليه المديرة.

وقلت: "هل مسموح؟".

– تفضل.

إن المديرات لا يفتحن النافذة تمامًا، حتى ولو في الصيف، بل يمكثن دائمًا في الضوء القليل. الحجرة رطبة، وترى على الشرفة خطوط الشمس وهي تمر عبر "الشيش" وتظهر على الأرضية لامعة جلية. وعلى مكتب المديرة مجموعة صغيرة من الكتب، وساعة من البرنز لها بندول، تسمع دقاته قوية في ذلك الصمت، وختم المدرسة، وكوم من التقارير عن حالة الطلبة للتوقيع عليها، وأمام المديرة

بالضبط كتاب جديد في صفحاته الأولى قطاعة ورق وفوق الكتاب ساعة مارتينيللي الصغيرة، وتستمر المديرة تلف العقارب بالأصبع إلى الخلف مثلما كان يفعل المدرس الاحتياطي العجوز. إن الأطفال وحدهم لا يخشون من إدارة عقارب الساعات إلى الأمام، فإنهم في فصل الشتاء، يضعون الساعة في الربيع.

لأنه ليس لديهم خوف من ألا يروا الربيع من جديد. أما الشيوخ فبالعكس لا يريدون تقديم الساعة، فإنهم يخافون من تقديم عقاربها إلى الأمام؛ لأنها عند نقطة معينة تقف، ولا تتقدم أكثر من ذلك، ومن ثم تدير المديرة أيضًا العقارب إلى الخلف.

كان كل شعرها تقريبا أبيض، وكانت توجد على مكتبها خلف مجموعات الكتب صورة لطفلة تشابهها تمامًا، كما كانت هناك باستمرار زهرة أمام تلك الصورة. ورويدًا رويدًا، تعود العقارب إلى الخلف. ولا يعود شعر المديرة أبيض اللون، وتبتسم الطفلة. إنها حية! ولا تريد السيدة المديرة أكثر من ذلك– من ساعة مارتينيللي الصغيرة– العقارب واقفة على ساعة في يوم لا يذكره غيرها وهكذا ستبقى.

بهذه الساعة، يرى مارتينيللي الربيع الذي يجب أن يعود أما المديرة فإنها تري ربيعًا آخر، ومن يعرف منذ كم سنة مضى هذا الربيع، عندما كانت الطفلة صاحبة الصورة تحيا، وتقول لها: "ماما" ولم يكن أحد يدري أن ذلك الربيع كان الأخير من عمرها.

رويدًا.. رويدًا.. تنزع المديرة الزهرة من الصورة، وأخيرًا تنظر إلي وتقول: "هل تريد أن تسترجع الساعة الصغيرة مرةً ثانية؟"

– كلا يا سيدتي لقد أتيت.. لقد أتيت من أجل شهادات الطلاب، وإذا كنت قد وقعت عليها هل أستطيع أن أخذها؟!"

وأخذها وأعرج على أطراف أصابعي من تلك الحجرة الرطبة الصامتة، حيث

كانت صورة الطفلة قد أصبحت في غير حاجة للأزهار.

ويفرح المدرس الاحتياطي؛ لأنه يفكر في أن الساعة سينتهي بها الأمر إلى أن تعود بين يديه، ولا يعرف أن المديرة لن تعطيها له أبدًا. هذه الساعة الصغيرة الزائفة التي ستبقى دائمًا على مكتبها، أمام تلك الصورة ومكان تلك الزهرة.

أما مارتينيللي، فماذا يكون شأنه؟

فقبل أن أدخل الفصل، أنزل وأهرع إلى دكان الوراق؛ لأن المديرة حتى ولو علمت ذلك لما أخذتني. وقصدت ذلك العجوز الذي اعتدت أن أراه فيها منذ سنة مضت، عندما كنت أشتري أنا أيضًا الساعات الزائفة.

ولكني اشتريتها في هذه المرة لمارتينيللي، واشتريت له ساعة مثل السابقة بالضبط، وثمنها ثماني مليمات كما كانت في أيامي، ووددت لو قلت للعجوز: "هل تذكرني؟ لقد كنت أجيء دائمًا هنا. لقد اشتريت كثيرًا من هذه الساعات الصغيرة منك، وشربت كثيرًا من تلك الزجاجات الصغيرة المملوءة بالماء الملون".

كان من المستحسن ألا نقول هذه الأشياء، وأن يحتفظ بها كل شخص لنفسه، وعندما دخلت الفصل من جديد، أشرت بحماسة إلى الساعة الصغيرة.

وكان "مارتينيللي" سعيدًا، ويسأل قائلًا: "سيدي المدرس، لن تفسد؟!"

– اختبرها يا مارتينيللي، ويلتف الزملاء حوله، ويقولون: "يوليه، أغسطس، سبتمبر" أوراق شجرة الفناء أصبحت صفراء وحمراء، والسماء زرقاء ولكنها زرقة أفتح مما كانت في الربيع. وصرار الليل لا يغني بعد، ويخيل للأطفال أن أيديهم لزجة بسبب عصير العنب.

ومارتينيللي مسرور ويقول: "الساعة تدور جيدًا يا سيدي المدرس".

الفصل السابع عشر

الضوء في العلبة الصغيرة

لم تبق سوى أيام قلائل على الامتحان، وقد حضرت والدة ليوناردي هذا الصباح، لتخبرني أن ابنها ظل ساهرًا حتى منتصف الليل لاستذكار تواريخ حروب الاستقلال. لقد كان لون وجهه شاحبًا حقًا، وأصبح نحيلًا هزيلًا. وبدأ في لبس النظارات على صغر سنه، وفارقه مرحه وضحكه. لقد امتلأ رأسه بالتواريخ، فأصبح ساكنًا في مقعده كل السكون. وعندما يغادر مقعده يسير ببطء؛ لأنه يخشى أن تفقده كثرة الحركة جميع هذه التواريخ التي علقت بذهنه بمعجزة، ولكن عندما تنتهي الامتحانات، فإنه سيبدأ في الجري من جديد. وفي يومٍ واحد سينساها جميعها، واحدًا تلو الآخر وكأنه يبعثرها في المروج. وبدهشة بالغة سيجد من يمر بين زهور الأقحوان، والخشخاش، تاريخ [1] (١٨٤٩) الذي وقع منه في أثناء لعبه، وبه صرصور مختبئ في رأس الرقم (٩).

أما سبادوني، فإنه على العكس من ذلك يسير ببطء حتى لا ينسى اسم عاصمة السويد، وطول نهر البو.

ومارتينيللي يستذكر أيضًا، ولم يعد يذهب إلى الحدائق، وهو الذي كانت يداه مملوءتين بالزهور دائمًا، وقلبه مع الفراشات. الآن يمكن أن يقرأ في هاتين العينين قسمة الأعداد العشرية، ولكن جميعها خاطئة.

---

(١) نهاية الحرب الأولى من حروب الاستقلال الإيطالية (١٨٤٨- ١٨٤٩).

وفي الأسفل بالفناء لا يمكن للإنسان أن يرى؛ لأن الشمس تنعكس على الجدران ناصعة البياض، والحصى الأبيض الذي يغطي الأرض يلمع أيضًا هنا وهناك، والستائر منسدلة على النوافذ، والفصول ممتلئة بالأطفال، ولكن لا يمكن لإنسان أن يسمع صوتًا. ونرى ظلال الخطاطيف على الحصى وهي تمر دون أي غناء فالجو حار، وقد تراخت أوراق شجرة الفناء، دون أن تتحرك. وفي منتصف النهار، يبدأ غناء صرار الليل الذي يصل إلى ظلال الفصل، وتتفتح عينا مارتينيللي، ويمكن قراءة قسمة الأعداد العشرية وقد ازدادت أخطاؤها.

وينتهي صرار الليل من غنائه، وفي المساء ستبدأ جماعاته الموجودة في المروج المجاورة للحي في الصياح، وكذلك ستبدأ اليراعات في الطيران واليراعات هي نجوم الأطفال؛ لأنهم– لصغر سنهم– لم ينظروا بعد إلى أعلى، بل يكتفون باليراعات التي تظهر أحيانًا وتختفي أحيانًا، ويمكن تتبعها ويمكن أخذها. ولكن النجوم كانت على العكس من ذلك، بعيدة جدًا.

وعندما تأخذ إحدى اليراعات، فإنها توضع علبة صغيرة مثقبة، وبذلك في تكون العلبة مملوءة بالضوء.

وفي هذه المراعي نفسها، كنت أذهب أيضًا في المساء– وأنا في مثل سنهم– ولم أكن أعرف جيدًا إن كانت هذه اليراعات أرواحًا أم نجومًا، ولكن كنت أغلق عليها علبة صغيرة، وكنت أحملها إلى المنزل لتبعث لي ضوءًا إلى جانب سريري. إنه ضوء من الفضة، وكنت أنفخ عليه من أعلى لأرجعه من جديد.

ومن أجل الامتحان، كان مارتينيللي قد ابتعد عن الفراشات في النهار، ولكنه لم يمتنع عن اليراعة أو الصرار. وكان يخرج من المنزل بعد العشاء مباشرةً مع أخيه الأصغر، وولدين أو ثلاثة من أولاد السنة الأولى الذين يسكنون في نفس المنزل. فالمروج قريبة جدًا، ويمكن منها رؤية النوافذ المضاءة، وخيال الوالدة في المطبخ.

ومن المستحسن ألا يكون هناك ضوء القمر، حتى يتمكن المرء من رؤية اليراعات جيدًا، وعند الجلوس على الحشائش، يمكن رؤية تلك النجوم الصغيرة تظهر ثم تختفي وتمر قريبة جدًا. حتى تبدو وكأن المرء يستطيع أن يمسكها بيده. ولكنك لو مددت يدك، فإنك ستجدها تلمع من بعيد. هناك بالقرب من صرصور لا يُرى، ولكن يسمع صريره؛ فإنه ولا شك صرير خافت جدًا صادر من تلك الصراصير التي لم تخرج بعد من أعشاشها المصنوعة من الأوراق والطين. وتظل على العتبة للتطلع إلى اليراعات التي تبدو لها كإنها نجوم، فالأطفال وصرار الليل لهم نفس السماء.

ويوجد من بعيد صرصور كبير، لابد إنه من تلك الأنواع السوداء التي تنجح في الهروب من اليد بعد أن تمسك بها، فإنه يقفز ثم يسقط على مجموعة من اليراعات المطفأة، فيطيرها خائفة مذعورة مثل الشرارات.

إنه ضخم لدرجة إنه يحدث اهتزازًا في سيقان الزهور، عندما يقف بجانبها، أما إذا وقع على إحدى الوريقات الجافة، فيسمع له صوت وسط السكون.

وربما يمكن في الليل، وفي هذا السكون المخيم، سماع صوت نمو النباتات الصغيرة، وتفتح الأزهار، وسير النمل، وينصت الأطفال إلى تلك الأشياء التي تحدث تحت سماء منخفضة، وهم جالسون على الحشائش، متماسكين بالأيدي. إنها سماء منخفضة بمقياس قفزة صرار الليل، أو تحليقة إحدى اليراعات.

"هل نعود إلى المنزل؟ إن الصغار خائفون جدًا من طقطقة إحدى الجذور عندما اصطدم بها أحد الزنابير الشاردة، ومن سقوط صرصور على ظهر أيديهم. وينظرون إلى النوافذ المضاءة التي يظهر من خلالها خيال أمهاتهم، فإن ذلك يطمئنهم بعض الشيء. هل تعود إلى المنزل؟".

لم يحن الوقت، إن مارتينيللي يريد أن يأخذ اليراعات، ويترك ليوناردي ليستذكر تاريخ حروب الاستقلال حتى منتصف الليل. ولدى مارتينيللي علبة صغيرة يريد أن يضع يراعة بداخلها ويترك سبادوني ليحفظ عن ظهر قلب اسم عاصمة السويد وطول نهر البو، بينما يضع هو الآن بداخل العلبة ورقة شجر لتكون غذاء لليراعة، ولكن أي شراب تشرب اليراعات؟

"وهل تشرب اليراعات؟!".

ماذا تريد يا مارتينيللي أن يعرف أطفال السنة الأولى الثلاثة الذين يرتدون مرايلهم المدرسية، والذين يخافون الزنابير وقلوبهم متجهة إلى خيال أمهاتهم؟

وتحت هذه السماء المنخفضة إلى علو قفزة صرار الليل، أو تحليقة إحدى اليراعات، يستمر النمل في سيره، والزهور في نموها، وصرار الليل في رؤيته للعالم من عتبة منزله.

يسير سبادوني في هذا الصباح أكثر بطأ، لقد تعلم أشياء أخرى في هذه الليلة. والآن فضلًا عن معرفته لطول نهو البو، وعاصمة السويد، يجب أن يحترس ويأخذ حذره حتى لا يفقد ما يعرفه عن النرويج وليتوانيا.

مساكين هؤلاء الأطفال، فإن أدمغتهم لابد أن تحفل بالأسماء الغريبة، ولكن من هو ذلك المدرس الذي لديه الشجاعة في ألا يسأل أطفال السنة الخامسة في الامتحان عن عاصمة ليتوانيا؟

إن هذا السؤال يعتبر انتقام الكبار من الصغار.

"لا شك أنك تلهو وتلعب، وليس عندك أدنى مسئولية، والحياة بالنسبة لك لطيفة مملوءة بالزهور وصرار الليل فقط. قل لي ما هي عاصمة ليتوانيا؟"

وتنبثق من تلك الحياة المملوءة بالزهر والصرار أول دمعة.

وليوناردي مشحون كله بالتواريخ، ولا يتحرك أبدًا، وتكفي حركة خفيفة لتتساقط تلك التواريخ على الأرض، وتتناثر مثل تروس الساعة.

"مانيلي" شاحب، ونحيف، وعيناه واسعتان ولا يفتح فمه؛ لأنه لو فتحه برهة قصيرة فستخرج منه جميع الأفعال الشاذة واحدًا وراء الآخر ولا تعود أبدًا، وعلى ذلك فإن فمه سيبقى مقفولًا حتى في لحظة الامتحان.

إن الفعل الشاذ– مثل الطائر الصغير– إذا راعيته وغذيته وربت عليه بيدك سكن، ولكن إذا فتحت القفص، فسيهرب بعيدًا. مهما حاولت أن تغريه وتناديه بأحسن الأسماء، ويحوم حولك، ويخيل إليك أنك قادر على أخذه ثانيةً، ولكنه لن يعود ثانيةً إلى القفص.

وما شأن مارتينيللي؟

آه إني خائف على مارتينيللي ألا يجتاز الامتحان؛ فإنه ينظر إلي، ولكن لا أستطيع أن أقرأ شيئًا في عينيه عن قسمة الأعداد العشرية مثل أمس.

ويوجد ضوء مكان قسمة الأعداد العشرية.

وهذا الضوء هو ضوء اليراع المقبوض عليه داخل العلبة الصغيرة، ويسألني:

– يا سيدي المدرس، هل تشرب اليراعات؟ وحتى أنا أيضًا لا أعرف؛ فإنه سؤال أصعب من سؤال عاصمة ليتوانيا.

وأقول له: "مارتينيللي يجب عليك أن تستذكر، لا تضيع الوقت في عمل هذه الأشياء، أراهن على أنك كنت سائرًا مساء أمس في المراعي".

– نعم، لقد كان هناك صرار الليل يا سيدي المدرس، وقد ظل ثابتًا في نقطةٍ واحدة، كان صغيرًا وكان خائفًا من القفز".

آه.. لماذا أمنع مارتينيللي من الاستمرار في الحديث؟

لماذا لا أعيده إلى مكانه بتأنيب شديد؟ وماذا يجتذبني القصة صرار الليل، ولماذا أتحرق شوقًا لكي أرى ما في العلبة، تلك اليراعة التي أخذها مارتينيللي ليلة أمس؟

ربما لا أكون مدرسًا طيبًا، ولكن تلك العلبة الصغيرة عبارة عن مغناطيس وليوناردي أيضًا مملوء بالتاريخ، لا يستطيع أن يحدق فيها النظر ولديه رغبة فيها. ومانيلي، إني أفهمه جيدًا لابد أنه يبذل مجهودًا ضخمًا لكي لا يسأل ويقول: "هل تريني يا مارتينيللي ما بداخل العلبة؟"

ولكن إذا فتح فمه، فستطير منه جميع الأفعال الشاذة، كما لو كانت طيورًا صغيرة، ومارتينيللي سعيد. سعيد بذلك الضوء الذي لا يراه، ولكنه يعرف أنه يتألق داخل العلبة.

لا أستطيع أن أسأله أو أقول له: "هل تريني يا مارتينيللي ما بداخل العلبة؟!"

ولكن ليس هناك أحد عندما يكون سعيدًا– من يستطيع أن يقاوم الحاجة إلى إظهار سعادته ويعطيني مارتينيللي العلبة الصغيرة قائلًا: "سيدي المدرس، هل تريد حقًا أن تراها؟".

وأتساءل بجد ووقار، ولكن ليس إلى الدرجة التي تخيفه، وتجعله يفكر في استعادة العلبة: "هل تريد حقًا أن أنظر إليها؟"

وأقول في صوت يحمل معاني التساهل: "لنرى هذا الضوء الجميل الباهر".

ولكن قلبي كان يدق بعنف، عندما كنت أفتح غطاء العلبة شيئًا فشيئًا حتى لا تهرب اليراعة. وكان مارتينيللي يرقبني مبتسمًا، وأنا أرفع الغطاء بحذر وبطء.

وكان الفصل وكأنه في منطقة شبه الظل، سأرى جيدًا ضوء اليراعة.

ولكن أين الضوء؟ إنه غير موجود.

وعلى ورقة الشجرة المنكمشة ترقد اليراعة ميتة ممددة، وتبدو العلبة كأنها حجرة صغيرة ذات جدران عالية باردة أو سرير صغير.

وسأل مارتينيللي، وهو واثق من سعادته، حتى أنه لم يتعب نفسه بالمجيء والنظر إليها: "سيدي المدرس، هل لها ضوء كثير؟".

لماذا أجيبه بالنفي؟ مادامت هناك سعادة، فإنه يكفي الاعتقاد بامتلاكها، وأغلق الغطاء ثانية، وأقول له:

"إنه ضوء جميل جدًا يا مارتينيللي، ولكن استذكر الآن. استذكر قسمة الأعداد العشرية، وإلا فإنك لن تنجح، تذكر هذا جيدًا".

وبعد أن أخذ مارتينيللي العلبة ثانيةً، عاد إلى مكانه، وجلس بجد هذه المرة، وأخذ يستذكر قسمة الأعداد العشرية وهو يكتب، ويكتب في غاية السعادة.

أمام عينيه العلبة، ينظر إليها من حينٍ لآخر، وبعد ذلك يبدأ في الاستذكار وهو أكثر نشاطًا.

لقد ماتت اليراعة، ولكنه لا يعرف يوجد ظلام داخل العلبة، ولكنه يظن أن هناك ضوءًا كثيرًا وأنه كما لو كان.

ويستذكر ويستذكر، وربما كان ذلك بفضل تلك اليراعة الصغيرة الراقدة على الورقة المنكمشة التي يعتقد أنها حية تصدر ضوءًا، ربما بفضلها سيتعلم مارتينيللي قسمة الأعداد العشرية وينجح في الامتحان.

الفصل الثامن عشر

آخر يوم في المدرسة

بعد قليل سيدق الناقوس، وستكون ساعة الوداع يا أولاد.

لقد قضينا معًا كل الأيام لمدة عامين، وكان مانيلي صغيرًا جدًا، يرتدي مريلة جديدة واسعة كانت تصل إلى قدميه. والآن ها هي ذي المريلة قد بهت لونها وتصل إلى الركبتين، ومانيلي الآن رجل صغير. ويؤسفني أن أمه لا تستطيع إرساله إلى المدرسة الثانوية، أمه التي كنت أقابلها كل صباح في السوق بحقيبتها التي كانت تبدو فارغة، ولكنها على العكس كانت تحوي حاجاتها وحاجات أولادها الأربعة.

لقد وزعت الشهادات، ونجح مارتينيللي. إنه ينظر إلى الدرجات دون أن يصدق حتى نفسه. وفي هذا الصباح، قامت أمه بتصفيف شعره، وربطت له "كرافتة" جديدة كانت تبدو كأنها فراشة بيضاء هائلة.

ونجح "كريبا" أيضًا ذلك الطويل القامة، ذو السنوات الثلاث عشرة وذو الساقين الكثيفتي الشعر، والذي ينام دائمًا، والذي سيذهب في العام القادم إلى المدارس الثانوية لينام.

ولم يرسب سوى أنطونيللي ذلك الصبي الذي قضى كل العام في حفر اسمه على الدرج مطواة من صدف السلحفاة، ولكنه كان بطيئًا لدرجة أنه كتب من اسمه "أنطون" فقط، وفي العام القادم سيكون عنده أستاذ آخر، وسوف يكتب

"يللي" (بقية اسمه) ثم من المحتمل أن ينجح.

وقولوا وداعًا أيها الأولاد.. وداعًا لشجرة الفناء التي شاهدناها معًا مرتين، وهي تخرج أوائل أوراقها وزهورها. والآن نراها في منتصف النهار مملوءة بالصراصير التي تغني، والتي تضايق السيدة المديرة. إن هذه الصراصير لم تستطع معرفة أهمية هذه السيدة التي كانت تخيف الأولاد والمعلمين بتحريك سبابتها، تلك الصراصير التي كانت تستمر في الغناء، ولكنها في هذا الشتاء ستموت. فما أقصر الحياة للذين يغنون، أو لمن يقصر حياته على الفناء! وما أطولها لهذا الذي يعيش حكيمًا ويشتغل ويجمع في صمت!. ولكني أنا لم أقم بالتدريس لأولادي حسب النظام المتبع في المدارس الابتدائية، من حيث احترام النملة، واحتقار الصرصور. ولم أعلمهم حتى تعظيم التواضع المشهور عن زهرة البنفسج أو أهمية– "أخيل"[1]– ذلك المحارب الثقيل الظل الذي لو لم يكن محصنًا من الطعن لا أدري هل كان ليرمي بنفسه في المعارك طواعية وعن طيب خاطر؟

وإذا كتب الأولاد في موضوعات الإنشاء عن ذلك الصبي الأبله الذي أخذ من والدته خمس ليرات ليشتري لعبًا وحلوى، ولكنه بدلًا من ذلك أعطاها للفقير العجوز الذي لاقاه عند زاوية الشارع؛ فإني كنت أعطيهم درجة سيئة.

ولهذا، فإن تلاميذي جميعًا ظرفاء، وإنه لما يحزنني أن أتركهم.

وكان "سبادوني" يعمل مخبرًا على زملائه منذ عامين في أوائل الأوقات التي قضاها معي، أما الآن فيعتريه الخجل. و"مارينتشي" كان يبكي عندما كانوا يضربونه، لقد كانوا يضربونه كل يوم، وكان يبكي باستمرار. أما الآن فإن أحدًا لا يستطيع أن يلمسه أبدًا؛ لأنه تعلم كيف يجعلهم يحترمونه، وإن هذا الأكثر فائدة

---

(١) أحد الأبطال اليونانيين (الإغريقيين) في حرب طروادة.

في الحقيقة من أن يتعلم التلميذ طريقة استخراج الجذور التكعيبية.

بعد قليل، سيدق الناقوس وسوف تتصرفون أيها الأولاد، ولن نتقابل بعد ذلك ستذهبون، ولن ألقاكم حتى في الطريق؛ لأني سوف أترك مهنة التدريس، وسوف أذهب إلى مدينة أخرى.

وأفتح الدرج لأرد كل الأشياء "المصادرة" في أثناء العام: مسدس مائي لجورداني، وعلبة خراطيش لسبادوني، ونحلة لما نيلي، وخمسة طوابع بريد سويسرية عادية لدانيلي. ولكنه كان يظن أنها تساوي مبلغًا وقدره وكان ينتظر هذه الطوابع؛ لأنه كان يجب أن يعطيها إلى صبي كان قد وعده أن يعطيه– حسونًا– في مقابلها.

وكان لابد أن يكون الطريق خاصًا بالآباء والأمهات والأقارب، وكانت الضوضاء تصل إلى داخل الفصل. وكان لابد أن تكون هناك أيضًا جدة سبادوني. تلك العجوز التي كانت في كل مرة تراني تقول: "شكرًا.. شكرًا يا سيدي المدرس" وكانت تريد تقبيل يدي؛ لأن حفيدها الصغير له قدمان طويلتان. وفي يناير عندما جاء عيد الغطاس(١)، واحتفلت به المدرسة، لم يكن هناك أي زوج من الأحذية التي قدمتها المدرسة مناسبًا له. واستطردت العجوز قائلة: "سيدي المدرس"، تذكر أن حفيدي دائمًا مصاب بالبرد، وحفلة عيد الغطاس المدرسية، ولو إنها مظهر للطيبة والكرم، إلا إنها لا تفي بحاجة الأولاد ذوي الأرجل الطويلة. وهناك بعض الفقراء في بعض الأحيان الذين لا يمكن للإنسان أن يتصدق عليهم، ولذلك فقد أعطيت لسبادوني زوجًا من أحذيتي التي كانت مناسبة له والتي أبعدت عنه البرد.

---

(١) في هذا العيد تقيم المدرسة حفلة توزع فيها الهدايا على التلاميذ المحتاجين. ولهذا الاحتفال صلة بالطقوس الدينية.

ولا بد أن يكون هناك أيضًا والد جورداني، وهو رجل رث الثياب قصير القامة، يحييني على مسافة مائة متر. وفي بداية العام عندما أخبرنه بأن ابنه لا يستذكر الدروس، أمسكه من أذنه، وأخذ يجذبه منها لمدة خمس دقائق متوالية، وهو يواصل كلامه ويقول لي: والآن فإن الولد لا يستذكر أبدًا، وهو لا ينتظر ما أقوله له، وفي كل الأيام وبانتظام ساعة الخروج يمسك أذنه، ويجره بهذه الحالة إلى المنزل. ولكن في هذا الصباح، رأيت جورداني مسرورًا؛ لأنه قد نجح ولأول مرة منذ تسعة شهور لا أرى والده يجره من أذنه.

الشمس ليست قوية هذا الصباح، والنافذة مفتوحة على مصراعيها.

وتدخل الفصل حشرة ذات جناحين من ذهب.

"خنفسة.. خنفسة".

ويريد الجميع أن يأخذوها، أما الوحيد الذي نظر إليها بذهول، فقد كان مارتينيللي.

كيف هذا؟ كيف يرى مارتينيللي تلك الحشرة دون أن يسرع إليها، وهو ينشد الأغنية السحرية لإمساك الخنافس؟!

وإذا كان مارتينيللي قد ظل ثابتًا، فهذا معناه أن هناك شيئًا في قلبه.

وهذا يعني أنه غير مسرور؛ لأن المدرسة ستنتهي، وإني سأذهب.

– وداعًا يا أولاد، وخيم سكون مطبق على الفصل، الخنفساء ذات الأجنحة الذهبية مازالت تطير، ثم ذهبت بأعجوبة.

وفجأة سكتت الصراصير عن غنائها، وظلت مختبئة تحت أوراق شجرة الفناء، وساد صمت أكثر عمقًا.

- وداعًا يا أولاد، لقد مكثنا زمنًا طويلًا معًا، والآن– وعند دق الجرس– ستذهبون إلى جهة وأنا إلى جهةٍ أخرى. ومن يدري إذا كنا سنلتقي ومتى، ربما بعد مدة طويلة. سنسير في الطريق، ولا يعرف أحد منا الآخر عندما تكونون قد نسيتم مدرسكم.

- لا.. لا يا سيدي المدرس.

- سكوت.. دعوني أتكلم، كونوا طيبين، تابعوا الدراسة، ستجدون مدرسين أكثر قسوة في المدارس الثانوية. وأنت يا مارتينيللي، إنك لن تستطيع أن تحضر زهورًا وفراشات في الفصل، ولا حصى، ولا ذلك الزند الذي يقدح الشرارات الذهبية، ولا تلك العلب الصغيرة التي بداخلها اليراعات. ولنحي بعضنا البعض الآن؛ لأن في الأسفل أناسًا عديدين. وداعًا يا أولاد، سوف أتذكركم دائمًا، وكل ما علمته إياكم علمته من قلبي فلا تنسوه، وإذا كنت مرة غير عادل.

وترك مارتينيللي مقعده، وجاء إلى المنصة وعيناه مملوءتان بالدموع، وتبعه الآخرون والتفوا من حولي.

- لقد "صادرت" نحلتك يا مانيلي، وطوابع البريد السويسرية يا دانييلي. وأنت يا جورداني، إني أستسمحك لأني جعلت والدك يجرك من أذنك كل يوم.

حتى جورداني كانت عيناه دامعتين، وهو يقول:

- لا يهمك يا سيدي المدرس، إن في أذني "كالو" واقترب مني، وجعلني ألمسه.

وقال سبادوني: "وأنا كذلك" واقترب مني.

إنه ليس صادقًا، إنه أيضًا يود أن ألاطفه قبل أن أتركه.

وتزاحم الجميع حول المكتب، وكل واحد منهم به شيء ما كان يود أن يريني إياه، ويتخذه وسيلة للتقرب مني: إصبع مجروحة، حرق، ندبة تحت الشعر.

– لقد "صادرت" جنودك الصغيرة يا مارتينيللي.

وشهق مارتينيللي قائلًا: "إنني أنا يا سيدي المدرس الذي وضعت البرص في درج مكتبك"

وقال سبادوني رافعًا يده: "وأنا الذي كنت أحدث صوت البوق في آخر الفصل، وأنت يا سيدي المدرس لم تعرف ذلك أبدًا".

– افعل ذلك الآن يا سبادوني.

وانتفخت أصداغ سبادوني التي نزلت عليها خطوط من الدموع، وقلد صوت البوق، إنها تلك الضوضاء الغريبة التي تشبه صوت البوق الذي كنت أسمعه طوال العام.

– مرحى يا سبادوني.

ومررت بيدي على شعره، إنها المرة الأخيرة التي أسمع فيها هذه الضوضاء.

وقال واحد منهم: "وأنا أيضًا أستطيع أن أفعل ذلك".

– وأنا أيضًا.

– وأنا أيضًا يا سيدي المدرس.

وقلت لهم: "أفعلوها.. أفعلوها جميعًا هيا".

وتجمعوا حول المكتب بالقرب منى، مثل: إخوتي الصغار، ونفخوا أصداغهم بجد وقلدوا صوت النفير. إنها جلبة الوداع.

وقالوا: "هل تستطيع أن تحدث ذلك الصوت يا سيدي المدرس؟"

– حسنًا.. لأن اليوم هو آخر يوم، فإنني أستطيع أن أفعلها، ونفخت صدغي، وفتح الفراش الباب، يخبرني بانتهاء الزمن.

وأدهشنا أنه أيضًا قد نفخ صدغه، ولكنه لم ينجح في تقليدنا.

وها هو ذا صوت الناقوس يأتي من أسفل الفناء، ويدخل الفصول، ويصل عبر السلم، وينتشر خلال الممرات.

وتزداد الجلبة التي في الشارع.

– وداعًا يا أولاد.

وهنا قفز مارتينيللي، وعانقني، وقبلني على خدي، وتركها قذرة من أثر "الربسوس" وقال:

– وداعًا.. وداعًا يا سيدي المدرس.

وتعلقوا بيدي وسترتي، ووضع دانييللي في جيبي طوابع البريد السويسرية، ووضع سبادوني علبة الخرطوش، وسألني مانيلي عن العنوان، وحينئذٍ سألني الجميع عن العنوان؛ لأنهم يريدون أن يرسلوا إلي بطاقة أو خطابًا.

وكان الناقوس يدق دائمًا، والفصول الأخرى تستعد للخروج.

– يا أولاد، يجب أن نذهب الآن.

يجب أن أنظمهم في صفوف، ولكن ذلك محال، ونخرج كما لو كنا نجري أنا في الوسط، وبقية الأولاد من حولي. وهكذا ننزل السلالم ولكن بمجرد أن نصل إلى الشارع يختفي الأولاد، وتأخذهم أمهاتهم وآباؤهم وجداتهم وأخواتهم الكبيرات. وأظل أنا وحيدًا على مدخل المدرسة، منكوش الشعر، وقد نقص من

سترتي زرار. ترى من أخذه؟ وخدي ملطخ "بالربسوس".

مازلت أسمع الأصوات من بعيد: وداعًا يا سيدي المدرس.

– سأرسل لك بطاقة.

وأرى عن بعد والد جورداني يرفع قبعته ليحييني، إنه لم ير بعد الشهادة؛ لأنه كان يمسك الولد من أذنه ويهزه.

– وداعًا يا سيدي المدرس.

وداعًا يا أولاد.

رويدًا.. رويدًا.. أصبح الشارع مقفرًا.

وداعًا يا أولاد.. وداعًا أيتها المدرسة.

من تلك اللحظة لست مدرسًا بعد.

وداعًا أيتها المدرسة التي كنت بها تلميذًا ثم مدرسًا، والتي لن يمكنني أن أدخلها لا تلميذًا ولا مدرسًا. وبعد زمن طويل سأعود الى روما، وسأجد معلمين آخرين، ومديرة أخرى، أو مديرًا لايعرفني. ولأي عذر، سأستطيع أن أدخل لأرى مرة ثانية الفصل، ولأفتح "الدرج" حيث وضع مارتينيللي البرص وداعًا حقيقيًا إلى الأبد أيتها المدرسة.

ولكن هناك بعض الأشياء بقيت لي: الطوابع السويسرية الخاصة بدانيللي، وخراطيش سبادوني، وشيء ما قد بقي لمارتينيللي، إنه هو وحده الذي لابد وأن يكون قد أخذه زرار السترة.

وإذا كان هناك شيء يؤسفني عندما أصل إلى المنزل، فهي بقعة "الربسوس" التي لابد أن أزيلها من فوق وجنتي.

عزيزي القارئ

ولو أن ذكريات المدرسة الإعدادية والثانوية أقل تأثيرًا من ذكريات المدرسة الابتدائية– وربما كان ذلك لأنها أحدث عهدًا– فإني أقدم إليك تلك الذكريات القصيرة التي ستجدها كما تحس بها، وإني لواثق من إنها غير مملة.

الفصل التاسع عشر

الأزهار طبقًا لنظرية فيثاغورث

وأخيرًا– وأنا لم أتخذ قرارًا– عدت إليها بالأمس. فبعد عدد من السنين عدت إلى مدرسة من المدارس التوجيهية. صعدت سلمها رويدًا رويدًا، ذلك السلم الذي كنت أصعده في وقت ما بسرعة. لقد رأيته مرةً ثانية، ورأيت جدران البهو الرمادية اللون، ذلك البهو الذي ما أن ندخل فيه حتى نشعر بأنه في رطوبة بهو الدير.

وأخذت في قراءة السبورة المكتوبة عليها درجات الامتحان، إنها دائمًا معدة كالمعتاد، وتقع خلف شبكة من السلك رقيقة جدًا لدرجة كبيرة. كل هذا دون أن أشعر بخوف، ودون أن ينبض قلبي، كما كان يحدث لي في الأيام الماضية.

"رينالدو أباتيكولا" حصل على الدرجات الآتية: ٦، ٦، ٧، ٦، ٦، ٧، ٨، ٦، ٦ منقول.

"جوليو بالديني" ودرجاته كالآتي: ٦، ٥، ٥، ٤، ٣، ٦، ٥، ٧، ٦ راسب.

"جوفاني بوتزيو" ودرجاته كالآتي: ٧، ٥، ٥، ٦، ٧، ٧، ٦، ٧ وسيؤدي امتحان الدور الثاني في اللغتين الإيطالية واللاتينية.

مسكين "جوليو بالديني".

ولكن لا يهمني شيء من أمره.

إنها أسماء، ولكني لا أعرف من تكون. هل "جوفاني بوتزيو" طويل القامة أو قصيرها؟

هل يلبس "رينالدو أباتيكولا" النظارات مثل "لويجي أباتيكولا" زميلي منذ خمسة عشر عامًا؟

ففي كل فصل من فصول المدارس الإعدادية، أو التوجيهية، يوجد من يُدعى أباتيكولا منذ خمسة عشرة عامًا مضت، وكنت في ذلك الوقت أصعد ذلك السلم وأنا أجري، وبعد ذلك ودون أن يدق قلبي أصبحت أسير ببطء تلك الخطوات العشر لكي أصل إلى سبورة الامتحان، إنه عكس ما أنا فيه اليوم. فقد كان حينئذٍ يوجد على السبورة اسمي واسم زملائي:

"لويجي أباتيكولا"- الذي كان يلبس النظارات- ناجح.

"فري ازوليني" صديقي حتى اليوم وان كان بعيدًا عني- منقول "أدريانو كاريللي"- ذو الشعر المنقوش وذو السيقان الكثة بالشعر منقول.

"فرجيليو اندريولي"- وقد نال اليوم أكبر شهادة جامعية في إيطاليا والذي كان يستذكر ست عشرة ساعة في اليوم- ناجح.

أما "ريناتوجاكوفاتشي" - الذي كنت أقوم بعمل الواجبات له فقد رسب.

أما "جوليو بالديني" فلا يهمني شيء عنه. وأما عن "ريناتو جاكوفاتشي" فقد أسفت لرسوبه. فنحن الذين نجحنا في الالتحاق بالمدرسة، وأما هو فبقي في المدرسة الإعدادية، ولقد فقدناه، ولم أره بعد. كان طويلًا جدًا، ونحيفًا جدًا، وكان يلزم أن نقف على أطراف الأصابع لنقرأ نتيجة الامتحان، أما هو فكان ينحني.

ولكن هل كنا أيضًا مضحكين للغاية منذ خمسة عشر عامًا، كان شعرنا هكذا واقفًا مثل شعر الفرشة، وحب الشباب على وجهنا، و"بنطلوناتنا" ليست

بالقصيرة ولا بالطويلة، وعضلات أرجلنا كثة الشعر، ووجهنا مثل وجه الأطفال، ولكن صوتنا مثل صوت الرجال.

وكان يخيل إلينا أننا شخصيات بارزة، وهكذا كنا ننظر إلى الفتيات، وكنا نرتدي قبعات من القش عريضة للغاية وحولها شريط، كتبت عليه عبارة: المركب الملكي "دويليو"!

البهو يزدحم، الآباء والأمهات والفتية بوجوههم التي تبدو كوجوه الأطفال، وأصواتهم التي تشبه أصوات الرجال، وتلاميذ المدارس الدينية الداخلية، يتقدمون الامتحانات كطلبة متقدمين من الخارج، ويلبسون ملابس الرعاة الصغار.

والآن الجو حار، والنافذة المفتوحة على مصراعيها وتطل على شارع مظلم وضيق وهي لا تصلح لكي تجعل المكان رطبًا أو لتزوده بالنور.

وكان كل من أدى الامتحانات، يتجمع أمام سبورة النتائج، كما كان كل من عليه تأديته أن يتجمع أمام باب الفصل.

إن ذلك التلميذ بلا شك هو "رينالدو اباتيكولا" الوحيد الذي نجح إنه يمكث منذ نصف ساعة عند سبورة النتائج، دون أن يتحرك، وهو يفعل ذلك ليفاخر بنفسه أمام الناس. كما أن ذلك هو "جوليو بالديني" الراسب، والذي يمر بإصبعه على اسمه ودرجاته، وهو شاحب اللون، وبعد ذلك يبدأ هذه العملية من جديد آملًا أن يكون قد أخطأ، وإصبعه يرتجف، ويشير فترة من الوقت إلى درجات "أباتيكولا" الممتازة.

مسكينة تلك الإصبع التي تنتهي دائمًا عند كلمة راسب، وأنا لماذا أمكث هنا؟! فلا صلة بعد بيني وبين المدرسة.

ربما يكون حضوري إلى المدرسة لرؤية "جوليو بالديني" ذي الأصبع المرتجفة–

وأولئك الرعاة الصغار الذين يلبسون الملابس السوداء، التي تجعلهم أكثر شحوبًا وقسوة مني.

هل يلبس هؤلاء الرعاة السراويل تحت ستراتهم الدينية؟

ربما كان ذلك صحيحًا، ربما كانوا يلبسون "البنطلونات" نفسها التي ليست بالقصيرة ولا بالطويلة والتي يرتديها الفتيان الآخرون، وربما يشعرون في قلوبهم بالرعب نفسه، ويفكرون في الأفكار نفسها: تشيرو، وقمبيز، ليكورجو، سولوني. .

وأذكر عندما كنا في السنة الخامسة بالمدرسة الإعدادية، أننا كنا نذاكر مادة "التاريخ الشرقي والإغريقي" عند ساعات العودة بعد الظهر، وإني لأتصور الكتاب الآن، لقد كان غلافه أخضر اللون ومكتوبًا عليه

"رينالدو لويجي" التاريخ الشرقي والإغريقي.

كان الأستاذ "اميلياتي" المدرس بمدرسة الناصرية الداخلية، يشرح التاريخ، ويعيد الشرح مرة بعد مرة، ولم نكن نسمع شيئًا. كان يتحدث عن تشيرو، وقمبيز، وليكورجو، وسولوني. وكان الجو حارًا، ومجرد سماعنا لناقوس انتهاء الدرس كنا نستيقظ.

أي شيء تحت إبط هذا الفتى الصغير؟

آه، لكني أعرفه إنه ذلك الكتاب بعينه.

إذن لم يتغير شيء، ومازال الأمر كما كنا، منذ خمسة عشر عامًا مضت. ألا تزالون تدرسون في هذا الكتاب "علم الصرف اللاتيني" المؤلفة زينوني؟

أما زلتم تدرسون على– زينوني– كما كنا نقولها على أيامنا، أنتم بالطبع تقولون ذلك الآن. كتاب زينوني المبقع، والمطوي من كثرة الاستذكار، والذي تمزق

غلافه، وتبعثرت صفحاته التي تطير في الهواء، وتحتاجون إلى نصف ساعة على الأقل لإرجاعها وجمعها. وأنتم أيضًا ترسمون على زينوني الرسومات الشائنة (أليس هذا حقًا؟ ألا تخفون تلك الرسوم بالقلم "الكوبيا" في اليوم السابق للامتحانات؟).

كل شيء كما كان منذ خمسة عشر عامًا.

لقد كنا في تلك الحالة التي أنتم عليها اليوم، ودخولكم على أطرافه الأصابع في فصول الامتحانات كان حالنا نحن، وكنا نزدحم في المقاعد الأمامية لنسمع الأسئلة الملقاه على الآخرين. وكان السؤال الذي نعرف إجابته يضايقنا.

لأننا كنا نفكر أن هذا السؤال لن يوجه مرةً ثانية لأحد.

وتلك الأسئلة التي لم نكن نعرف إجابتها كانت تملأ قلوبنا بالرعب.

– متى ولد ساللوستيو؟ متى ولد؟ متى ولد؟

والجميع يتصفحون بسرعة كتاب "تاريخ الأدب اللاتيني" ويرتجفون، وأيديهم لا تعرف كيف تصل إلى الصفحة، وأعينهم لا تعرف أين يقع السطر.

– ولد في عام (٨٦) قبل الميلاد في "اميتيرنو"، مدينة أهل سايبني وبعد أن وجد هذا التاريخ، فها هي ذي شكوك أخرى. متى ولد "قيصر"؟

في أي عام قام "أوراسيو" برحلته إلى "برنديزي"؟ كم رواية كتبها "بلاوتو"؟ ما هي أهم رواياته؟

ويبدو– في وقت معين– بسبب الجهد الذي نبذله لنتذكر كل شيء.

ويبدو لنا أننا لا نعرف شيئًا، وتقطر الجبهة عرقًا باردًا، ونرغب في الخروج والانصراف إلى أبعد ما يمكن مادام يخيل إلينا أننا لا نستطيع أن نجيب عن أي سؤال من الأسئلة.

وتدور في الرأس تواريخ وأسماء وأماكن وعناوين كتب وروايات: سنة (٣٧) قبل الميلاد أربعون رواية على ما يقول فاروني، وإحدى وعشرون رواية على حد قول ايليوستيلوني، سنة مائة قبل الميلاد، وعشرات من الأسماء الإغريقية الشهيرة في فن الدراما والكوميديا من أسماء المؤلفات القديمة، المربع المنشأ على الضلع المقابل للزاوية القائمة يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين. والنباتات ذات الزهور الواضحة والأسدية، والأقلام، والكأس، والتويج، تعتبر نباتات زهرية، ومزيج من الأبيات الشعرية.

لكن ماذا يحدث؟ وكيف يحدث هذا فمن بين روايات بلاوتو قد بقيت نظرية فيثاغورث مختفية، ومن نظرية فيثاغورث تنبت الزهور ومن ثم تختفي الأزهار، وبعد ذلك يظهر الثور الذي وصفه الشاعر كاردوتشي في قصيدته المشهورة.

إنها الرهبة من الامتحانات التي تجعل من تلك الأشياء هزلًا ومزاحًا، إنها الرهبة من الامتحانات التي تخلط المواليد مع الموتى، والثيران والأزهار، وعواصم أوروبا ونظرية فيثاغورث، وتهزها وتقلبها كما تقلب الوريقات التي عليها أرقام "اليانصيب"، ولكن لحسن الحظ أن كل شيء في لحظة الامتحان يبدو حسنًا، فالأفكار تعود في مكانها. ولا خطر من أن يسأل التلميذ عن نظرية فيثاغورث، ويجيب وهو ينشد شعر كاردوتشي.

وفي الخارج– في البهو– ينتظر الآباء والأمهات دون صبر، ينظرون إلى ساعة الحائط. وفي كل مرة عندما يفتح الباب ويخرج منه فتى، يأملون أن يكون ابنهم، والآباء يروحون ويجيئون، الأمهات يتحدثن فيما بينهن.

وتقول إحداهن: "لقد استذكر ابني كثيرًا، وهو عصبي، يفتح ويغلق عينيه باستمرار".

وتقول أخرى: "لقد كان ابني مريضًا طوال الفترة الثانية، وكان لزامًا علي أن أحضر له مدرسًا خاصًا".

وأم كانت أصغرهن جسمًا، ولكنها أكثرهن غطرسة، تقول:

– إن ابني يؤدي امتحان سنتين في سنة واحدة "يمتحن سنتين في سنة ؟!"
وتنظر إليها الأمهات بحسد، فتقول الأم:

– نعم، ابني يمتحن سنتين في سنة، ولقد حصل على متوسط ثماني درجات في جميع المواد. ومن السنة الرابعة الإعدادية ينتقل مباشرةً إلى السنة الأولى التوجيهية دون أن يدرس السنة الخامسة الإعدادية.

إنه يستذكر دائمًا، وإني كثيرًا ما أحثه على ترك الاستذكار، وعلى أن يذهب ليتنزه مع إخوته.

– إنه ظاهرة غريبة، نريد رؤيته.

وها هو ذا الباب ينفتح، وتبدو الظاهرة الغريبة.

إنه ضئيل الجسم، وعمره خمسة عشرة عامًا، ولا يبدو عليه أنه يزيد عن اثنتي عشرة سنة. يحمل نظارات، ويبدو كأنه أصلع، لكثرة حلاقة شعره، وهو مكروه وضئيل، ولكنه مملوء بالغرور كأمه التي لو كان لها ذيل كذيل الديك الرومي، لفتحته على وسعه كالمروحة، ومشت متبخترة وهي تمسك ابنها من يده.

يخرج الآن راعٍ صغير لقد نجح ولكن ليست معه أمه ليقول لها وهو مسرور أنه قد نجح؛ فأمهات الرعاة بعيدات عنهم، حيث يعشن في بلدان بعيدة، ولكي يصلن إليهم فلابد من القطار والعربات.

والراعي الصغير يمكث هناك في ركن، وهو في منتهى الهدوء، يتصفح بصمت تلك الكتب التي لو تصفحها منذ ربع ساعة لما استطاع، فقد كانت يده ترتجف،

وهو الآن ينتظر زملاءه.

ويخلو الفصل من التلاميذ شيئًا فشيئًا، ويبقى ثلاثة تلاميذ، ثم اثنان والأساتذة متعجلون ينظرون إلى الساعة. بقي تلميذ واحد فقط، وهو يرتجف ويعرق، إنه راعٍ صغير وقلبه يدق بقوة تحت سترته الدينية التي يرتديها.

ما أسعدك أيها الراعي الصغير!، ما أسعدكم أيها الصبية! فأنتم مازلتم تخافون من هذه الأشياء، تلك الأشياء الصغيرة. تخافون أن تجيبوا بأن الفراشات ذات أجنحة جافة بدلًا من أن تقولوا إنها ذات أجنحة لينة، وأن القلب له ثلاث أذينات بدلًا من اثنتين. وإن زهرة الخوخ بيضاء ولها ست بتلات، والحقيقة إنها حمراء فاتحة ولها خمس ورقات.

أشياء صغيرة لا أهمية لها، وصغيرة تمامًا مثل الفراشة، والقلب، والزهرة، تلك الأشياء للأسف نحن لا نهتم بها، ولا تهمنا، ولا نشعر أيضًا برهبة من السبورة التي تعلق عليها درجات الامتحان: راسب، وناجح، له دور ثان. ماذا يهمنا من ذلك؟

من هو رينالدو أباتيكولا، إننا لا نهتم بمعرفته.

نقرأ درجات الامتحان بهدوء وإن كان قلبنا يدق بشدة، فذلك بسبب صعود السلالم، ولا يوجد أحد بعد في الفصل.

الرعاة الصغار يرجعون إلى المدرسة الداخلية جميعًا، ويودون لو أنهم يصيحون قائلين: "أنا ناجح، أنا ناجح". ولكن بالعكس كانوا صامتين يعودون على أطراف أصابعهم إلى حجراتهم الصغيرة. يفكرون في أمهاتهم البعيدة عنهم، في بلد يتطلب الوصول إليه ركوب القطار و"الحنطور".

أما أنا؟

سأعود خلال بضع سنوات، سأصعد السلالم بسرعة، وسأقترب من سبورة القبول بالمدارس الإعدادية مرتجفًا، وأبحث بيد عن اسمي، بينما أمسك بالأخرى يد ولدي.

الفصل العشرون

وداعًا لامتحان الشهادة الحكومي

والآن وداعًا لامتحان الشهادة الحكومي، وهذا هو آخر عام.

وابتداءً من سنة (١٩٤٠) لن تكون هناك تلك اللجان الخارجية المرعبة، وسيمتحن التلاميذ أساتذتهم أنفسهم بمساعدة مبعوثين من الوزارة.

وسيذهب هذا الامتحان الحكومي– بعد سبعة عشرة عامًا– إلى غير رجعة، ولن يبكيه أحد. كان مغامرة على أية حال، مغامرة جميلة إذا نجح فيها التلميذ، ولو لم يستذكر، ومرعبة إذا حدث العكس

سيذهب بعد أن هز الجهاز العصبي لآلاف من الطلبة.

وهناك من هم مثلي، ومن تركوه منذ اثني عشر عامًا، ولايزالون يحلمون به، ويبدو لهم أنه يجب أن يؤدوه، ويحسون بذلك الحر الخانق في شهر يوليو. ويرون أساتذة ضخامًا يحدقون فيهم النظر، ويشيرون إليهم بالسبابة، قائلين: "إذا أخذنا من غاز الميثان كيد ٤ ذرة أيدروجين، وأضفنا إلى الجذر الأحادي الذرة كيد ٣ فلز، فعلى أي شيء نحصل؟

من يعرف هذه الأشياء.. لا أحد حتى الأساتذة لا يعرفونها، مع أنهم يتظاهرون بمعرفتها، أو أنهم قرءوها منذ لحظة في الكتاب.

وأستيقظ وقلبي يدق بشدة، وأنا أتصبب عرقًا من ذلك الحر الشديد الذي أحسست به منذ اثني عشر عامًا، ولكني سعيد.. سعيد؛ لأن هذا ليس إلا حلمًا.

ومع أنني فقير، ولي أسرة، لا أدري هل تكفيني مائة ألف ليرة، لكي أعيد امتحان الشهادة العامة.

ولا أدري هل سأكون قادرًا على أن أكرس نفسي للاستذكار ثلاثة شهور متابعة ليلًا ونهارًا.. وخصوصًا بالليل.. هل تذكرون؟

كان الجو حارًا، والنوافذ مفتوحة، وكانت هناك بعض الفراشات الكبيرة التي اجتذبها النور، وأعماها الضوء، تتساقط على المقطوعة الثانية والعشرين من قصيدة "أورلاندو الغضوب"[١]

"ومزق الحجاب الذي كان يخفي...

ذلك الإشعاع المخيف السحري...

الذي كان يقع كل من ينظر إليه...

وقد أعماه ضوؤه...

ولم يكن هناك طريق لتفاديه...

وكانت تلك الفراشات، تحدث طنينًا مخيفًا في سكون الليل العميق.

وكان هناك اثنان دائمًا في الحجرة، أحدهما يقرأ بصوت عالٍ، والآخر نائم وعيناه مفتوحتان.

وكانت هناك على المنضدة القهوة المضروبة بالبيض، والليمونادة التي أعدتها الأم، وأكوام السجائر. وعندما كانت تنتهي تلك السجائر كانت أعقابها تصلح لعمل سجائر أخرى، ويستمر الاستذكار ساعة. ثم هناك عشر دقائق للراحة، يتخللها الحديث عن البنات، أول بنات ومن ثم فإن تلك الدقائق العشر كانت

---

(١) تأليفه لودو فيكو آريوستو.

تمتد إلى ساعتين، وتأتي من الطريق أصوات المكانس.

– هل نجحت في...؟

– آه. لا.. بعض القبلات فقط.

وينبثق الصباح، وتأخذ السماء لونها رويدًا رويدًا، ولا يثرى ضوء المصباح.

وأوائل الترام، ثم رجل يصفر بفمه، ثم يأتي النوم، وتأتي إلينا الأم لتجدنا نائمين وجبهتنا على قصيدة "المدافن" للشاعر أرجو فوسكولو، وزميلي قد وضع صدغه على قصيدة يأس "ديدون"[1].

"أيها الخائن، هل راودك الأمل أن تتمكن من إخفاء جريمتك البشعة، وأن تبتعد عن أرضي خفية؟

وتقول الأم: "اذهبا إلى السرير، فإن هذا ضار بصحتكما، والأحرى أن تستذكر نهارًا.

ولكن الليل جميل فيه السكون الشامل، ونستطيع أن نحس بكلمات ديدون، وتستطيع ذاكرتنا أن تعيها.

وفي النهار، كنا نذهب لنسمع أخبار امتحان زملائنا، وكنا نجلس في أوائل المقاعد، ونفتح آذاننا جيدًا، لنستمع إلى الأسئلة ونوعها، ونأخذ عنها بعض الملاحظات.

وكثيرًا ما كان يأتي السؤال عن أسباب الثورة الفرنسية، وحركات سنة (١٨٢١). وفي المساء القهوة، والليمونادة، والسجائر، والأسباب البعيدة للثورة الفرنسية.

(١) مؤسسة مدينة قرطاجنة. أحبت البطل إينياس وهي في طريقه إلى إيطاليا.

"الأسباب البعيدة للثورة الفرنسية لابد وأن ترجع إلى بقاء المؤسسات والتنظيمات الإقطاعية، والى عدم المساواة بين الممتازين وغير الممتازين".

الجمل نفسها دائمًا، هل تذكرونها؟

وفي أي مرجع من مراجع التاريخ، كان يبدأ هكذا الفصل الخاص بالثورة الفرنسية؟

إنها جمل لانزال نذكرها، ولن ننساها أبدًا. إن بعضها يبدو لنا الآن سخيفًا، مثل كثير من الأشياء الماضية، ولكننا لانزال نحفظها منذ أن كنا أطفالًا. وفي كل مرة تعود إلى ذاكرتنا، فإننا نستعيد ذكريات أوائل أيام شبابنا البعيدة التي مرت هكذا سريعًا، ووجوه زملائنا، وحركات بعض المدرسين.

إنها جمل أعدناها مئات المرات، ونحفظها عن ظهر قلب.

"ملك الجبيديين المسمى "كونيموندو" مات في ميدان المعركة على يد "البوبينو" ملك اللومبارديين الذي حز رأسه، وجعل منها قدحًا يشرب فيه، ثم تزوج ابنته روزموندا.

"أخبار سقوط بيت المقدس، وجهت نظر البابا إلى أن يعد حملة صليبية جديدة، اشترك فيها فريدريك ذو اللحية الحمراء، والذي مات غرقًا في نهر سالف (١٠ يونية سنة ١١٩٠)".

"منفريدي، وقد رأى أن جميع الطرق مسدودة أمامه، عزم على أن يموت بفخر، وتقدم والسلاح في يده، ثم انطلق في وسط جموع الأعداء وهلك".

ولا أود أن أتذكر أكثر من هذا، حتى لا يصبح هذا الامتحان عزيزًا، وآسف لانتهائه. لقد كان أكثر من امتحان، خوف مجهول، أساتذة لا يعرفونك، ويكفي أن تتلقى سؤالًا صعبًا وتأتي لحظة شرود وتجد نفسك قد رسبت. وأنت تعرف كل

شيء عن "ألفييري"، وحتى لون عيونه وشكل يديه. ما عدا السنة التي كتب فيها مسرحية "النافذة الصغيرة". وهو أمر ليس من الأهمية بمكان، ولكنك تجد في لجنة الامتحان أستاذًا عاديًا جدًا، ويبدو إنه رب أسرة طيب، ولكنه مقتنع تمامًا أنه لابد لدخول الجامعة، ولابد للنجاح من معرفة السنة الحقيقية التي كتب فيها "ألفييري" مسرحيته "النافذة الصغيرة" وهكذا يتبخر تعب ثلاث سنوات في الدراسة الثانوية!

وهناك أيضًا العكس، إنك لم تستذكر شيئًا وتعرف فقط؛ لأنك يومًا ما فتحت كتاب التاريخ عن غير قصد ووقع نظرك على صفحة (١٧٩) وقرأت أن "اللومبارديين" كانوا يسمون هكذا؛ لأنه كانت لهم لحي طويلة. وتذهب إلى الامتحان بتلك المعرفة الناقصة الخفيفة الهوائية، ثم ينظر أستاذ التاريخ إلى الساعة ويرى أن الوقت متأخر، ثم تسمع هذا السؤال:

– سألقي إليك سؤالًا واحدًا.

– لماذا كان اللومبارديون يُسمون هكذا؟

ويمكن أن يتوقف نجاحك ورسوبك على سؤال أخير.

"هل كان داني جولفيا أو جبليًا"[١]. وإذا كنت لا تعرف الإجابة، فستدور بخلدك هذه الأفكار في مدى لحظتين اثنتين.

إن الأستاذ قد سألني وهو يضغط بصوته على كلمة جولفي، ربما لكي يخدعني ويجعلني أفكر في أن الكلمة التي مر عليها سريعًا، وهي إنه جبلي عين الصواب، بينما الأمر بالعكس. والإجابة إنه جولفي!

ولكن أليس من الجائز أن يكون المدرس قد فكر في أنني سأنحو هذا النحو

(١) حزبان سباسيان كانا في عهد دانتي

في التفكير، ومن ثم فإن الكلمة الصواب إنه جبلي. ومن جهة أخرى، لو أنه قد افترض أيضًا ذلك التفكير الثاني، فإن الإجابة تكون إنه جولفي، ولو أنه قدر أيضًا ذلك التفكير الثالث، إذن دانتي جبلي.

– إنه جبلي، سيدي الأستاذ.

– "برافو" وأنت ناجح.

وفي امتحان الشهادة العامة، ترى أشياء عجيبة.. أوائل الفصل راسبون، وأواخرهم قد نجحوا، ومدحتهم لجنة الامتحان.

وهناك أيضًا أشياء مؤلمة. طلبة قد رسبوا ثلاث سنوات متتالية، تقدموا كل سنة، ولم يكونوا أغبياء، واستذكروا جيدًا. وكانوا دائمًا عديمي الثقة، ووجوههم شاحبة ضامرة، وعيونهم زائفة مدورة، ولحاهم قد استطالت، ورسبوا في كل سنة، ولكنهم لم يرسبوا في نفس المواد.

وأذكر منهم واحدًا، كان يسمى "جرافيلليني" لو رسب في كل السنوات في اللغتين اليونانية واللاتينية، لقلنا له: "لماذا تلح في الحصول على التوجيهي الأدبي؟ اذهب إلى فرعٍ آخر، ولو أن عندك حقول أو مزارع فتعهدها، ولكن المسكين كان ينجح في عام في اليونانية واللاتينية، ويرسب في الرياضة والعلوم، وفي عام آخر ينجح في العلوم والرياضة، ويرسب في اليونانية واللاتينية، وفي سنة أخرى ينجح في كل تلك المواد الأربعة، ولكنه يرسب في التاريخ والفلسفة وتاريخ الفن.

وفي النهاية، تعود أن يذهب إلى الامتحان هادئًا، وهو يعرف مقدمًا أنه سيرسب. إنه لم يكن يعرف في أي مادة سيرسب، ولهذا كان يتراهن مع زملائه على ذلك.

ولم يكن تقريبًا يخطئ أبدًا، فإن معرفته وخبرته بالامتحانات السابقة كانت

تجعله مثلًا يحسب أنه نجح في اللغة الإيطالية واللاتينية ثلاث مرات متوالية، ومن ثم فإنه يتوقع بالتأكيد أن الرسوب في هذه المرة سيكون بالضبط في الإيطالية واللاتينية. مسكين جرافيلليني هذا، فبعد سنوات عديدة صارت لنا أسر، وقد أصبحنا أطباء ومحامين ورجال بنوك، وفي ذلك الوقت نجح.

كم أسف لهذا النجاح؟! وكم هو مؤلم أن تغير فجأة الأشياء المعتادة. لقد تعود أن يكون تلميذًا، ربما قد وضع في حسابه أنه سيؤدي امتحان الشهادة مدى الحياة.

لا أعرف أين هو الآن وماذا يصنع، ولكن على أية حال– وفي أي مكان يكون– فإنه لا شك قد تألم لإنهاء ذلك الامتحان العام.

وأنا أيضًا شعرت بشيء من الألم، لقد كانت الرياضة والهندسة بالنسبة لي من الغوامض.

إنني كنت أحترم فيثاغورس، وبطليموس كثيرًا؛ لأنني لم أكن أعرف ماذا فعلًا.

وكتب الرياضة كان يشتريها أبي في الصباح، وكنت أبيعها بعد الظهر بثمن بخس، ثمن ثلاث سجائر مقدونيًا. وبعد أن أدخنها، كان لا يبقى لي من تلك النظريات، وهذه المعادلات، إلا طعم الدخان في فمي.

والامتحانات التي لو لم تكن عامة، وكانت داخلية، فإنني ما كنت لأنجح أبدًا في الرياضة، وكان لابد أن أؤدي امتحان التوجيهية حتى الآن.

ولكن في ذلك لامتحان، لم يكن الأساتذة يعرفونني، ومن ثم فقد كنت أستذكر الرياضة لمدة خمسة عشر يومًا وخمس عشرة ليلة، أحفظ فيها عن ظهر قلب الأشياء التي لم أكن أعرفها.

وبرأس مملوء بالأهرامات والمكعبات والمناشير، كنت أذهب إلى الامتحان، وعند أول سؤال أفتح فمي، وتتدفق هذه الأشياء من فمي بسرعة كإنها نهر، ناجح!

وأرجع إلى المنزل برأس خاوية تمامًا، لقد خرج كل شيء، ولم يبق بالداخل ولا حتى مثلث صغير، لم أكن أعرف شيئًا أبدًا بعد.

واليوم أجهد نفسي لكي أذكر شيئًا من رياضة أو هندسة الشهادة العامة، ولا أذكر من ذلك إلا بيتين: نعم بيتان يبدوان للعجب كزهرتين قد نبتنا في سطح هائل، عارٍ، ناعم، من الأسمنت.

"ما حجم الكرة؟ أربعة أثلاث النسبة التقريبية (ط). ومكعب نصف القطر (٤ ÷ ٣ ط نق ٣).

وداعًا وألف وداع لامتحان الشهادة العامة، سأكون غير معترف بالجميل، إذا لم أقل أني أراك ترحل وفي قلبي بعض الحزن.

واليوم– إذا لم تكن أنت– فإن زوجتي لابد أن تصطحبني كل صباح إلى المدرسة الثانوية لتسأل الأساتذة عن أخباري. وذلك الامتحان– وهو مغامرة– قد أصبح الآن تذكارًا مؤلمًا لكثيرين، وجميلًا لآخرين. ولو أنك لم تكن تريد أن تستذكر الرياضة أو اللغة اللاتينية، وإنهما لا يدخلان في رأسك. ولو أن اللغة اليونانية شيء ثقيل عليك، فهناك الناظر الذي يدعو والدك ويفهمه إنه من المصلحة أن يحيي ابنه الهمام زملاءه وأساتذته، وأن يذهب إلى عمل لا يتطلب مجهودًا عقليًا، وليس معنى هذا أن ذلك العمل أقل شرفاً أو فائدة.

وحقًا لن يكون هناك خوف من الامتحان النهائي، ولكن هناك حالة احتمال عدم الوصول إليه، وهؤلاء الذين سيصلون ربما سينجحون جميعًا. ليس لأن الامتحان قد أصبح سهلًا مثل اللعبة، ولكن لأنهم سيكونون ناجحين في السنوات الماضية، وناضجين قبل أن يجلسوا أمام ذلك المكتب ذي المفرش الأخضر، وزجاجة الماء المخصصة للرئيس، ووجوه كثيرة من الأساتذة يلاحظون.

ولن يكون الامتحان إلا تقديرًا وتسجيلًا لذلك النضج، وداعًا إذن أيها الامتحان الحكومي القديم.

وداعًا دون دموع، كما يودع من فعل الخير والشر على السواء.

وذلك الخير الذي صنعه قد مزجه بالشر.

وداعًا لتلك الليالي والشبابيك المفتوحة، وداعًا للفراشات التي كان يعميها ضوء المصباح، والتي كانت تطن على المقطوعة الثانية والعشرين من قصيدة "أورلاندو"، وداعًا للقهوة والليمونادة التي كانت تعدها الأم عند الفجر وتأتي لتجدنا نائمين، جبهتي على قصيدة المدافن، وصدغ زميلي على قصيدة "يأس ديدون" التي مطلعها:

"أيها الخائن، هل راودك الأمل أن تتمكن من إخفاء جريمتك البشعة، وأن تبتعد عن أرضي خفية؟!".

وداعًا لكل تلك الأشياء، وإنه لمحزن أن أقول وداعًا، ولكن وداعًا أيضًا للظلم وللنجاح الذي لم ينله من يستحقه، وناله من كان أقل نضجًا من تفاح شهر مايو الفج.

إنني أنا الذي أقول هذا، مثل حي لمن أنعم عليه امتحان الحكومة العام.

أنا الذي لا أذكر من الرياضة إلا هاتين المسألتين:

"ما حجم الكرة: "أربعة أثلاث حجم النسبة التقريبية (ط)".

ومكعب نصف القطر (٤ ÷ ٣ ط نق ٣) وداعًا دون دموع، ودون غضب.

الفصل الحادي والعشرون

لماذا تخافون المدرس؟

لقد دخلت أنا أيضًا هذا الصباح إلى قاعة امتحان "الثانوية العامة" أنا الذي لي زوجة وأولاد، ولقد كنت أشعر أني غريب، وأحس برهبة عند دخولي، وكنت أفكر: "لقد مضت سنوات عدة منذ أن شهدت مثل هذا الامتحان."

ولكن الفراش أمسك بي- كما لو كنت أحد التلاميذ- ودفعني نحو الباب قائلًا: "أن اللجنة مجتمعة أسرع، الجميع في القاعة".

ودخلت وجلست في آخر الفصل- وعلى آخر مقعد- دون أن أنظر إلى التلاميذ الذين كنت أشعر أنهم ينظرون إليّ. وجوه شاحبة بعض الشيء، وذقون طويلة، وعيون تشع منها الحمى، تلك الحمى التي تسببها الامتحانات. وهناك بعض الطالبات بين الطلبة، طالبات خائفات، دون مساحيق ودون شفاه مصبوغة. وحتى أمس، كان هناك من ينظر إليهن ويحدق فيهن أما اليوم، فإنهن لا يثرن فيك أية رغبة، فإنهن لسن بنساء، إنهن طالبات خائفات من الامتحانات. إحداهن قد اتسخت أصابعها بالحبر، والأخرى تقرض أظافرها، وواحدة قربت رأسها من زميلها في المقعد. حتى تقرأ جيدًا بعض النقاط، وظلا جامدين كما لو كانا متعانقين دون أن يلحظا ذلك. فكرهما مركز تمامًا في ثاني أكسيد المنجنيز، الذي إذا أضيف إلى حامض الكلورودريك يعطي...

الجو حار إنه حر الامتحانات، ذلك الحر الذي يسبب عرق الجباه والأيدي،

ويلصق البنطلونات بالركب، وتشعر بقطرات العرق، وهي تنزل على الأصداغ. ولقد وضع مدرس الطبيعة قطعة من ورق النشاف على جبينه، وهو ورق رقيق، ذو لون وردي، وتوزعه الإدارة. وحين أتطلع إلى هذا المدرس، يبدو لي أن السنوات لم تمر، إنه ليس مدرس الطبيعة الذي سألني في الامتحان العام، منذ اثني عشر عامًا، ولكنه مثله تمامًا. ذو شعر رمادي جاف، كالفرشاة، ومنديل حول رقبته للعرق، وتجعيدة فوق جبهته التي تبدو كإنها تفكر دائمًا– ولكن على العكس، ليس هذا صحيحًا - والياقة المنشاة البيضاء، والقميص الملون، والسترة السوداء البراقة وأكمامها البالية عند الكوع، وجيوبها المنتفخة القبيحة الممتلئة بكثير من الأشياء، و"البنطلون" دون طيه وأثر الركبة ظاهر به، ومشدود بالحمالة حتى يصل إلى الصدر، والأحذية قد تلفت مقدماتها العريضة، كانت مستعملة منذ ثلاثين عامًا مضت، ولا يلبسها الآن إلا المدرسون. ومن يدري من أين يشترونها، قد تكون هناك بعض المحلات المترية، في مكان مختف من المدينة، حيث تباع الأحذية القديمة الخاصة بأساتذة الطبيعة.

وتجلس إلى جواره مدرسة الرياضة أمام المكتب ذي المفرش الأخضر، الذي توجد عليه محبرة وريشة لا تكتب. إنها شابة سمراء ذات عينين سوداوين واسعتين تشبه أهالي صقلية. أما أنا.. أنا وحدي فإني ألاحظ إنها جميلة– أو على الأقل مقبولة– ذلك لأن التلاميذ لا يرون فيها إنها أنثى، ولكن يرون فقط إنها المدرسة، وها هي ذي تنظر إلي وأنا الذي قد تعلمت أن أواجه نظرات المرأة، وعاودني فجأة الخوف القديم. خوف اثني عشر عامًا مضت، وأشعر أني قد عدت تلميذًا، وأخفض عيني، ومن المحتمل أن تكون أصغر مني، ولكنها على أية حال مدرسة.

ومدرسة العلوم طويلة القامة، ذات رقبة طويلة، وشعرها أبيض تقريبًا، متجمع على هيئة خصلة على قمة رأسها. ومظهرها مظهر سيدة ودودة، ولكن

لابد وأن تكون قاسية جدًا. ويجلس إلى جوارها، قائد يسأل في الثقافة العسكرية. وعلى أيامنا لم تكن هذه المادة مقررة علينا، ولقد تأثرت عندما رأيت سيفًا براقًا على المكتب إلى جوار المحبرة والريشة التي لا تكتب، قائد طيب حليق الشعر أحمر الوجه لا يخيف مثل المدرسين.

هذه منضدة أساتذة القسم العلمي وفي الجهة الأخرى، توجد منضدة أساتذة القسم الأدبي.

أساتذة مختلفون هذا مدرس تاريخ وفلسفة، وذلك رئيس اللجنة، وهو بدين أصلع، ذو منظار فوق جبهته، مثل سائقي السيارات. يضعها عند القراءة على أنفه، ويلصق جبهته بالورقة، ويجري بأصبعه فوق الأسماء، وينادي: برنيني، بونسانتي، بوزيللى، ألا يوجد أحد آخر يبدا اسمه بـ "ب "؟

والآن يأتي الدور على "كاتشالوبيه"[(١)]. إنه ولد طويل أشقر، امتلأ وجهه ب "حب الشباب" وعيناه ضيقتان حتى تكاد لا تراهما. وبدلًا من ذلك، فإن له يدين هائلتين تبحثان الآن فوق المفرش الأخضر عن الريشة التوقيع، ولكن كيف السبيل إلى التوقيع بيد مرتعشة، وبريشة لا تكتب؟ ومع رئيس لجنة قصير النظر يقرب وجهه من وجهك، وينظر إليك. وقد يكون في رأسه ذلك السؤال الذي يحتمل أنك لا تعرف الإجابة عنه، ويقول: "آه.. آه.. حدثني عن "كورادينو"، من كان كورادينو؟"

ويرتفع في الفصل همس الحسد، أن كاتشالوبي محظوظ، فمن ذا الذي لا يعرف شيئًا عن "كورادينو؟" كان في الخامسة عشرة من عمره، ودعوه إلى إيطاليا. وجاء بعد أن عانق أمه وقبلها، لقد كان ظريفًا مثل "مانفريدي". جاء مع ابن عمه

(١) الكاف ثالث الحروف الهجائية الإيطالية.

الصغير الذي كان في مثل سنه: فردريك النمساوي الذي كان اسمه عظيمًا بالنسبة لطفل صغير، وقد مات كلاهما بالمقصلة. وكانا حتى آخر لحظة متماسكين بالأيدي، وقبل أن يموتا قذف "كورادينو" بقفازه على سبيل التذكار للجموع التي كانت نصب اللعنات على كارلو دانجو. أما فريدريك النمساوي، فلم يكن لديه شيء يقذف به، فحيا بيديه.

واستطرد المدرس قائلًا: "٢٩ أكتوبر سنة ١٢٦٠" دون أن يبدو على وجهه الأسف نحو هذين الطالبين، وهو مهتم بالتواريخ، يريد أن يعرفها جميعًا. ولكن كاتشالوبي لا يعرفها.

– في أي عام عقد صلح "أوترخت"؟

إن "كاتشالوبي" لا يعرف العام فحسب، بل إنه لا يعرف أيضًا ما هو صلح "أوترخت".

ويسود الفصل سكون عميق.

مسكين "كاتشالوبي" الطويل القامة، ذو اليدين الضخمتين، والوجه الذي مازال كوجه الأطفال.

"١٦٤٨..."

المنظار على الأنف يقفز بنفسه على الجبهة، خلط "كاتشالوبي" بين صلح "أوترخت" وصلح "وستفاليا". إن هذه الفترة مليئة بمعاهدات الصلح وحروب عديدة: حرب الثلاثين عامًا، حرب الوراثة، حرب التطور، إسبانيا، هولندا، فرنسا، صلح النمسا، صلح أكويزجرانا. سيكون هناك طالب في الألف، يعرف هذه الفترة التاريخية جيدًا.

آه لو غير السؤال!

ولكنه يصر، ويريد أن يعرف بأي ثمن السنة التي وقع فيها صلح "أوترخت"، إذا سأله عن "كارلو ألبرتو" وحركات سنة (١٨٢١) لكان سهلًا. ولكنه يريد أن يعرف- بأي ثمن- نتائج صلح "أوترخت".

- إلى من صارت صقلية بعد صلح "أوترخت"؟ وإلى من صار جبل طارق ومينورقة؟

ويمر ربع ساعة، وتسمع في السكون خفقات قلوب الطلبة، وقلبي أيضًا، لقد تملكتني رهبة الامتحانات، أود أن أخرج، وإني الآن أفكر وأتخيل.

سيناديني ويسألني.. سيسألني عن حروب الوراثة، وأحاول أن أقنع نفسي أنني قد أديت الامتحان منذ اثني عشر عامًا، وإنه لا ينبغي علي أداؤه بعد، وأنني أستطيع أن أنصرف وقتما أحب. إن القلب الوحيد الذي لا يحس هو قلب "كاتشالوبي" لقد أصبح ضئيلًا جدًا وضيقًا، وعندما يبدأ الامتحان سيئاً، فإن الباقي سيكون أسوأ.

وبين فترة وفترة، يوجد ذلك الملل الرتيب من صوت الأستاذ القاسي الذي يسأل:

- إلى من صارت صقلية بعد صلح "أوترخت"؟ وإلى من صار حكم إسبانيا والمستعمرات الأمريكية. ويفكر التلميذ أن الإجابة عن هذا السؤال مسجلة بالكتاب، والكتاب في المنزل.

وقد مرت عين "كاتشالوبي" على هذه الأسطر، كان ذلك للحظة، ربما كانت لحظة واحدة فقط- وعرف خلالها "كاتشالوبي" إلى من صارت هذه الأرض وذلك الحكم، وربما عندما يرجع إلى المنزل سيجد هذه الأسطر، وقد خط تحتها بخط أحمر.

لقد انتهى امتحان التاريخ، وها هو ذا "كاتشالوبي" يؤدي امتحان اللغة الإيطالية، ويقدم للمدرس الجديد بيد مرتعشة المنهج الذي درسه لماذا يرتعد، ليس هناك ما يدعو للرعشة، إن مدرس اللغة الإيطالية لا تبدو عليه هيئة مدرس، إن جاكتته زرقاء، وسرواله أبيض. ولعله يريد أن يلعب التنس، أو يشرب هذه الليلة البيرة مع أصدقائه.

آه لو فهم الأولاد هذه الأشياء، ولكن الأستاذ بالنسبة للأولاد أستاذ، ولا شيء غير هذا، إنه مختلف عن الباقين. إنه بعيد.. بعيد جدًا، إنهم لا يفكرون أنه في حياته الخاصة كالرجال الآخرين، لا يفكرون، أنه يأكل ويدخن، وأن لديه أطفالًا في المنزل، وأنه يلاطفهم ويلعب معهم ككل الآباء.

لو فكروا في هذا القل خوفهم.

حتى اللغة الإيطالية كارثة بالنسبة "لكاتشالوبي".

"أين توجد ريكاناتي؟" يسأل المدرس عنها عندما يتحدث عن "ليوباردي"، وهذا السؤال يكاد يستقبل بالتصفيق من الطلبة. من هذا الذي لا يعرف أين توجد ريكاناتي؟! إنه "كاتشالوبي. لقد كان يعرف الإجابة، والآن في أثناء الامتحان لا يعرف شيئًا.

تتساءل العيون، وتنقبض الأيدي، إنه يتعب نفسه ليرى الخريطة الجغرافية وفيها "ريكاناتي".

يراها ولكن مهزوزة تارةً في "بيدمونت" وأخرى تسقط نحو "كالابريا" وتارةً تعود وتصعد وتقترب من إقليم "ماركي"، قفي.. قفي باريكاناتي. إنها تراءى له وكإنها تقف، ولكن على العكس إنها تذهب إلى أعلى إلى لومبارديا.

وخلال هذا ينادي مدرس التاريخ على شخصٍ آخر.. شخص ماهرٍ، يعرف

كل التواريخ، كل معاهدات السلام وكل الحروب.

"كاتشالوبي" وهو يتعقب "ريكاناتي" عبر إيطاليا، يسمع من بعيد جدًا هذه التواريخ التي لم يعرفها، تلك التواريخ التي أفسدت له الامتحان، وجعلته يفقد هدوءه وثقته بنفسه.

"صلح أوترخت سنة (١٧١٣)، وصلح وستفاليا في أكتوبر سنة (١٩٤٨)، وصلح أكويزجرانا في (٢مايو سنة ١٦٦٨) ".

ويسمع كلمات الزميل الذي يعرف التاريخ جيدًا كإنها آتية من مسافة بعيدة، وكأنه في حلم!

"على أثر صلح أوترخت أصبح فيليبودي انجو معترفًا به ملكًا على إسبانيا والمستعمرات الأمريكية. وصارت صقلية إلى فيكتور أميديو الثاني، وصار جبل طارق ومينورقة إلى إنجلترا.

وارتاح "منظار" رئيس اللجنة سعيدًا مطمئنًا فوق جبهته.

أما أستاذ اللاتيني واليوناني، فقد استدعى طالبًا وأمره بأن يترجم القطعة التاسعة من هجاء أورازيو المشهور.

"كنت أذهب إلى الطريق المقدس متسكعًا كعادتي، ولا أذكر أي خيال كنت أنغمس فيه".

"حسنًا.. حسنًا، ويعتدل الأستاذ ناحية الطالب، وهو يفرك يديه مبتسمًا، ويقول:

– كم عدد مقطوعات هجاء أورازيو؟

– (١٨) مقطوعة يا سيدي المدرس.

– عظيم جدًا.. عظيم جدًا الوحيد الذي لم يكن على ما يرام، هو ذلك المسكين كاتشالوبي.

ورغم إنه قد استذكر كثيرًا، فهناك تنتظره منضدة أساتذة القسم العلمي:

أستاذ الطبيعة والكيمياء، ومدرسة العلوم، ومدرسة الرياضة.

والسبورة في نهاية الفصل مملوءة بعمليات الحساب والأشكال الهندسية، أرى شكلًا هرميًا قد قسم إلى نصفين طوليين من أعلى، وتلميذة صغيرة شقراء وقفت إلى جانبها معلمة الرياضة، وهي عابسة الوجه لا تلقن أي كلمة للفتاة التي تكتب.

ومن حينٍ لآخر يسقط الطباشير من يدها.

تلتقطه ويسقط من جديد، وحينئذٍ ترسم التلميذة الصغيرة المسكينة ابتسامة على فمها لكي تنال بعضًا من تشجيع المدرسة، ولكنها تصطدم بعينين تجمدانها في مكانها. وبأصبع تشير إلى النسبة التي يجب أن توضحها، وتموت تلك البسمة التي ما كادت ترتسم على فم التلميذة، ويغلق ذلك القلب الذي يفتح للحظة بسيطة من جديد.

يمر الوقت.. كم الساعة؟ في الامتحانات لا يعرف أحد الساعة، قد تبدو كأنها الثانية أو الثالثة بعد الظهر، بينما هي الحادية عشرة صباحًا. وعندما دخلت، كانت تبدو لي بعيدة جدًا، كما لو كانت بالأمس، أو منذ شهر مضى.

والآن أعرفهم كلهم، لقد أصبحت وجوههم مألوفة لدي، وعرفت من منهم ثقيل الدم، ومن منهم ظريف، وكنت دائمًا لا أتكلم، ودائمًا في آخر مقعد، لأنه ليست لدي الشجاعة لأقترب، خوفًا من أن يسألني أحد:

– ماذا يهمك؟ لماذا جئت؟ لتستمتع بما نعانيه؟! لتضحك على أجوبتنا

الخاطئة، لكي تقص بعد ذلك ضاحكا قصة كاتشالوبي الذي لم يكن يعرف أين توجد "ريكاناتي" وكان يقول إنها في صقلية، أو في لومبارديا، أو في بدمونت.

ولكن بينما أنا على وشك الذهاب خجلًا من كل هذه الأشياء، يقترب مني شخص، ويجلس إلى جواري، ويوجه إلى هذا السؤال:

– هل لديك كتب تاتشتو؟ هل أخذت كتب تاتشتو؟

أود لو أقبله في جبينه (سأبدو حينئذٍ أنني مازلت طالبًا، وسوف يناديني الطلبة بـ "أنت" بدلًا من حضرتك، وسيعتبرونني واحدًا منهم).

وأجيب: "لا، لم أحضرها".

ونبدأ في الكلام بصوت منخفض، وأيدينا على أفواهنا، ونحن ننظر بين الحين والآخر ناحية الأساتذة.

ويقول لي إنه لم يرني أبدًا، وأجيبه بأني من طلبة المنازل، وأنني فقدت سنين عديدة بسبب مرض طويل، وأنني لم أستذكر جيدًا وأنني خائف.

وهو أيضًا خائف، إنه شاب يناهز الثامنة عشرة من عمره، ولم يكملها بعد.

يطلعني على دخيلة نفسه، ويتكلم دون شك، كما يتكلم شبان الثامنة عشرة فيما بينهم، وهم الذين ليس لديهم سبب يدعوهم لعدم الثقة. إنني نادم على أني قلت له إنني طالب، ولكني سعيد نوعًا ما. وأجد كلمات مسعفة، تلك الكلمات التي لم أكن أقولها أبدًا منذ وقت طويل، تلك الأفكار الشفافة التي لا تخفي وراءها شيئًا.

– أنت ما اسمك؟

– فانتيني رومولو، وبمجرد أن أحصل على التوجيهية سأتوظف.

لقد وجد لي والدي وظيفة في بنك، وبهذا أستطيع أن أدفع مصروفات الجامعة.

هل نذهب إلى الممر لندخن؟

– هيا بنا.

نقوم على أطراف أصابعنا، ونمر محبين أمام مكتب لجنة القسم العلمي، ويرفع مدرس الطبيعة عينيه، وينظر إلي وأنا أعيد التحية بخجل، ويحمر وجهي مثلما كنت أفعل في وقتٍ ما منذ اثني عشر عامًا، حينما كنت أمر أمام أستاذ الطبيعة وأحييه، إنه يشبهه تمامًا.

وفي الممر– كما كنا نفعل في ذلك الوقت السحيق– نجلس في ركن– مختفين– لندخن، ونشتت بأيدينا من آنٍ لآخر الدخان الذي يخرج من الفم، ونخفي خلف ظهرنا السجائر، عندما يمر الفراش الذي يرفع أنفه، ويستنشق الهواء، وينظر إلينا في شك، ولكننا ننظر إلى السقف ببراءة.

إنها لمعجزة! من قال لي هذا الصباح– قبل أن أدخل هنا– إنه سيعاودني الخوف من هذه الأشياء الصغيرة، تلك الأشياء التي مضت منذ سنوات عدة؟

وأنه سيحمر وجهي، عندما أحيي مدرسًا، وأنني سوف أخفي السجائر عندما يمر الفراش وقلبي يرتعد. وأنني أيضًا سأدخل الفصل فوق أطراف أصابعي، وسأجد الأساتذة أكثر خجلًا عندما أمر أمامهم، وسأعود لأحشر نفسي في آخر مقعد، وأعود للتحدث من جديد مع زميلي الشاب بصوت منخفض.

يتحدث عن أخته التي تريد أن تكون راهبة، ولكن الأب لا يوافقها، وعن والد كاتشالوبي الذي عندما سيعرف أن ابنه قد رسب سيحدث جلبة تسمع في كل مكان، وعن تلك الشقراء التي كانت أمام السبورة، والتي تكاد تكون مخطوبة لهذا الشاب الذي يعرف جيدًا كل تواريخ الأحداث التاريخية، والذي نجح أيضًا في اللغة الإيطالية؛ لأن المدرس جعله يعلق على قطعة سهلة من "أورلاندو الغضوب"، وسأله

عن السنة التي صدرت فيها أول طبعة من "المخطوبان"[1] وعن السنة التي خرجت فيها الطبعة الثانية.

كم تكون الساعة؟

لابد أن الوقت متأخر، إن مدرس الطبيعة ينظر من حينٍ لآخر إلى ساعة يده. وتوقف عن توجيه الأسئلة، أما الآخرون فيتعجلون.

سنستأنف من جديد غدًا.

ووقف رئيس اللجنة، وهو على وشك الخروج، ويقترب منه المسكين كاتشالوبي، وتحت إبطه "طرد" كبير من الكتب.

– سيدي المدرس كيف حالي؟

ويفتح المدرس ذراعيه، ويهز رأسه– وقد وضعت مدرسة الرياضة القبعة على رأسها– وهي الآن تمسح درس الهندسة من السبورة، ويرفع مدرس الطبيعة المنديل عن رقبته، ويمرر ورقة النشاف مرة أخرى على جبهته. ولا أعرف لماذا ينظر إلي من جديد فاحصًا، وتخرج الطالبة الشقراء مع الشاب الذي يعرف جيدًا كل تواريخ مادة التاريخ.

وأما أنا، فإني أخرج مع فانتيني رومولو، ويبقي كاتشالوبي، كاتشالوبي الذي يتذكر فجأة أن "ريكاناتي" في إقليم "ماركي"، ولكن قد سبق السيف العدل. لقد انصرف المدرس، والفصل الآن خالٍ والسبورة دون علامات، وفوق المفرش الأخضر لا توجد إلا المحبرة والريشة.

ويبقى كاتشالوبي وحيدًا في الفصل، ليست لديه الشجاعة للعودة إلى منزله.

---

(١) من أشهر كتب الأدب الإيطالي– لمانزوني.

الفهرس